رواية

نجمة الصبح

رغدة حسن

نجمة الصبح

رغدة حسن

رواية



نجمة الصبح ■ رغدة حسن ■ روا

هذه القصة، قصة حب عبر الجدار بين معتقل ومع
في أحد السجون السياسية في سوريا .وقد اهتمت
الصحافة العالمية وتابعها الصحفي "شون مكالس
إذ حولها إلى وثائقي بعنوان syrian love story
من انتاج شبكة BBC رصد الفيلم تفاصيل
عائلة البطلة حين كانت تقضي سنوات اعتقالها ا
والذي كان سببه الأساسي كتابة هذه الرواية التي
تمت مصادرتها وهي مازالت مخطوط غير منجز .

قام المخرج شون مكالستر برصد واقع الحياة على أرض سوريا حيث جرت احداث الرواية.حصد الفيلم 19 جائزة عالمية أهمها جائزة تشافيلد وجائزة سينما من أجل السلام في مهرجان برلين وجائزة مهرجان حقوق الإنسان العالمي في براغ ، كما تم عرضه في مهرجان دبي السينمائي



9 789776 633001



رواية

نجمة الصبح

رغدة حسن

نجمة الصبح

رغدة حسن

رواية



نجمة الصبح ■ رغدة حسن ■ روا

هذه القصة، قصة حب عبر الجدار بين معتقل ومع
في أحد السجون السياسية في سوريا .وقد اهتمت
الصحافة العالمية وتابعها الصحفي "شون مكالس
إذ حولها إلى وثائقي بعنوان syrian love story
من انتاج شبكة BBC رصد الفيلم تفاصيل
عائلة البطلة حين كانت تقضي سنوات اعتقالها ا
والذي كان سببه الأساسي كتابة هذه الرواية التي
تمت مصادرتها وهي مازالت مخطوط غير منجز .

قام المخرج شون مكالستر برصد واقع الحياة على أرض سوريا حيث جرت احداث الرواية.حصد الفيلم 19 جائزة عالمية أهمها جائزة تشافيلد وجائزة سينما من أجل السلام في مهرجان برلين وجائزة مهرجان حقوق الإنسان العالمي في براغ ، كما تم عرضه في مهرجان دبي السينمائي



9 789776 633001




نجمة الصبح

نجمة الصبح

رواية

رغدة حسن

نجمة الصبح

رواية

رغدة حسن

تصميم الغلاف: سارة عابدين

الإخراج: ليلى سعيد

قطع الكتاب: 14 × 21 سم

رقم الإيداع: 22197 / 2017

الرقم الدولي: 1 - 00 - 6633 - 977 - 978

الطبعة الأولى 2017، الإمارات



دار ورق للنشر والتوزيع

DAR WARAQ PUBLISHING AND DISTRIBUITON

Mob:+971506595950

P.O.Box: 91110 DUBAI, UAE

Email: info@darwaraq.com

www.darwaraq.com

U.A.E

وديعة الفجر المغدور

صفحات طرية، كرطوبة البحر في الفجر، تتدفق منها وقائع حدثت كما هي تماماً بلا رتوش أو معالجة، أوراق لا تزال كما خطتها أنامل عاشقة للضوء والحياة والحرية، بقلم الرصاص في أقبية السجون السورية في الربع الأخير من القرن المنصرم، ذلك ما يميز هذا العمل الطري والغض كطراوة الدم الطازج المتدفق من بلاد محكومة بأشد وأغرب وأقسى أنواع الإستبداد في العصر الحديث.

تصر رغدة حسن، الكاتبة السورية التي خاضت تجربة الإعتقال في عمر مبكر، على اقتحام عالم الرواية من منطقة مفتوحة بلا أبواب، لتقدم تجربتها كمن يحمل جنيناً ولد للتو بصرخاته البكر وشغف عينيه للضوء، ذلك الشغف الذي لا يسقط مع التقدم في العمر.

تقترب رغدة حسن من تجربة اليسار السوري من منطقة غير معتادة، إنها تجربتها الشخصية ودون النظر أو الوقوع في

تطويع ما تكتب لصالح رؤية أيديولوجية أو الإنصياع لنمط أدبي معين أو المبالغة في وصف ما تعانيه شخصيات عملها كما درجت العادة في أدب السجون، إنها تقدم خيوط الدم التي ارتسمت على الأوراق الأولى لتجربتها، ثمة ما هو حي وطازج، تماماً كالصرخات الأولى في وجه الإستبداد، أو الرعشات الأولى في جسدٍ أخذته غواية الضوء إلى أقاصي الألم والمحنة.

في عاصفة هذه الأوراق المبعثرة، ثمة روح لا زالت تنبض، وثمة أنفاس لا زالت حارة وتحمل روائح القول كوديعة لضوءٍ مغدور في عتمات الإستبداد المعاصر.

موفق مسعود

تقديم

أقدم عملي هذا الذي تعثرت ولادته كثيراً، لأنه هو أيضاً لم ينج من الاعتقال والمصادرة... ومنعت من نشره. شخصيات هذا العمل هي تجارب إنسانية تلخص معاناة شعب رزح تحت حكم الاستبداد سنين طويلة، وتلقي الضوء على الزوايا المؤلمة، ورحلات الرعب والخوف والجرأة. إن بعض المقاطع الشعرية الموجودة في العمل، هي رسائل عشق حقيقية بين حبيبين معتقلين وما زالت محفوظة معهما كشاهد على التجربة، وقد تم تهريبها خارج قيود المعتقل.

«الحرية... ثمرة محرّمة»

تمردنا لننالها، فحرمنا من الفردوس

رغدة حسن

النافذة

لم يكن الخجل هو ما منع فرح من البوح أمام الطبيبة النفسية عن آلامها، والتحدث معها بحرية، عن ذاكرتها وحاضرها، والكوارث التي تجتاح حياتها، لكنه إحساسها العميق بالخيانة لنافذتها، التي اعتادت أن تسّر لها بمكنونات روحها الدفينة، وتخبرها ما لا تجرؤ على البوح به أمام أحد.

عين الطبيبة الذكية الثاقبة تخترق جلدها، وتلاحق سيالاتها العصبية، وحركة جسدها تراقب بعين قنّاص محترف ارتعاش الشفاه، حركات أصابع يدها، تحوّل السؤال إلى سياط ملتهبة، يلسع بناره نقطة الخوف والتردد المختبئة خلف صمتها الهادئ، البارد، وهذا التحكم الجهنمي بأفعالها ومشاعرها، الضبط الدقيق لانفعالاتها.

خرجت الطبيبة عن طورها، ناسفة كل النظريات والقوانين والمحظورات، وصارت تناور فرح بأسئلتها اللاذعة، كأنها في امتحان مصيري، صراع مجنون، بين خبرة الطبيبة القديرة، وصمت فرح العميق.

لعل أفضل ما حدث لها في منزل سونيا التي احتضنت متاعبها ومنعت الضياع من تشريدها وأطفالها معها، هو أن التدخين ممنوع في المنزل، فقدمت لها هذه النافذة كملاذ لها ولسجائرها، وكانت أجمل هدية لها، وقعت فرح في غرامها من اللقاء الأول الذي جمعهما.

هذا أجمل ما حدث لفرح في رحلة التشرد تلك، علاقتها الحميمة مع النافذة التي أصبحت جزءًا هامًا من حياتها، وكيانًا تخاطبه. متجاوزة بؤس واقعها، تذهب إلى النافذة كل فجر، في موعد مقدس تتكئ عليها كأنها قارب سحري، وتسافرا مع تقدم قرابينها من الدمع، على عتبة السماء، وهي ترتل أمنياتها وأحلامها، ومخاوفها.

نشأت هذه العلاقة الغريبة بينها وبين النافذة، حالة تشبه العشق والانتماء، كل فجر كانت تنهض من فراشها على عجل، تتفقد زجاجها البارد، الغارق في وحدة تشبه وحدتها إلى حد كبير، تمسح عن أطرافها برد الليلة الماضية، وتبدأ تخبرها عن ليلتها وأحلامها وما فكرت به قبل النوم، تبتسم النافذة لها، وتحتضن همومها بدفء، تشرب قهوتها معها، مقدمة لها مقترحات عديدة من الحلول لمشاكلها، تنتشلها من حالة اللا تركيز العنيدة التي أصابت مهام خلايا الدماغ النشطة، المتوقدة.

ببطء وهدوء، عملت النافذة على عودة فرح لذاتها، وحملتها

لتدرك كيف تعود لاستقرارها، قد تكون النافذة نجحت في استرجاع حالة الطمأنينة لروح فرح، لأنها كانت ترسلها كل فجر إلى نافذة البحر، نافذتها البعيدة جدًا، المتروكة للغياب، ولظى الحرب اللعينة، المهجورة، الهاجعة في دوامة الانتظار، انتظار زعيق النوارس المنفية، وعشّاق الحياة، كانت نافذة البحر عالم فرح الخاص والحميم، صندوق الذاكرة الأولى، وبداية المفردات التي تعلمتها في أبجدية الحرية.

نافذة البحر، شهدت بواكير أسألتها ورقصت معها على إيقاع قصائد علي، التي كان يلقيها على مسامعها حين ترتاح الشمس على كتف الأفق الغارب، وصارت تلك النافذة سيدة الحبق، تدلق كل عشية عبق الشهوة الطفولية، المختبئة بين الحلم ورعشة النضوج الخفية، كنباتات السواحل البكر، تنتشي حين يصادفها مسّ من الشمس الممزوجة بملح الأبد الأزرق.

كأن تلك الذاكرة صارت كل الوصايا، وصايا تلزم فرح بأن تبقى نبيّة الوقت الصعب، وشاطئًا مضاءً للمتعبين.

هذا الأفق المتوهج الذي يواظب كل فجر على القدوم بكامل ألقه للقائها، متشحًا الغيم المنسوج على نول أراكني العنكبوتة، بمهارة أصابع نساجات المعبد القديم، وعبقرية آلهة الأساطير، ليملأ بسحره روح فرح، فتمتلئ النافذة حبورًا حين تثمل فرح من نشوة الغبطة الصباحية، وتذهب بكل هذا التوهج إلى البلاد، تتفقد ظلال الذاكرة.

تنهض من سريرها، بعد أن تقبّل طفلها الذي يرفض أن ينام إلا في حضنها، تعانقه كأنها تترك له مؤونة من القبل والمعانقات لحين عودتها من لقاء النافذة، وتذهب لتشرب قهوتها.

تطل من النافذة على العالم الساكن في صمت عميق، تتفقد الأطفال الغارقين بأحلامهم، نافذة تلو أخرى، تطمئن على جيرانها، كأنها حارسة الوقت، وقبل أن ترتحل لفضائها الخاص، تغلق كل الأبواب أمام فكرة الموت، ممسكة بتلابيب الحياة، ترتب أدواتها، بكل توازن، فاتحة لجناحيها المدى لتحلّق في الفضاء المشع.

المشهد الأول

قالت له:

إني أبتسم ملء أوردتي حين أخاطب نجمك الساحر، وأعدو المسافات طفلة تقفز فوق البرك، لا أهتم بالفصول والأنواء، وضربات الشمس.

ابتسمَ حين ذاك ابتسامته الشهيرة العصية على التفسير، واتكأ كنجم، غاب مع بتلات زهرة تتفتح على جدار الحديقة، أخذه الصمت بعيدًا حيث يسكن حلمه الأبدي في العودة. ولأنه وطنها راحت تشيع في الهواء طيباً ممتزجاً بغناء البحارة، والصواري المتعبة. هي التي صنعت من عناقيد خمره أنشودة لصعودها، ولعينيه البراقتين، راحت تؤلف صورًا نادرة، وآفاقًا قزحية، لأنه أنشودتها الوحيدة، ألقت بالأكوان بعيدًا، لتفسح لقهقهاته الجذلة معابرَ أجمل للوصول.. قالت له وهي تسبح مع غمام عالمه المنتشي برطوبة البحر، المفتون بآهات العشق.

لقد أعدت تكوين الحكايات، اغتسلت من آثامي، صرت

أبتهل كل فجر، كي أمتلك القدرة لأمنحك هذا النقاء الفريد.

قال: «إني لا أريد من هذا العالم إلا بقعة أرض تحتمل وجودنا»

سألته أن يتبعها إلى تلك المساحات العارمة بلهيب النضوج.

حين أخبرته: إني أزرع حقولي وأسرّح شعر الهضاب كي أحميك من وجع الانتظار وأنةّ الوحدة.

اسبقني إلى تلك الشواطئ حتى نشاهد مرور السواحل وأفول النجم، لأن هذا الزمان لنا، والوقت لا يعرف العودة،

فهل تكفينا حياة واحدة؟

تمنت أن تسقط كلماتها رحيقاً إلهياً يخصب احتمالات الفرح في عالمه المقفر.

عامر من قتله الشتات والاغتراب وحب الأرض، جاء العشق وأحياه من جديد، فاستعاد أمانيه عبر موجات صوتها المتدفق غبطة قادمة إليه ينبوعاً من البشائر.

وعندما بدأت رسائلها تصل إليه، كاد ينسى أنه في المعتقل، وأكثر من ذلك، فقد تعلقّ بالمكان وأحب زاويته التي كان يخلو إليها ليتحدثا لأوقات طويلة، وحين أتى موعد مغادرته للمعتقل ليتم ترحيله خارج البلاد رفض أن يترك المكان، كان يحلم كل يوم وهو يراقب مرورها عبر نفق الموت الأصفر صاعدةً كانت أم هابطة من حفلات التعذيب اليومي وهم، يحملونها، بأن يحظى بفرصة ليسمع صوتها وأن يعرفها ويتعرف عليها، لقد افترض

وأراد أن يكون افتراضه حقيقة أنه يعرفها.

على وقع الأهوال التي وسمت جسدها تخيل ما حدث معها ومن هي وكيف تفكر ورسم شخصيتها كان يمتلك مخيلة الفنان المرهف الإحساس، ولذلك تصور حادثات كثيرة مرت بها عبر حياتها في المدرسة وفي الجامعة وفي حياتها اليومية وعلاقاتها حتى أنه تصور الكتب التي من المفروض أن تستهويها والموسيقى التي تحبها، رحلاتها اليومية عبر نفق الموت تحولت إلى مؤشر للحياة التي أهملها عامر وطواها بين الجدران التي شهدت في وقت سابق روحه ودماؤه أيضاً. كان يوقفه هذا السؤال الموجع، كيف يتحول الموت اليومي لشخص ما، إلى دعوات مفتوحة وآمال كثيرة بجدارة البقاء والحياة؟ كما كان موجعاً أنينها، كان موجعاً انتظارها لتأتي إليه كأنها إحدى ملكات الأساطير، عائدة من حروبها، مضمخة بدمها وبعبق المجد والكرامة.

يصل صوتها إليه عبر الأنفاق ممزقاً الصمت والخوف وحالة الموات التي كان يعيشها كل من يرزح تحت سطوة قانون الأحكام العرفية في «فرع فلسطين» الأمن العسكري كانوا جميعاً يطرقون بصمت مؤلم حين تبدأ حفلة تعذيب فرح، وحين يتوقف أنينها، يهرع عامر إلى ثقب الباب ليراها، وتصعقه الرؤيا، يا ويحيهم، ماذا يفعلون بهذه الإنسانية!

لم يكن يملك إلا أن ينزوي ويبكي بصمت ويتمنى لو أن حواسه معطلة حتى لا يتمكن من مشاهدة وسماع ما يحدث

معها، ثم وباللاوعي يذهب إلى ألوانه فتستسلم له ريشته وتبكي معه صوراً تفوق المفردات دقة في التصوير.

عامر المنفي والثائر والرسام الذي خرج من قلب الجرح تاركاً وراءه طفولته ليحمل جعبة الثورة ويرسم بالدم خارطة جديدة لوطنه، تعمّد بالنار وتسلّح بالوعد، لكن رياح الخيانة استطاعت أن تحاصر فضاءه، لتضع حدًّا لمسيرة نضاله، ويتم اعتقاله عن طريق فصيل فلسطيني تابع بولائه للسلطة السياسية الأمنية في سوريا.

طوقوا أجنحته المحاربة في محاولة خسيسة لتذوي روحه المقاتلة، وحوكم عرفيًا، ليسجن ثلاث أعوام في الأقبية الأمنية في سوريا.

الصدفة وطريقته الخاصة في معرفة الأشياء، خدمتاه ليعرف أن مجموعة كبيرة ممن ينتمون إلى حزب شيوعي «معارض» تمّ اعتقالهم، وهم الآن في فترة التحقيق، وقد تمّ تفريقهم في زنزانات منفردة. راح يترقب مواعيد التحقيق معهم من ثقب أحدثوه في بوابة المهجع، وتم التكتم عليه. في كل بوابات المهاجع المصطفة بصمت على طول النفق الأصفر، هناك ثقوب أو طرق أخرى يستطيع المعتقلون عبرها معرفة الداخل والخارج من هذا الممر الطويل الذي يفصل بين المهاجع. صدم حين رآها! كانت محمولة من قبل اثنين من الحراس، وقدماها ترسمان خطاً طويلاً من الدماء على الأرض، وهي في حالة إغماء أو شلل ربمّا!

قال بدهشة:

- من هذه الماردة؟ ولم كل هذا التعذيب لهذه الصبيّة؟

ولأنه تعرّف على أساليب التعذيب المتنوعة، فقد تصور الأهوال التي مرت بها، فراح يسأل ويتقصى بسرية عنها سكنت رأسه، لم تفارقه تلك الصورة، وباتت همّه الشاغل، لا ينفك يفكر فيها، بعد أن عرف الكثير، وعلم أن اسمها فرح.

فرح التي استيقظت أنوثتها، وعطر البحر يتغلغل في خلاياها حتى بات جزءاً من نسيجها الداخلي، عاشت شهقة الموج، وكان قلبها في حضن الزوارق قمراً يرسم صمتاً وتغاريد عشق، لم تغنى إلاّ لفضاء مازال أزرق، هي التي كانت تحتفل مع السماء بولادة كل نجم، وتسابق الريح لتحظى بابتسامته الأولى. تخبّئ أمانيها بين شقوق الفجر، وتوشوش الصنوبر حنينها الأبدي. ولأنها المتفردة في تمردها والتواقة للشمس والإبحار، من اتحدت عيناها مع الأفق، وشربتا أنخاب الذاكرة القادمة، امتلكت الجرأة وكفرت بكل القوانين التي وضعت لإلغاء حقنا بإنسانيتنا.

كانت وحيدةَ تحت وقع السنين، تختصر الأساطير بأغنية تقودها إلى التوازن لا الجنون، وتصوغ من حيرتها قصائد عشق، تمتطي أحلامها لتعبر سراديب المجهول كل ليل، ترتدي الياقوت والصمت، وتختزن في ذاكرتها كُلَّ ما قيل، عصرت الثلج نارا، ومشت كل الدروب.

وحين أرادت أن تحلّق فوق أبراج الاحتمالات، كوفئت بوابل

من نار، وحوصرت هناك، حيث القلق والعار والبكاء والمخاوف الغامضة، في تلك الليالي المريعة التي تضغط القلب مثل ورقة تدعك! حيث القبضات المشدودة في الظلام حين تقرع طبول الانتقام الجهنمي! هناك حيث يحتضر الوقت، ويعلن ضجيج السلاسل نفسه سيداً عليك. حيث الصرخات الفاجعة التي تشطر ذاكرتك إلى نصفين، فيصبح التأريخ لديك قبل وبعد! كأن كلّ شيء كان يتهاوى حولها، وقع الأقدام كان سريعاً جداً، لهاثهم الكريه وكأنهم كلاب مسعورة تجرُّ طريدة، يصرخون، يركضون، والدنيا تدور حولها وكأنها في دوامة، بعد قليل هدأت تلك الجلبة ولفها الصمت والبياض، شعرت بشيء من الدفء والخلاص، أحسّت أن أجيالاً من الصور والذكريات قد مرّت وكأنها في صراع رهيب لكنها استطاعت أخيراً أن تتمسّك بخيط رفيع من النور أعادها للحياة.

بعد أشهر طويلة من الظلمة والرطوبة، رأت شعاع الشمس عابراً تلك النافذة، عانقته وتنبهت أن هناك وخز مؤلم في يدها، استوت في جلستها قليلاً وتفحصت المكان. أدركت أنها في مشفى، وجسدها متصّل بالكثير من الأجهزة الطبية، مما أعادها للاستلقاء قسراً بينما هي تحاول استعادة ما حدث جاءها ذاك الملاك الأبيض، وبيد حانية لمس جبينها (أو ما ظهر منه)، راقب التخطيط والأرقام على لوحات المراقبة، ابتسم بطمأنينة ظاهرة وقال:

- لقد استقر وضعك، وتجاوزنا مرحلة الخطر.
- ما الذي حدث؟
- كدنا نفقدك، لكنك الان بخير.
- منذ متى وانا هنا؟
- منذ ثلاثة أيام، سيأتون الآن ليأخذوك، أرجو منك أن تهتمي بصحتك، وتتناولي الأدوية التي سأعطيك إياها بانتظام ودقة، سيتحسن وضعك بسرعة، لأن استجابة جسدك للشفاء جيدة جداً. وحين يختفي هذا التورم اطلبي منهم أن يحضروك إلى المشفى لأنه من الضروري أن يعاد تقييم وضعك وإجراء تصوير شعاعي للرأس، رباه ماذا فعلوا بك؟

قال ذلك وهو يغادر، والألم والقهر يعتصرانه.

بعد أن شكرته فرح بالغ الشكر، أسعدها أن جسدها يتجاوب مع العلاج بشكل جيد، تذكرت كم من المرات أصيبت فيها حين كانت في فريق كرة السلة أيام كانت ماتزال طالبة في المدرسة، حيث كانت تتماثل للشفاء بسرعة تدهش مدربتها ورفاقها ومن حولها. كانت ترفض وتقاوم منذ طفولتها ضعف جسدها في حال تعرضت لنكسة صحية أو ما شابه، لأن تعلقها بالحياة كان شديداً، وهي حريصة أن تعيش يومها بكل أبعاده، ملتقطة بذلك أدق التفاصيل لتختزنها بذاكرتها، محولة تلك الصور والمشاهد إلى مفردات تحيل الصمت أهازيجاً تنبض بالحياة.

فرح

مفارقة أن يكون اسمها فرح، وحياتها عبارة عن مآسي وآلام ونكبات وهزائم متلاحقة.

ولدت في يوم شاق جداً بالنسبة لوالدتها التي كانت تعمل في معمل لتعبئة الخضار والفاكهة المحفوظة «كونسروة» وهو عمل إضافي غير عملها الأساسي، وفي مناوبة ليلية لها، أعلنت فرح عن قدومها في إحدى اللحظات الحرجة، إذ كانت والدتها في إحدى السلال الكبيرة وكان عملها يقتضي أن تنزل أسفل السلة الحديدية التي يبلغ عمقها ثلاثة أمتار، لتتناول العلب المعدنية وترتبها وتصعد معها حتى يتم ملؤها، في هذه اللحظة قررت أن تخرج للنور «ربما لتنقذ والدتها من بؤس اللحظة» حدثت جلبة كبيرة في المعمل، كان مسؤول العمال يلعن ويكيل الشتائم على من سمح للنساء بالعمل خارج منازلهن.

أخرجوا الوالدة من السلة الضخمة ونقلوها إلى منزلها، ورافقتها بعض زميلاتها. منزل متواضع جداً، يكاد يكون خالياً إلا

من بساط قديم وبعض المساند، وفي غرفة النوم كان يقبع سرير بدائي، لا تتذكر من أين حظيت به، وصندوق خشبي للملابس، كانت قد تحضرت لهذا اليوم وحضرت بيديها الرائعتين القماط واللفّة وطرزت عليهم بألوان زاهية يغلب عليها اللون الأزرق، «إذ كانت تأمل أن يأت للحياة شقيق لابنها البكر».

شقيق وشقيقة فرح كانا ينتظران الحدث الجلل في الغرفة الأخرى، ويبكيان بألم صرخات الوالدة.

كانت الزميلات تنتظرن وصول القابلة بقلق.

الولادة هذا الباب الذي فتح للمجهول ليعبث كما يشاء بمصائرنا ويضعنا على طريق ليس من اختيارنا، لنتعثر وننهض، نتعثر وننهض إلى أن نقع في حفرة لا عودة منها.

كان يدور حديث جانبي بين الزميلات، يلمن فيه الوالدة على انفصالها عن زوجها والذي هو والد فرح، وها هي بسبب كبريائها وموقفها منه تدفع ضريبة غالية جدا، العيش في ظل فقر مدقع، تتكبد ألوان العذاب لتعيل أطفالها، بينما هو يرفل بالنعيم مع زوجته الجديدة.

رفضها لتقديم أي شكل من أشكال المساعدة وحرمانه من الحضور إلى منزلها لرؤية الأطفال كان مأخذاً عليها.

وصلت القابلة، وبحركات متمكنة وخبيرة، وبعد تعقيم اليدين والأدوات، قامت بمباشرة عملية الولادة والتي استغرقت

قرابة ساعتين من الألم. صرخة شقت سكون الوقت، عصفت بالمكان، فقتلت الصمت، حاملة معها أعياداً للحياة، تشف من خلف ستارة الآلام فرحاً يراقص عتمة الأيام، ويبعد بأصابعه الغضّة شبح الحزن.

كانت بوداعتها وملامحها الطفولية النقية الرائعة وعيناها اللتان تسيطران على جزء كبير من وجهها البريء، أصابعها المكتنزة صحة تداعب بها وجع والدتها، ترسم ابتسامة مضيئة في سماء حياتها الكئيبة.

خلال السنوات القادمة، حتى بعد أن كبرت فرح وتخطت مراحل الطفولة والمراهقة، كانت تُحضر لوالدتها الحب والثقة والابتسامة النادرة، وأهم أمر الفخر الذي كانت تستمد منه فرح القوة في خطوات مسيرتها.

تكابر على الفقر والحرمان هي وأشقاؤها، وتفعل المستحيل كي لا تضع والدتها في موقف محرج لتحقيق أمر غالباً ما يكون ضرورياً.

كانت فرح في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية، وشقيقها الذي يكبرها بسنتين في السنة السادسة، حينها لم تستطع الوالدة شراء (مريول) المدرسة لفرح، وطلبت منها أن تلبس مريول السنة السابقة، لم تعترض فرح، لكنها أيضاً لم تخبرها أنه بات بالياً وصغيراً عليها لأنها لبسته لسنتين متلاحقتين،

واتفقت مع شقيقها أيمن سراً أن يجعلا دوامهما المدرسي متعاكساً، ذلك لتستطيع أن تأخذ مريوله حين انتهاء دوامه.

ذات يوم قام مدير المدرسة الابتدائية «سعد بن أبي وقاص» بطلب فرح إلى غرفة الإدارة وسلمّها مظروفاً لتسليمه لولي الأمر، وهي طريقة تعتمدها إدارة المدرسة لاستدعاء أولياء الأمور لحاجة ما. لم يكن فصل الشتاء قد بدأ لتحس فرح بهذا الصقيع الذي اجتاح جسدها، تسمرت في مكانها من قسوة الصدمة. محاصرة من كل الجهات ولا مفر، لا أسلحة لديها فكل ما تدركه ذاكرتها واستطاعت استرجاعه، هو أن أمراً سيئاً استدعى هذا الطلب.

وقفت أمام والدتها لا تملك سوى انهيارات متتالية أمام نظرتها المتسائلة ولم تنطق إلا بجمرات حارقة، انسابت على خدين طفوليين وبأصابع مرتجفة قدمت المظروف للوالدة. لم تشأ الوالدة مضاعفة الموقف على فرح، صمتت وربتت على كتفها وأشارت لها أن تذهب لغرفتها.

حين اكتسحت شمس الصباح بداية يوم جديد كانت فرح قد أرهقت من طول ليلها المتخم بالمخاوف والهواجس، وصلت المدرسة وانتظرت شقيقها كالعادة، وحين جاء أخبرها أن مدير المدرسة طلب من كل التلاميذ البقاء في ساحة المدرسة لأنه سيجمع الدوامين معاً.

تجمع التلاميذ في الساحة وحضر طاقم التدريس كله، ظهرت والدة فرح وأيمن معهم وهي مرتاحة الملامح، دهشا من وجودها ولم يعرفا سبباً. تقدم مدير المدرسة من «ميكرفون» المنصة وطلب من فرح وأيمن التقدم إلى المنصة، وكم كانت المسافة طويلة لفرح ومتعبة وكأنها تجّر وراءها أثقالاً لا يقوى أحد على حملها. وقفا بقرب والدتهما حائران، ينتظران الحدث الذي أتعبهما انتظاره.

بدأ المدير كلمته بالحديث عن القيم والأخلاق العامة والتربية وأساليبها، ثم نظر لوالدة فرح وخاطبها واصفاً إياها بالأم المثالية، التي أنتجت تلاميذ كفرح وأيمن اللذين أذهلا المدرسة بتفوقهما وأخلاقهما الرائعة وأدبهما الخالص، وهذا التعاون الاستثنائي المدهش على ظروف الحياة.

سرد الحادثة فغابت والدة فرح خلف دموعها، طاقم التدريس كان مذهولاً من تصرف مدير المدرسة، بأن جمع التلاميذ والمدرسين لتكريم هذه الحادثة، بعضهم حبس غصّاته، والبعض نظر لأيمن وفرح باعتزاز.

كم كانت الوالدة تشبه مركب يعّب البحر مشرّعاً أشرعته للشمس والحياة بكل فخر، أحست أنها تكاد تلامس السماء، وزادها هذا الموقف إصراراً على صحة موقفها، ذلك أن أطفالها يسيرون على الطريق الصحيح وأن ما زرعته أنتج ثماراً فريدة.

حين تتذكر فرح الآن هذه الحادثة تبتسم بحرقة وتبكي والدتها التي أرضعتها ما حافظت عليه طوال حياتها، كرامتها التي لا تفتأ تحارب من أجلها. والدتها غادرتها لتعانق فضاء رحيب يحرر روحها من القهر والحزن الذي عايشها وتآلف معها.

تعرفت فرح على معانٍ كثيرة للفقد، الفقد الذي لوّن عالمها بلون جديد. الخوف منٍ غياب أي شخص غالي في طيات المجهول دون أمل في عودته أو لقائه. موجع جداً أثر الموت، الغياب النهائي، وقع الغياب كاد يودي بتوازن فرح النفسي راحت تنتظر على أبواب المدينة علّها ترى طيف والدتها، أو أن تتلقى إشارة ما بأنها ما زالت موجودة وما حدث ما هو إلا مزحة أرادت الحياة أن تختبرها بها. وعلى أبواب المدينة كانت ترسل للغروب بطاقات تحمل شوقاً وتمنيات عريضة في اللقاء هناك عند الأفق كانت ترى عالماً يحتضن من غابوا، والدتها وآخرين. الموت دخل عالم فرح واعتدى على طمأنينتها وسلامها الداخلي وعبث في ألوان لوحة حياتها ليسود اللون الرمادي على مشهدها. أهملت حديقتها الصغيرة، والحديث اليومي مع البحر، كانت تستسلم لهذياناتها وشرودها وانتظارها اللحظي لعودة والدتها.

شقيقتها وشقيقها كانا يحاولان انتشالها من بئر الحزن الذي سقطت به، كانا يعانيان أشد المشاعر قسوة وحزناً، لكنهما حاولا الحفاظ على توازنهما النفسي، أما فرح فلم تستطع إلا أن تغرق في حزن كان شديد الوطأة على روحها. اعتبرت الموت

عدوها الأول، لأنه سرق منها أعز الناس، وأذاقها طعماً مختلفاً للقهر الذي فتك بآمالها الملونة.

أيمن راح يجلس في غرفة فرح لوقت طويل دون أن يوجه لها أي حديث، يقرأ في كتاب ما، يراقب البحر، يواظب على المكوث معها في الغرفة ليراقب حالتها، معتبراً أن وضعه النفسي هو وجمال أكثر اتزاناً من فرح. بقي على هذه الحالة لأيام على أمل أن تنتبه لوجوده، لكنها لم تفعل، خوفه الشديد عليها كان يدفعه لملازمتها. لأنه كان يعرف تماماً ما عانته خلال سنين غيابها في نفق الموت وما خلفّه ذلك من ندوب عميقة على روحها وظهر جلياً في اختلاف نظرتها لما حولها، معتبراً أن ما واجهه هو في رحلة الموت في السراديب الأمنية أقل بكثير مما واجهته فرح، على الرغم أنهما كانا في نفس المكان تحت سقف الظلم ذاته، إلا أنهم عاملوا فرح بطريقة مختلفة جداً، لكن أحداً لم يتمكن من معرفة السبب الحقيقي لذلك.

حين عاد أيمن من معسكر النشاط الجامعي إلى منزله. كانت أسرته تنتظره بشوق بالغ، عانق عائلته بحب وجلسوا جميعاً في غرفة المعيشة. كان يوماً صيفياً حاراً من عام 1986 والمنزل المفتوح على البحر يستقبل نسائم رطبة تخفف من حرارة الجو قليلاً. أيمن في السنة الثانية من كلية الطب البشري عاد من معسكره، ويطغى بعض الاختلاف على تفكيره، أخبر عائلته بجمل سريعة عن الظروف التي مرّت عليه وهو يبتسم ويشدد

دائماً على أن شوقه إليهم الشيء الوحيد الذي كان يعذبه، لكن مجموعة أصدقاؤه خففت عنه قليلاً من وطأة عذاباته.

أفراد أسرته كانوا معجبين بقراره في الذهاب إلى المعسكر الجامعي، رغم أنه وحيد، وما من سبب يجبره على ذلك، حتى أن والدته لم تقف بوجه قراره، وأثنت عليه. انتبهت فرح إلى أن أيمن كان يحمل في عينيه بريق مختلف، قوي، متزن وينضوي على تغيير ستنعطف معه حياتهم فيما بعد. عيناه تتنقلان بين والدته وشقيقتيه، لكن حديثه كان موجهاً لأمه دائماً، مدققاً متفحصاً في تفاصيلها مجيباً كل تساؤلاتها التي تدور في ذهنها دون أن تسأله، ليخبرها أن الأوضاع كانت جيدة، الطعام، العناية، مكانه المخصص، على عكس ما كان حاله. فالمعسكرات الجامعية في تلك الأيام كانت قاسية جداً لأنها جزء من الخدمة العسكرية الإلزامية. الإرهاق واضح على ملامحه وقد خسر وزناً لا بأس به، الشمس طبعت على وجهه آثار واضحة ووشت سراً لعائلته عن ساعات التدريب الطويلة المرهقة.

انهمكت العائلة في إعداد مائدة شهية للاحتفال بعودة أيمن بينما ذهب هو للاغتسال، وحين انتهى كانت مائدة الطعام قد امتلأت بألوان الأطعمة التي يحب من المأكولات الساحلية على اختلافها. نفذت رائحة الأطعمة إلى قلب أيمن المشتاق لكل تفصيل من تفاصيل يومهم العائلي. الشمس كانت تغازلهم قبل أن ترحل إلى عوالم جديدة، أما البحر فقد اتكأ على كتف

الشاطئ مراقباً بمودته الزرقاء الأزلية هذه العائلة الصغيرة التي كبر أفرادها على الحب والتعاون وكأنهم كيان واحد. البحر الرفيق الدائم لهم، يفتح لهم ذراعيه آفاقاً واسعة ليحتضن همومهم ومسراتهم وأحزانهم، مستمعاً لشكواهم وبوحهم الداخلي، ويحرص على سماعهم بصمت، يحتفظ بأسرار كل فرد منهم مقدماً النصح بالصبر الدائم ومقابلة الصدمات بابتسامة هادئة. يشاركهم حياتهم بكل تفاصيلها. كل يوم كان يربت بلطف على قلب الوالدة المنكسر ويدفعها لتسير بقوة وعزيمة في مشوار حياتها، كما كان يخبرها عن إعجابه الشديد بمواقفها، ومقدار الحب الذي تمنحه لأطفالها.

لقد احتفل معها حين استطاعت أن تمتلك منزلها ويصبح ملكاً ومستقراً لهم بعد رحلات العناء والتنقل من منزل إلى آخر، كما أنها تمكنت من تجديد الأثاث وتحسين وضع المنزل من القرض الذي حصلت عليه من عملها الثابت في إحدى مؤسسات الدولة. لقد رافقها في كل يوم من أيام امتحان الشهادة الثانوية، كان يجلس برفقتها حين تلجأ إلى حديقتها الصغيرة أمام المنزل وتصلي لحين عودة ابنتها وبكرها «جمال».

حين نجحت جمال وقد أطلق عليها والدها هذا الاسم لشدة إعجابه بزعيم الأمة العربية آنذاك «جمال عبد الناصر»، حققت جمال مجموعاً عالياً في الشهادة الثانوية، اعتبرت والدتها أن امتحاناً عصيباً قد وضعتها به الحياة واجتازته بنجاح. شكرت

السماء والآلهة على هذه المنحة العظيمة فهذا جل ما انتظرته، تفوق ونجاح أولادها. رقص البحر مع الوالدة حتى الرمق الأخير من الليل، مسح دموعها وداعب ابتسامتها المرتعشة وهدهد لها وبارك لها انتصارها. مجموع جمال كان يؤهلها أن تدخل أي فرع جامعي لكنها اختارت فرع الصيدلة، ورفضت أن تدخل كلية الطب لأنه فرع مرهق لوالدتها مادياً، كما أنها كانت ميالة للصيدلة وعالم الأدوية، فمنذ طفولتها كانت تهتم بمداواة جروح أخويها، وتتابع بدقة وتقرأ نشرات علب الأدوية وحين كبرت قليلاً اتجهت تماماً إلى هذا العالم وامتلأت مكتبتها بكتيبات ومراجع عن عالم الأدوية الطبية والأعشاب وقد أصبحت مرجع مهم في المنزل ولعلاقات الأسرة القريبة.

اعتمدت أسرتها عليها في موضوع الاستشارة الدوائية بعد تجارب كثيرة أثبتت فيها خبرة عالية لأنها تقدم كل خبرتها ومعلوماتها وتنصح بنوع الدواء المناسب للحالات الخاصة والطارئة. لقد امتلكت خبرة غريبة، واظبت وعملت جاهدة على صقلها بقراءة المراجع الحديثة بشكل متواصل ومتابعة كل ما يخص هذا العالم. كانت فرح تعتبر أن هذا العالم الذي غرقت به شقيقتها عالم جاف ومعقد ولكنه مهم جداً، كما أنه أضفى على شخصيتها مسحة أمومة حانية وقريبة من الآخر. لذلك كان أيمن وفرح يتعاملان معها بمثابة الأم الثانية ويطلقون عليها فيما بينهما، الوالدة الصغيرة.

بعد أن انتهت العائلة من تناول الطعام تحلقّ الأولاد حول والدتهم في الحديقة لتناول القهوة التي تشتهر بها برائحتها الزكية ومذاقها الاستثنائي وطعمها الحاذق ليشكلوا ذاك الطقس الرائع الذي لا يتكرر. بدأ أيمن الحديث بتساؤلات تحمل منطق اعتبرته والدته غريباً عن سياق أحاديثهم المعتادة، لكنها لم تكن تعرف ما كان يطرأ من تطورات على شخصية أولادها منذ فترة. وما يدور بينهم من أحاديث ونقاشات أرادوها أن تكون بعيدة عن حدود معرفتها.

حتى قراءاتهم أخذت طابع أكثر جدية وراحت تبتعد عن الهواية منذ زمن بعيد واتجهت باتجاه المعرفة البحتة، مكتبتهم قد طغى عليها وجود الكتب الحمراء، ولون ثقافتهم راح يعكس انتقال شخصياتهم من طور المعرفة الفطرية إلى المعرفة المنهجة. حاول أيمن من خلال بعض التساؤلات عن عالم المظلومين والمقهورين أن يوضح لعائلته قراره الذي يراه حلاً للمشكلات الذاتية والموضوعية التي يعاني منها هو والكثير من رفاق مثله.

كان العالم كله في تلك الفترة يضج بالأفكار الثورية، وعلى أساس الانتشار الكبير للفكر الشيوعي، قامت وتشكلت أحزاب في المنطقة تطالب بالحريات والعدالة الاجتماعية وحقوق العمال والفلاحين وحق المرأة والطفولة، وتبني مقولات ماركس ولينين وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين الذين أرادوا عالماً يقوم على الحق والعدالة.

فرح وفي الكثير من حوارياتها مع أخوتها كانت أكثر جرأة بطرحها للحلول وأكثر اندفاعاً، بينما جمال فقد كانت ميالة للصمت، لأنها وكما عبرّت أكثر من مرة بأن أصحاب رؤوس الأموال هم من يمتلكون مفاتيح العالم وأسرار القرار، وإن كل ما حاولته البشرية وستحاوله سيبوء بالفشل ومزيداً من البؤس. لكن أيمن كان يجيب دائماً أن البشرية لطالما ثارت من أجل نيل حقوقها ومطالبها ولم تقف عن المحاولة رغم مواجهتها بالكثير من العنف، الشر والظلم موجودان، الخير والحق موجودان، وهذه الحرب ولدت مع بدء البشرية ولن تتوقف.

حمل الأنبياء عبر الأزمنة هذه الرسالة وقاموا بثورات على واقعهم متسلحين بالحق، دافعوا عن الإنسان المضطهد، واستطاعوا رغم الصعوبات الجسيمة التي واجهتهم والرفض الذي جوبهوا به أن يحققوا عالماً ينصف الإنسان ويعيد مواطن الحق والعدل. كما حمل المفكرين والفلاسفة على مر الأزمنة رسائل تحرر الإنسان، وقد دفع كثيرون حياتهم لأجل ذلك. العالم يعج بالشر تحت مسميات مختلفة. التقت أفكار فرح وأيمن مع الكثيرين من رفاقهم، وقد كانت تفاصيل حياتهما قد أنضجتهما مبكرًا، وكان لاهتماماتهما دوراً كبيراً في تميز شخصيتيهما، لذلك تحلقّ حولهما أصدقاء كثر وكانت دائرة العلاقات تتسع وتكبر.

انتهت فرح من امتحان الشهادة الثانوية بعد عناء مرير في

مقارعة منهاج لطالما اعتبرته متخلفاً ولا يواكب حركة الواقع والمتحولات.

هذا الامتحان سيحدد مصيرها القادم وسينقلها من مرحلة إلى أخرى ومن عالم ضيق إلى عالم أكثر اتساعًا.

فرح رغم انشغالها بمدرستها ودروسها وتحضيرها لامتحانات الشهادة الثانوية، إلا أنها كانت تجد فسحةً وحيزاً من الوقت لقراءة كتاب ما، أو لتكتب قصيدة.

كانت تجوب فضاءات وآمادًا بعيداً عن الواقع، وترحل بين نجمتين في مشوار بناء عالمها وشخصيتها متمسكةً بشعاع يضيء روحها ويصقل أعماقها. متمكنةً من اصطياد أفكار تضفي على ثقافتها تلك الندرة المفاجئة في ذلك الوقت.

إلا أن أي اختلاف نوعي وفكري آنذاك كان يودي بصاحبه إلى أنفاق العتمة والضياع والموت خلف قضبان سلطة الديكتاتور اتساعاً.

في فترة انتظار النتائج كانت فرح تحوم كنحلة تريد أن تنهل من كل الموارد وتبحث عن خلاصة التجارب الإنسانية وتدور تملأ جعبتها بألوان الثقافات والمعارف. تلتقي بالأصدقاء، تحاور، تحلم، ترحل، تثور، ترقص مع البحر، تاركة جسدها يخاطب الزرقة الأبدية ويعانق الآماد البعيدة، تجول أصابعها لترسم على سقف السماء وجه المطلق الغائب، تدق بقدميها

وجه الأرض تموج مع أتونها، تزف أنين قصيدتها للريح، تتوسد أحلامها وتغيب معها تبحث عن ملامح في مدن البحر تمتد البيوت بأطرافها لتصل رطوبة الأمواج علّها تخفف من وطأة حر الصيف، وتنتشر على الشاطئ كل ألوان الحياة. في مهرجان مغاير لكل الفصول، تتنوع النشاطات والاحتفاليات ليهدر الصخب البشري متناسباً مع الأفق المفتوح. في الصيف تحتضن مدن البحر آلام العطشى والمفتونين بأساطير الحوريات وسر الآلهة.

الرطوبة العالية تقض مضجع فرح، لم تستطع النوم وقفت أمام نافذة البحر علّ بعض النسيمات تخفف من حرارة الجو، ومن وهج الحمى التي يعاني منها دماغها المتعب.

أضاءت مصباح المكتب وجلست إلى طاولتها، فتحت كتاب كانت تقرأه ولعلّه هو من أوقعها في بئر الأرق المرهق، كانت تستجدي النعاس أن يعانق عينيها، لكن «فلورينتينو إريثا» هو من أرّق فرح، تقرأ وتدخل عالم الرواية لتعيش مع أبطالها، تتقمص دور «فرمينا» وتذهب معها بعيداً في أحلامها وشغفها. ترتحل مع أبطال القصة وتعيش مخاوفهم وآلامهم وتفاصيل حياتهم وبلدهم، لكنها سرعان ما تعود لواقعها لتسقط عليه ما خبرته من تجارب الآخرين في أماكن بعيدة وغريبة، مدركة أن الشعوب المضطهدة متشابهة في معاناتها وظلمها وتفاصيل عيشها الضنك.

الديكتاتور هو نفسه أينما وجد لا يختلف في صفاته باختلاف الأمكنة والأزمنة، وكأنه صورة مكررة يعاد استنساخها ليمارس طغيانه على شعبه يقمع ويصادر الحريات ويعتقل ويقتل ويمتلك مقدرات البلاد، يتحكم بمصائر الشباب ويحوّل الوطن إلى حظيرة أو مزرعة ليكون الشعب أحد ممتلكاته ومصيره مرتهن بمزاجه. هذا يدفعها للمتابعة وتحقيق هدفها، الفكرة النبيلة التي كبرت معها منذ طفولتها، تحقيق العدالة ومحاربة أشكال الظلم واستضعاف الآخر. هذا ما تربت عليه وأخوتها. وقفت دائماً إلى جانب المظلومين، في مدرستها في حيهّا، حتى الحيوانات التي كانت تصادفهم في حالات اعتداء من الأطفال المشاكسين كانت تشن حرب صغيرة لإنقاذها. أفكارها كانت تتطور بتطور معرفتها لأبعاد مشكلة الظلم والاضطهاد وتاريخه لتتضح رؤيتها وتتسع وتأخذ شكلاً آخر وأساليب أخرى. امتلكت أدوات أكثر جدوى، لكنها لم تتخلى عن تصرفاتها العفوية، وظلت حين تصادف في طريقها أي مشهد اعتداء أو ظلم أو إهانة أي كان، تهرع للدفاع عنه ونصرته. وكم من الحيوانات كالقطط قد خلصتها من فتك الأولاد المشاغبين الذين يتلذذون بتعذيب الكائنات البريئة، تحضرهم لمنزلها رغم رفض والدتها الدائم المترافق مع التهديد برميهم خارجًا، لكن فرح كانت ترى والدتها خلسة كيف تحنو عليهم وتعتني بهم وبطعامهم.

أيمن وفرح كان لهم مجموعة من الأصدقاء القريبين جداً،

وقد نمت وبدأت صداقتهم منذ الطفولة وستبقى لفترة متقدمة من حياتهما. في إحدى أمسيات الربيع الدافئة دعيت فرح مع شقيقها أيمن إلى جلسة مع بعض الأصدقاء في منزل سمير الذي كان مقرّب جداً من أيمن وفرح، وتربطهم علاقة وثيقة وكان بمثابة فرد من العائلة حتى أن غيابه لأكثر من يومين كان يثير قلق «أم أيمن».

منزل عائلة سمير يقع على بعد ثلاثة شوارع من منزل أيمن وفرح، ويتميز بالطابع الأرستقراطي، كل ما فيه يوحي بعراقة العائلة المعروفة بإرثها وتاريخها. والد سمير ابن أحد أهم ملاكي المنطقة الذي كان يتمتع بسطوة على مساحة واسعة من الأراضي الزراعية وكانت شهرته نابعة من علاقته الوطيدة مع الفرنسيين أيام احتلالهم لسوريا، كان دائم السفر إلى بلاد لم يسمع بها أولاد منطقته ما أكسبه ثقافة فريدة، وفي كل رحلة كان يحضر معه شيئاً نادراً. احضر معه في إحدى رحلاته إلى الهند فهد أسود أو ما يطلقون عليه اسم «السبع» ما زاد من رهبته في المنطقة. كان يلقب «بالكنج» ومازال لقبهم هذا متداولاً في المنطقة حتى الآن.

فريد والد سمير، كان يحب مرافقة والده في أسفاره، زار معه الكثير من البلدان الغريبة وعرف عن الحضارات ما لم يعرفه في كتب التاريخ، تعلم لغات كثيرة وأراد أن يتابع تحصيله العلمي، فريد الكنج درس الهندسة المدنية في باريس وعاد إلى

وطنه بعد أن رفض عروضاً كثيرة قدمت له ليبق في فرنسا ويعمل فيها. صدم وفجع بالمكان الذي عينته الدولة به إذ لا يناسب اختصاصه أبداً، هو الذي دفن حقده في دواخله ولم يعلن عنه حين تمت مصادرة أراضي والده في عمليات التأميم تحت لواء الاشتراكية جاء ازدراء الدولة لاختصاصه وشهادته وتحصيله ومعاملته بهذا الشكل الرديء أن يعلن رفضه لشكل الدولة والحكم ويغادر البلاد عائداً إلى فرنسا. غادر مع زوجته أرض الوطن وعمل في فرنسا واستقر فيها، وحين بلغ ابنه البكر سمير عامه السادس عادت العائلة إلى سوريا لأن سمير عليه أن يدرس بلغته الأم وبين أبناء وطنه في حضن العائلة. رفض فريد الكنج عروض الدولة عليه وفتح مشروعه الهندسي الخاص به وأسس لأسرته مستقراً معتمداً على نفسه. والدة سمير دعمت مواقف زوجها ووقفت لجانبه، السيدة فريال من عائلة عريقة لها تاريخ وسجل مشرف في تاريخ العائلات الموجودة في المنطقة، سيدة فاضلة تهتم بالأعمال الخيرية وتسافر باستمرار لحضور مؤتمرات ترعاها جمعيات نسائية لدعم الطفولة والمرأة في دول العالم الثالث ومناطق الفقر.

نمت علاقة وطيدة بين عائلة سمير وعائلة أيمن وفرح، لكن التواصل كان يتم في فترات متباعدة لأن والدة فرح كانت ميّالة للانطواء وتقتصر الزيارات واللقاءات على المناسبات الرسمية. إلا أن فرح كانت تربطها بوالدة سمير علاقة جميلة، فرح تتابع

أخبار السيدة فريال وتطوّر أعمالها وتناقشها بكل جديد، فريال أيضًا أحبت فرح كثيراً، فهي لم تحظى بابنة، أنجبت ثلاث صبية سمير أكبرهم وكانت تحلم أن تمنيها الحياة بفتاة، لكنها لم تفعل. تعاملت مع فرح على أنها ابنتها، كانت تهتم بشؤونها وتحاول أن تعرف أدق تفاصيل حياتها وهمومها وميولها واهتماماتها.

في الصالة الرئيسية التي يغلب عليها الطابع الأوروبي بمقاعدها الوثيرة المترفة والمرتبة بذوق رفيع جداً، اللوحات منتقاة بعين فنية دقيقة، أما الألوان فقد كانت مزيجاً من ألوان الترب والأرض والتوابل لترحل معها إلى شرق آسيا، تشعر في تلك الصالة أنك تعيش مع حضارات من أقصى الكوكب غرباً إلى أقصاه شرقاً. من يزور المنزل لأول مرة لا يستطيع التركيز في حديثه أو الاستماع لأن عينيه تتنقلان مع القطع الفنية، من عراقة الشرق إلى بساطة الغرب، فيمتلئ دهشة. المنزل عموماً يحتضن الثقافات الغربية الممتزجة بالطابع الخاص لشخصية فريال وفريد، كانا يهتمان بالحالة الفنية والثقافية لأي بلد يزورانه ويحضران معهما ما يعبرّ عن تلك الثقافات من قطع فنية ولوحات وكتب.

دخل أيمن ومعه فرح الصالة وكانت مجموعة من الأصدقاء بانتظارهم، بعد التحية على الموجودين بادرت فرح فوراً بالسؤال عن السيدة فريال، أجابها سمير بأنها في غرفة المعيشة

مع والده يتابعان برنامجاً تلفزيونياً، كان بين الموجودين شخص غريب لا تعرفه فرح ويبدو أن أيمن يعرفه قبلا، وعلي هنا! أيضًا سيرينا وهاشم الصديقان المقربان جداً من فرح وأيمن وسمير ويشكلان حلقة يقومون معاً بكل النشاطات والزيارات والمشاريع الخاصة «بالشلة»، كانا موجودان لكنهما يجلسان في ركن بعيد من الصالة يتناقشان بحدة خافتة، قطعا نقاشهما وانضما إلى المجموعة. وقام «السيد حاتم» بتقديم نفسه لفرح كونها الوحيدة التي لا تعرفه، كان واضحاً أن الجو يغلب عليه حالة من التأهب لحدث مرتقب ما، سأل سمير عن أحوالهم واطمأن عن أخبار الجميع، وقدّم الأستاذ حاتم لفرح، بأنه خريج علوم إنسانية «علم اجتماع»، اكتشفت فرح بأن سيرينا وهاشم تربطهما به علاقة قوية، ويحظى باهتمام خاص، هذا ما بدا عليهما.

بعد التعارف والمجاملات قامت فرح إلى غرفة المعيشة لتلق التحية على والدي سمير، سلمت عليهما بمودة وتبادلوا عناقاً حميماً، جلست إليهما قليلاً واطمأنت على أحوالهما وعادت إلى الصالة. كان حاتم قد بدأ حديثاً هاماً وعلى قدر من السرية، واتضح ذلك من تحلقّ الأصدقاء حوله وطريقة إصغائهم. جلست فرح تستمع بأذني خفاش محاولة رصد أدق صوت تستمع وتحتفظ بذاكرتها، العمال، الفلاحين، الطلبة، المقهورين، الجائعين، الباعة، الحالمين، المثقفين، كلهم معنيين بما نعمل عليه الآن، علينا أن نكون صوت المظلومين باسم الإنسان ضد

حكام الاستبداد، ضد الطغاة، ضد الديكتاتور.

توقدت عينا حاتم وأصابعه كانت تعتصر لفافة التبغ التي يدخنها وهو يوجه حديثه لهم، كانوا ينصتون إليه ببالغ الاهتمام مأخوذين بجرأة الطرح، لقد كان صوتهم الداخلي، يعبرّ بمفردات دقيقة توَصِف مشاعرهم وأفكارهم وكأنه يعرف وجعهم، هذا ما كان يتردد بداخل كل منهم. تكلم عن قتل الذات المبدعة في هذا البلد الذي قبضت عليه أصابع متوحشة استنزفت خيراته، صادرت مقوماته، شردّت مفكريه إلى المنافي، اعتقلت زهوة شبابه وزجت بها في أنفاق العتمة والموت، استباحت الوطن بمواطنيه، تباهت بمنجزاتها الدموية وعلقّت صورها على جدران متاحفها الخاصة، مسحت عن وجه الحياة والوجود مناطق كاملة أرادت فقط أن تقول بأنها شريكة معه في الوطن، كان كلامه هذا في إيحاء لمجزرة حماة 1982، كيف تم تدميرها والتعتيم الكامل على ما حدث هناك.

شاركه أيمن في الحديث، وأخبره أن يعّد دراسة عن واقع البلاد ما بعد خروج الاحتلال الفرنسي، وقدم له نصًا ما هو إلا البداية، وإذا كان سيجد حيزًا في أدبياتهم؛

«الديكتاتور الذي بنى مملكته، على دماء أبناء بلده وقضى على أحلامهم وأمانيهم وتطلعاتهم للعيش بكرامة وحرية على أرضهم التي ارتوت من دمهم ودموعهم عبر احتلالات طويلة أنهكت فيها الأرض التي خسرت الكثير من أبنائها في حروب

طالت كل شيء ودامت لعقود. احترق فيها وجه الأرض، وعلا صوت الظلم والموت المستمر الذي حصد معه فرح الأطفال ولون الأعياد، اعتلّ صخر الجبال لتتراجع الغابات إلى ما وراء صرخات الموجوعين والمقهورين. كانت البلاد تخضع لسيطرة الغرباء الذين جاءوا بكل أدواتهم ليستولوا على مقدراتها ويستنفذوا خيراتها، مؤسسين لثقافتهم التي أرادوا لها الانتشار الواسع في المنطقة. إلا أن الرجال كانوا يتحركون بإمكانياتهم البسيطة جد اً، وبعزيمة فاقت كل تصور ليحرروا الأرض والإنسان. لكن الاحتلال الفرنسي كان يواجه هذه التحركات بكل العنف الذي جاء به وحدّثه وطور آلياته ليقضي على شرارة التحرر كان يقصي جيل الشباب ويغيبهم بعيد اً، ليكون سيد اللحظة والمكان دون منغصات من شأنها أن تعرقل سير خطته وسياسته.

استطاعوا طرده من أرضهم رغم الدمار الذي خلفّه وراءه، لتدخل البلاد مرحلة جديدة غلبت عليها صبغة الحرية، بدلالة الانقلابات المتلاحقة والكثيرة التي تعاقبت، والأسماء الكثيرة التي توالت على الحكم. أراد الشعب وحلم بالاستقرار السياسي والاقتصادي بعد استعمار طويل. وصل الديكتاتور البعثي للحكم بانقلاب عسكري، أخير ونهائي. مجّد اسمه واسم حزبه، متكئاً على وعود ملونة تغري أي فرد بابتلاع أحلامه وطموحاته بشكل مؤقت للدفع بعجلة بقائه وتمكينه من الحكم. بذل الشعب دمه

ولقمة عيشه لتحقيق الأهداف التي تأسس عليها حزب البعث القائد والأوحد.

المنطقة كانت حبلى بالأحلام الوطنية والقومية آنذاك وأي حراك قام حينها كان على أساس أهداف مقدسة هي التحرير واسترجاع الأرض المغتصبة «فلسطين» لأنها كانت القضية المركزية، وموّجهة الحركة وقبلة الأفكار التحررية، ووحي الشعراء وإلهام الأدباء. كما كانت سبباً مركزياً يقوم عليه أي نشاط سياسي، وأساس تفكير الفرد المواطن في المنطقة. لذلك ارتضت أغلب شعوب المنطقة وتحديداً في سوريا أن تقبل أي ظرف وشرط معيشي سيء، وأن ترزح تحت ضغط أمني عنيف مقابل أن تخطو الحكومات خطوة ولو كانت صغيرة باتجاه استرجاع فلسطين».

أثنى حاتم على مجهود أيمن وفكره المتميز، واعتبر ذلك بشارة واعدة للحزب آنذاك.

باغت حاتم فرح بسؤاله:

– وأنت أيتها الصبية هل سنحظى بشرف الاطلاع على ما تكتبين؟

ذهلت فرح من وقع السؤال، وارتبكت، لكنها كعادتها تماسكت وانتشلت روحها مما كان يشغلها، وأخبرته:

– لم أكن أعرف أننا قادمون لملتقى فكري ثقافي، وإلا كنت

أتيت بعتادي الكامل، لكن شقيقي أيمن لم يخبرني عن تفاصيل الزيارة. ونظرت إلى أيمن بعتب حاد.

فرح الحالمة، المتمردة، الهادئة، المتوثبة، الأنثى الرقيقة، صوت داخلي يناديها لتعانق أعماق الأرض وأغوارها، ثم تعلو مع صيحات النوارس إلى أبعد زرقة، تجوب بأجنحتها الشفافة شطآن الحلم، تعلقّ على الريح مناديل مطرزة برغبة الغوص والإبحار، في عوالم مفتوحة لأصداء النداءات العميقة، في بحيرة الدهشة تموج مع سحره، تغادر جسدها، ترحل مع إيقاعاته، ترقص، تطير، تفتح بوابات السماء وتلج معابد العشق. جذبها وميض سحره، ونظراته التي اخترقت صدرها، وحين كان يخصها بجملة ما يبدو وكأنه يقودها إلى دروب ما كانت قد وطأتها قبلا، كلماته ظلت تحاصرها وتحيط أفكارها، تعيد ما قاله وهي نائمة، وهي تقرأ، وهي تأكل، باتت ميالة للانطواء والعزلة لتخلو إليه، تسترجع وتردد كل أقواله. أخبرت البحر ما حدث معها فابتسم ابتسامة ثملة وتمدد أمامها منتشياً، داعب شعرها بأصابعه الزرقاء، غنى لها عن الأساطير والترحالات الكثيرة التي قام بها بعض المجانين الجميلين لملاحقة الأحلام القزحية، قدم لها محارة براقة وردية متمنياً لها بدء مرحلة مليئة بالفرح.

تركت فرح أثراً عميقاً في روح حاتم، كان شموخها واعتدادها بذاتها وروحها المتمردة التي تشف من خلف بريق عينيها، تدفع

حاتم للغوص في عوالم العشق المجنون، ليغيب في تفاصيل اللقاء السري الذي جمعهما، يستذكر صوتها ويستعيد عطر كلماتها، ويهيم معها حاملاً أحلامه، محلقّاً ليعانق سماءات افتقدتها أجنحته الحرة. كانا يلتقيان أمام البحر ويتركا لعينيهما مهمة البوح والحديث، يجوبان آفاقاً مفتوحة ليقطفا من أمديتها أنجماً تنير عتمة الأيام، تواعدا على الحب، لا شيء غير الحب.

في أول لقاء لهما، كان حاتم قد أرسل دعوة لفرح لحضور فيلم «براديسو» في مهرجان السينما الإيطالية الذي تقيم فعالياته سينما الكندي، قبلت الدعوة بسرور عظيم وتأهبت للقاء. العرض في الهواء الطلق، جلسا ملتصقين، حكاية العشق كانت تشد على وتر جسديهما، وفي مشهد هطول المطر على العاشق المنتظِر منذ 99 يومًا أمام نافذة محبوبته، هطلت سماء اللاذقية عليهما دفئًا ومواعيد، اعتقدا في البداية أن المطر يأتي من شاشة العرض، ضحكا من الفكرة، وسمحا لحزيران أن يأخذهما إلى دروب العشق السرية، حين توقف حاتم وأحاط بخصر فرح ليبوح بعشقه، توقفت الأرض لوهلة عن الدوران، وتقدم البحر بكل جلاله ليباركهما.

مشهد من ذاكرة البحر

كانوا أربعة رفاق حبلت بهم حارة دافئة، في مدينة صغيرة على البحر السوري، الفقر كان المحفز الأول للحلم، حلم الحرية الذي جمعهم أمام مواقد الأحلام، وكلما أنثوا حلمًا دافئًا، كان عشب البحر الأزرق يكسو جدران واقعهم العاري، ويمنح مغارتهم دفء قادم من مواطن السحر.

ما جمعهم في حلقة قوية، أنهم امتلكوا الإرادة للعمل على تحقيق عالم يحتضن أحلامهم البسيطة، عشقهم للحياة والعوالم المفتوحة. مشاعرهم البكر التي اختبرت القهر، الحاجة، الفقر، البرد، الخوف، قادتهم للإيمان بالأفكار الثورية، وعملوا على اكتساب المعرفة ومن ثم امتلاك أدواتها للوصول لأهدافهم. رفيقهم الخامس والدائم هو البحر، الأزرق الأبدي، الأفق المفتوح، الذي منحهم كهفًا صغيرًا على كتفه، أطلقوا عليه اسم «مغارة الحياة» ليكونوا تحت حمايته دائمًا.

منذ الطفولة المبكرة كانوا يجتمعون قرب البحر في مغارتهم

الخاصة، يلعبون ويتقاسمون الأحلام وبعض الأطعمة المهربة من مطابخ بيوتهم النائمة، الكتب الممنوعة وغالبًا ما يحصلون عليها خلسة، يوقدون نار الأحلام بالأغاني.

فرح، أيمن، سمير، وعلي نضجوا هناك، صقلتهم رياح البحر، وضمد جروحهم ملح شواطئه، استطالت ظلال أجسادهم على جدران المغارة، حتى أن البعض أجزم أنه رأى الظلال مازالت ثابتة وموجودة، رغم غيابهم ورحيل بعضهم. علي أصغر المجموعة سنًا، وأطولهم قامة، والأكثر وسامة أيضًا. لطالما علّقت فرح بمشاكسة أنثوية على وسامته: هل تعتقد أن والدتك لم تلتقِ بفرانكو كاسباري حقًا؟؟

فيغيب علي بضحكة ساحرة، معلّقًا:

ليت كل النساء يرونني كما تريني أنت.

علي رفيق فرح في كل التفاصيل والمشاوير، وجزء كبير من حياتها منذ الطفولة البعيدة إلى أن حلّ موسم الغياب، وصار صائد الظلال والأصوات القادمة من ذاكرة الماضي.

حين التقى بفرح في العالم الافتراضي بعد عشرين غياب، أول كلمة نطق بها مخاطبًا فرح:

- يا مواسم الألفة، يا مليكتي، أنا المسكون بتفاصيلك، تربعتِ على عرش النساء، وكتبتك على كل أوراقي، في روايتي الأولى كان اسمك بدايتي، وأريدك نهايتي، بكل ما فيّ من رجولة، أحلم

أن تكون نهايتي على نافذتك. علي، حين قرأتك بعد كل هذا الغياب، أدركت أنك توأمي، كأنني كنت أقرأ رواية لي، يا ويح الأيام ما فعلت، رأيت روحي منثورة حبرًا على أوراق أيامك، كنت تأتي مع نسائم الذاكرة، تحرك رمال الصحراء المنتشرة على امتداد جسدي، وتمطر نوافذي بالحنين، فيعود الحبق ليعّرش على شبابيك أيامي.

يحدث في أروحنا شروخ لا ينجح الوقت في ردمها، ولن تتمكن تمائم الأمهات والجدات من منع آلامها، ولا أي مسحوق من مساحيق الأعشاب، التي تصنعها الغجريات، الموغلات في عوالم السحر وصنع التعاويذ، كل هذا لن يمنع هذا الوجع الذي يبتر أطراف الروح، ونبقى معلقين في فضاء لا يعترف بالأزمنة، نتأرجح ونترنح بفعل القوة الجاذبة للماضي، وكأنه مغناطيس، كلما حاولنا السير نحو شموس جديدة، يشدّنا من ذيول أثواب الذاكرة، ويسمّرنا على صليبه.

لن أسألك عن أخبارك، لأنك حاضرة دائمًا، مسكون بك، كنت الروح الحارسة لي دائمًا.

في صيف 1986 توالت أحداث في حياة فرح حرفت مسار كل مخطط كانت قد فكرت به، فقد حققت نجاحاً مذهلاً في الشهادة الثانوية العامة، جعل الوالدة تزغرد سروراً وسعادة، شقيقاها جمال وأيمن احتفلا بها احتفالاً يليق بنجاحها، حملها أيمن وطار بها فقد كانت رغم الفارق العمري البسيط بينهما

«عامان فقط» إلا أنها كانت مدللته الصغيرة، كما هي الحال بالنسبة لجمال وللوالدة. استطاع البحر أن يراقصها أيضاً، بكت أمامه بحرقة لا تعرف لماذا، يبدو أنها تبكي مستقبلها المؤلم الذي ستعيشه لاحقاً دون أن تدري. جاء سمير مهللاً أحدث ضجيجاً في الحي وهو يسير مغنياً فرحاً في الشارع، لفت نظر الجيران حين جاء يهزج:

- فروحة نجحت بتفوق مبهر، هيا على كل مدينة جبلة ان ترقص معها.

عانقها حين دخل المنزل فهي شقيقته، هكذا كان يقول دائماً.

- فروحة سأرقص لك حتى الفجر وسأشرب نخبك أنا وأيمن وجمال وعلي، سيرينا -هاشم، حتى «الماما أم أيمن» عليها أن تشرب نخبك أيضاً، كاس فروح المدهشة.

لم تستطع أم أيمن إخفاء صوت إجهاشاتها، تمنت من أعماقها لو كان زوجها حاضراً على هذا النصر، نصرها هي على الحياة. قام أيمن وسمير وأحضرا الكؤوس، فتح سمير زجاجة شمبانيا بطريقة احتفالية كان قد أحضرها معه، فهو معتاد على هذه الطقوس المهرجانية الصاخبة، بحكم أسفاره مع والده. قرعوا الكؤوس وشربوا أنخاب الفرح والنصر، رقصوا، كان علي مرتبكًا لا يعرف ماذا يفعل. هل يبكي؟ أو يفرح؟ لا يعرف. مذ تعلم الأبجدية راح يصوغ مفرداتها بإيقاع

موسيقي، حتى حين يتكلم مع أي كان، يأتي كل مساء أمام نافذة فرح ويلقي أمامها كل أوجاعه وسعادته وهمومه. يبكي شعرًا، وقصائد تبوح بخبايا روحه الجامحة نحو الضوء، كان يعشقها رغم كل الفوارق والعوائق والصمت العميق بينهما، لم يردع قلبه أبدًا عن حبها، وكم من ليالي مريعة قضاها حين علم بقصة عشقها مع حاتم.

من أين ظهر له هذا الحاتم؟ وهل ستحضره معها إلى مغارتنا؟ هل ستجرؤ وتقبله أمام قلبي؟ كيف تمكنت أن تسمح لأحد أن يلمس بشرتها المقدسة؟ هل نامت ضفيرتها على كتفه؟ غرق دمه بالأسئلة الموجعة، كما غرق رأسه بين كتفيه، ولم يكن أحدًا يعرف كنه مشاعره إلا أم أيمن، التي جاءت إليه وهي تحمل كأس الفرح العارم، رفعت رأسه، مسحت دموع قلبه، ووضعت رأسه على صدرها، وقالت له:

- استرح هنا يا ضنى.. هذه كلمتها الشهيرة لكل رفاق أولادها.

كان يقبع في زاوية معتمة ما منع أي من الموجودين الانتباه إليهما.

وضع رأسه المنهك على صدر أم أيمن وغاب في رائحة حبقها، من يعشق فرح لابد أن يعشق أم أيمن أيضًا، لم يعرف أحد من الأصدقاء والمقربين سر العلاقة والرابط بينهما.

حين انتظمت إجهاشة علي وشعرت أم أيمن أنه ارتاح قليلًا، طلبت منه أن يذهب للانضمام لاحتفال فرح ويترك كل الأمور العصية على الحل للوقت والبحر، قبلت جبينه وهي تبتسم بكل محبة وتركته يذهب. جلس مقابل فرح، يراقب كيف تتمايل مع الإيقاع، وعيونها تتنقل باستمرار بين الباب والحضور.

انضم إليهم باقي الأصدقاء، في وقت متأخر من الليل، رقصوا وشربوا وغنوا، إلى أن سلموا مفاتيح الليل لأولى بشائر الفجر، وغادر كل إلى وجهته، إلا علي فقد ذهب يتسكع قرب مغارتهم، محاولًا إسكات صراخ قلبه قليلًا.

عانقت فرح والدتها التي ذهبت للنوم، بينما هي ذهبت باتجاه البحر المقيم دائمًا أمام منزلها، لا يغادر مكانه أبدا. كان القمر يترك على وجه الماء قبلاً فضية متلألئة ويوشوش النوارس حنينه الدائم للأمواج، جاء سمير ووقف بجانبها وسألها عن مخططاتها وعن الفرع الذي ستدخله، أخبرته أنها منذ سنين قد حسمت أمورها في خيار الهندسة المدنية، فهي تعشق هذا الفرع وتريد أن تحقق تميزاً فيه، حاول سمير أن يثنيها عن مخططها، لكنها بدت وكأنها حسمت أمرها بشكل نهائي. لاحظ أن ملامح حزن تشوب نظرتها رغم حالة الفرح التي تعم الأجواء، لم يسألها عن السبب لأنه يعرف أن عدم تفاعل «الأستاذ حاتم» مع نجاحها.. بعد أن توثقت علاقتهما بشكل كبير ونمت بينهما مشاعر رقيقة وكان الجميع يعوّل على

علاقتهما ويتفاءل بها.. لكنه لم يحضر ولم يتصل ليبارك تفوقها ونجاحها. كما أن سمير وأيمن استاءا من تصرفه وفي حديث جانبي مقتضب علقاً على عدم ظهوره وتواجده بينهم، لكنهما بررا ذلك معلقين أنه ربما لم يعرف بعد، أو أن ظرفاً طارئاً منعه من ذلك.

حين التقت فرح بحاتم أول مرة وكان ذلك في منزل سمير وكان يعمل آنذاك على نشر فكر حزبه واستقطاب الشباب المميزين والقادرين على تبني فكر الحزب الذي انخرط في صفوفه منذ عدة أعوام، آمن بفكر الحزب وأهدافه وطروحاته التي كانت تنادي بالحريات والعدل الإنساني، الحزب الذي كان يقف إلى جانب المظلومين والفقراء والعمال، ولد من بؤس هذه الطبقات، والتي هي الطبقات الأكبر في المجتمع. استطاع حاتم بلغته القوية والمتمكنة، وبإيمانه القوي والذي يبدو واضحاً في خطابه، وبحنكته على تحليل الصورة العامة والواقع وتقديم الحلول بطريقة غير مباشرة للمتلقي، أن يستقطب ويحشد جمهور واسع من الطلبة، يتمتع حاتم بشخصية ذات جاذبية خاصة وكاريزما تمكنه من التقدم بين الجماهير، يعمل بروح ثائرة ضمن مجموعات العمل السري مواجهاً الخوف والرعب وكل الخطر المحيط بعمله وخطواته.

آمنت فرح بأفكار الحزب لكن إيمانها كان أقوى بشخصية حاتم. لاحظت عدة مفاصل ضعف في سلوك من يحملون

فكر الحزب، لكن إيمانها بحاتم كان يخفف من وطأة الخطأ والسلبي، وبسببه كانت تواري عينها الناقدة، وتحاول أن تجد مبررات ومخارج للمشهد وتقول: هذا ما يسببه العمل السري وظروفه، وتحت هذا الظرف تقع الكثير من الأخطاء ويرتكب الرفاق ارتجالات تسيء لفكر الحزب لم تكن لتقع لو كان العمل علنياً.

أيمن وسمير عملا بصمت وسرية مطلقة، ووهبا حيزاً زمنياً كبيراً لخدمة الحزب، كانا ينشطا ليلاً دون أن يخبرا فرح بنشاطهما لكنها كانت تتوقع ما يفعلان، وتخاف عليهما لدرجة الاضطراب ولا تهدأ حتى يعودا، لكنها لا تجعلهما يلاحظان أنها انتبهت لبريق عينيهما وكأنهما عادا من معركة حققا فيها أمجاداً خيالية.

على شرفة منزلها البحرية، تجلس على الأريكة منتظرة وقع أقدام أيمن وسمير، ليهدأ ضجيج القلق ويستكين، وغالبًا ما يشاركها علي كل تفاصيل يومها، دون أن يجعلها تشعر بالاستياء أو القلق، يتلو أمامها قصائده المحمومة عشقًا، يستمعان لموسيقا الغجر، ويخاطبان البحر. وحين يحاول علي الاستفسار ولو بطريقة غير مباشرة عن رفضها الشرس للمشاركة بنشاطاتهم السرية، تنقض فرح عليه بإجابة حادة تقطع عليه كل محاولاته، عليك أن تنتهي من المرحلة الثانوية أولا.

حاتم كان يلتقي بفرح وأيمن وسمير مرتين في الأسبوع، في

حوار مفتوح تطرح خلاله كل الأمور للنقاش وتدور أحاديث عميقة، يخرج كل من الثلاثة ما في جعبتهم من مخاوف وانتقادات ومعارف، كما كان عليهم أن يناقشوا مع حاتم قراءاتهم ونتائجها مما تقرر لهم من كتب وأدبيات توجب عليهم قراءتها.

في صباح اليوم التالي لصدور نتائج الثانوية العامة، كان البحر ينتظر مع الوالدة استيقاظ الأولاد، قطعا أشواطاً طويلة في أحاديث الذاكرة، ذهبا بعيداً في رسم مستقبل مضيء، وكعادته كان يحتضن هموم الوالدة ومخاوفها ويلقي بهم بعيداً، يضعها برفق على كتفه الدافئ المشع حتى تهدأ يغسل جبهتها بملحه الأزرق، ويحملها معه في رحلة الآفاق المعتادة، رائحة قهوة الصباح كانت تعانق غفوات الأولاد وتجذبهم بمغناطيسها للصحو. هذه العائلة الدافئة الصغيرة بتاريخها الطويل مع الحرمان والعذابات، بدأت تحصد نتيجة صبرها، وبدا جليد الأيام الصعبة بالذوبان، وهذا ما جعل الوالدة تتطلع بارتياح للقادم، فقد عملت جاهدة لتسلّح أطفالها ضد الزمن، وتحصيلهم الدراسي هو الوحيد الكفيل بحمايتهم.

بذور النصر أنتشت فرحاً في عينيها وقد شجعها البحر لتتقدم بخطواتها الفرحة والواثقة بالحياة لتمشي طريقها الذي كان شائكاً في البداية، لكنها بصبرها وإصرارها استطاعت تمهيد الطريق الوعر أمام أطفالها وإزالة ما استطاعت من

معوقات ومصاعب. في حديقتها الصغيرة تجلس تداعب زهورها المنتعشة بشمس الصباح، عطر الزهر والترب الرطب وطيف الألوان المبعثر في الأحواض، شجرة الكولونيا المتكئة على جدار الحديقة بغنج، شجيرة الياسمين المشعة ببريق الأبيض الساحر، شجرة الليمون الحانية على زاوية المكان، كلها شكلت لوحة رائعة أمام المنزل، ما من أحد من المارة إلا ويقع تحت إغراء النظر والتمعن في جمالها، وهذا الحيزّ كان مملكة أم أيمن، وضعت أريكتها المزركشة المريحة في صدر الحديقة تحت «العريشة» وأمام الأريكة طاولة خشبية بسيطة وبعض الكراسي، ليكون هذا المكان ملاذ العائلة والأصحاب صيفاً وشتاء.

استيقظ أيمن وهرع إلى والدته، احتضنها وقبلّ جبينها، جلس قربها وألقى سلامه الخاص على البحر، سكبت له والدته فنجان القهوة الذي لا يكتمل صباحه إلا به. لحقت به جمال وفرح وانضمتا للجلسة الصباحية، بعد أن قبلتا الوالدة بدفئهما المعتاد. كانت الوالدة تتحين الفرصة لتوجه سؤالها لفرح، لكن أيمن قطع عليها الطريق وأخبرها أن فرح قررت أن تدخل فرع الهندسة المدنية، بادرت الوالدة فوراً بالاعتراض، منتفضة لأن فرح بإمكانها أن تدخل أي فرع جامعي، ومجموعها يخولها ذلك.

– لماذا تريدين دخول فرع متدنٍ بالنسبة لمجموعك؟ أجابتها فرح بارتباك:

– أمي أحب هذا الفرع كثيرًا

- بادرتها والدتها فوراً: منذ طفولتك وأنت تخبرينني عن حلمك هذا، ولكن ألا ترين أنك تظلمين نفسك وتهدرين تعبك ولا تستغلين مجموعك؟

- أمي مجموعي هذا هدية لك، أردت تحقيق أعلى مجموع ليكتمل فرحك كما فعل أيمن وجمال.

- لكن أخويك دخلا فروعاً مهمة، ردت الوالدة بحنق

- والهندسة المدنية فرع مهم ماما، لماذا تستخفين به، جمال كانت تستطيع أن تدخل أي فرع واختارت الصيدلة، أيمن كانت علاماته تؤهله أن يدخل البحوث العلمية وذهب إلى رغبته ودخل فرع الطب البشري -قالت ذلك باستهجان -وأنا كبرت وهذه الرغبة تكبر معي، هل تعتقدين أنني أظلمك إذا درست ما أحب وما أريد؟

خجلت الوالدة من رد فرح، وأنبت نفسها على مصادرة حلم ابنتها، فعلاً في النهاية الدراسة هي تحقيق للذات، والوقوف في وجه الأولاد ومشاريعهم وطموحاتهم قد يعود بالفشل الذريع ولا يحقق إلا المشاكل والنهايات الكارثية. لذلك قررت أم أيمن أن تنهي الموضوع:

- أنا أريد أن تحققي مستقبلاً ناجحاً وأن أراكم جميعاً وقد انتصرتم في الحياة ونجحتم لأطمئن عليكم قبل رحيلي.

خرجت من جمال صيحة رافضة:

- آه أمي لا تتحدثي بهذه الطريقة أرجوك، هرعت إليها وعانقتها

- ردت والدتها: لن أبقى إلى الأبد يا أحبائي، يومًا ما سأرحل وأريد أن تكونوا بخير مستقرين ليرتاح قلبي ويطمئن.

قاومت فرح دموعها وخاطبت والدتها:

- ماما أرجوك لا تعودي على ذكر الرحيل، أرجو أن تبقي بخير وأن يملأ صوتك علينا حياتنا، ماما مجرد الكلام في الموضوع يصيبنا بالجنون.

أيمن يتعامل مع هذه التفاصيل بطريقة علمية، تكلم بطريقة مازحة لإنهاء حالة الحزن والمخاوف المقيتة من الموت التي تظل ترافق الإنسان وتنغص عليه حياته

لماذا تخافون الموت وترتعدون منه، هو نهاية أكيدة لكل شخص والحقيقة الوحيدة في حياتنا والمؤكدة. جمال وفرح باغتتاه بحركة وانقضتا عليه ليتوقف عن التحدث بهذه الطريقة، وتغلبتا عليه.

كان يداعب «حبق» والدته لتفوح رائحته وتملأ الأجواء، ويبتسم بثقة، هكذا يتعامل الأطباء مع الموت. والأم تضحك من أعماقها، وهو يستغيث ويرجوها أن تنقذه من الشريرتين. مسحت أم أيمن دمعة طفرت عنوة، فنهضت ودخلت المنزل لتقوم بأعمالها المنزلية اليومية.

البحر كان يراقب بمتعة فائقة هذا المشهد البديع وينبض قلبه موجاً هادئاً، يراقص الصخور المتشبثة بكتفيه، وهو مستلقٍ على ظهره يغمره الفرح الأزرق.

بدأ العام الدراسي الجديد، جمال في السنة الرابعة من كلية الصيدلة، وأيمن في السنة الثالثة كلية الطب البشري، وفرح في عامها الأول في الجامعة، سنة أولى كلية الهندسة المدنية.

تحضرت كثيراً قبل الدخول إلى عالمها الجديد، بمساعدة أخويها والأصدقاء وعرفت الكثير من التفاصيل عن عالمها الجديد، كانت قد ارتادت الجامعة كثيرًا قبل أن تصبح طالبة جامعية، برفقة أخويها وحضرت تظاهرات ثقافية كثيرة هناك وشاركت في نشاطات هامة ضمن مجموعة العلاقات، التي تخص مجموعتها ونشاطها السياسي، لكن حزنها الكبير وألمها الذي يفوق الاحتمال، حرمها من بهجة ولوج عالمها الجديد، كان الحزن قد سيطر على مشاعرها. اعتقال حاتم، وهذا ما فسر غيابه.

تم اعتقاله من قبل «المخابرات العسكرية» والكل يعرف ماذا يعني وجود شخص بين يدي هذه الجهة المتوحشة في التعامل مع معارضين ونشطاء سياسيين. كان حاتم قد أخبر فرح وأيمن وسمير ومجموعة الرفاق عن تفاصيل هذا الموضوع، وشرح لهم بالتفصيل ما يحدث بناء على تجارب رفاق عبروا هذا النفق وتعرفوا على الموت وانتصروا عليه وعادوا للحياة من جديد، كان على حاتم أن يشرح لهم بدقة، ليكون كل رفيق متحضراً نفسياً

وعلى علم واطلاع بما سيمر به في حال اعتقاله.

طرق التحقيق والتعذيب، وأساليب المخابرات القذرة للإيقاع بالمعتقل في فخ الخديعة، للحصول منه على معلومات عن رفاقه ونشاطاتهم وأماكن إقامتهم، ما هي إلا محاولات خسيسة توهم المعتقل أنهم يعرفون كل شيء وما عليه سوى الاعتراف، ومنهم من يقع في الفخ ويعترف وينهار من هول التعذيب والقهر ومنهم من يصمد، لكنهم في الحالتين يحولون جسد المعتقل إلى بقايا إنسان، يكسرون الأرواح قبل العظام ويمتهنون لعبة الإذلال وتحطيم الكرامات.

أي حقد يجعلهم يبرعون في ابتكار أدوات وأساليب التعذيب هذه؟ وأي قلب يحمله ذاك الجلاد الذي يتفنن ويتلذذ ويتقن دوره في تدمير كياناً بشرياً، لا ذنب اقترفه إلا أنه مختلف وأراد أن يعبرّ عن ذاته بعيداً عن حالة القطيع، لأنه رفض التدجين والانصياع لأوامر الحاكم العسكري، الذي نصّب نفسه إلهاً وسيداً عليهم. كيف يستطيع ذاك الجلاد أن يودي بالمعتقل، «والذي يكون في حالات كثيرة جاره أو أخوه أو قريبه» إلى قيعان الموت الجهنمي؟ ألم يفكر للحظة بأنه ممكن أن يكون في نفس الموقع يوماً ما؟ وكيف يقبل أن يكون أداة انتقام لمزاج الحاكم الطاغية؟

فرح الحالمة، صار عالمها يميل للسواد، وغادرت أفقها الأشرعة القزحية، والتي كانت تسافر معها، إلى أرض الحلم، صارت تهرب كل يوم من الذهاب بخيالها إلى حيث يقبع حاتم،

وتصور ما يحدث معه، لكنها لا تنفك تقع في بئر التخيل المؤلم، وتغيب معه في ذاك النفق، تجلد بنفس السياط التي تنهش لحمه، تحاول أصابعها الفتية أن تحميه، وتسارع روحها إليه، ترافقه لتؤنس وحشته، وتضمد جراحه النازفة، وتنير عتمة زنزانته.

في أول يوم لها في الجامعة تعرفت على بعض الزملاء لكنها لم تستطع الاندماج في عالمهم شعرت بالغربة، لكنها لم تهمل دروسها، وباهتمام شديد، ولم تثنها الانعطافات الرهيبة التي حدثت في حياتها، عن متابعة الطريق الذي ستصل عبره لتحقيق حلمها. تعرفت على أساتذتها وموادها الدراسية، كانت قد اطلعت بشكل سطحي على عالم الهندسة المدنية من والد سمير، الذي كان يخصص لها وقتًا ليزودها بالمعلومات التي قد تختصر عليها الوقت والتعب.

البحر صديقها السري والعلني الذي ينام كل يوم تحت شباكها، وعند الفجر يغادر نافذتها إلى أفقه المفتوح، يرافق الأشرعة المرتحلة نحو أمدية بعيدة.

يمد لها ذراعه لتنام، يحكي لها حكايات أبطال الأساطير القديمة، ويأخذها معه لتزور أعماقه المسحورة، يدعوها للرقص، يحيط خصرها ويغوص بها إلى أغواره المرجانية المتلألئة، ويدعو كل أصدقائه ليشاركوهما احتفالية وجودها، وهي هائمة معه، يقودها سحر الأعماق الأزرق لتبحر معه أكثر وتتماهى مع إيقاعه.

يعيدها إلى سريرها برفق، حين تقرر الشمس أن تفتح الستار على يوم جديد، تستيقظ فرح من حلمها الدافئ لتجد على وسادتها الوردية قلادة من الأصداف المشعة صنعتها لها جنيات البحر الصغيرات، تقبلّ القلادة بسرور عاشقة وتنهض لتعانق أحزانها من جديد.

اعتقل حاتم في صيف 1989 في شهر آب من قِبل المخابرات العسكرية، في ذاك العام كان نظام الديكتاتور يشّن حملة عنيفة على «حزب العمل الشيوعي» المعارض، وكل وجود سياسي معارض آنذاك، يداهم البيوت ويدمرها بحثاً عن أي شيء كتب ضده، يلاحق الشباب وينصب لهم الكمائن لإيقاعهم في قبضته ويأخذهم إلى سراديبه السرية. وتبدأ رحلتهم هناك بين الموت والحياة، تُستخدم ضد أجساد الشبان الفتية أساليب تعذيب شرسة تصل حد القتل.

لكن التعامل مع حاتم كان مختلفاً، لأنه كان كادراً مهماً، ونشيطاً ومتميزًا في أكثر من منطقة، صدى اسمه كان يتردد بين الطلبة، يعمل بجهد وإيمان مطلق على ترسيخ قواعد جماهيرية للحزب بين أوساط الطلبة والشباب. تم اعتقاله في الشارع، حين كان ذاهبًا إلى موعد حزبي مع أحد الرفاق، وكان يعرف أنه مراقب بشدة، فقد تم الاعتراف عليه مرات عدة في أقبية التحقيق، لكنه كان يلجأ إلى أساليب غاية في الدهاء للتملص من المراقبة، هذه المرة لاحقوه في أكثر من شارع وحاصروه، انقضوا

عليه كأنه فريسة تطاردها الكلاب الجائعة المستوحشة، لحظة الانقضاض صار حاتم يصيح، أنا من حزب العمل الشيوعي، لسنا مجرمين، حرية... حرية

ليلفت نظر الناس المارة في الشارع والذين كانوا يراقبون المشهد والخوف بادٍ عليهم.

ابتلعت الغيبوبة صوته بعد ضربة من أخمص « كلاشينكوف» على مؤخرة رأسه، وصعق المارة في الشارع من هول الحادثة ومن منظر الشاب ومقاومته، وراحوا يسارعون الخطى هلعًا ورعبًا.

أفاق حاتم على دلو ماء أعاده من غيبوبته، ليرى نفسه في غرفة فارغة إلا من مكتب حديدي وكرسي مهترئ تقريبًا، وأقدام كثيرة على مستوى نظره. جلبة صاخبة ووقع أقدام سريعة من حوله « شحطوه « من شعره وجرّوه إلى غرفة أخرى، وضعوا على عينيه قطعة من الجلد تدعى « طماشة «، ثم أدخلوه في إطار سيارة مطاطي، جعلوا يديه خلف ظهره مقيدتين بسلاسل معدنية، ورأسه وأقدامه خارج الإطار باتجاه الأعلى، وهذه إحدى وسائل التعذيب الشهيرة لدى أجهزة الأمن السورية، حاول حاتم أن يتعرف على بعض التفاصيل، أن يدرك أين هو، حاول أن يلتقط من خلف الطماشة بعض الوجوه، وتنبهت كل حواسه حين سمع صوت يخاطبه:

- اسمع، نحن نعرف كل شيء عنك، والأفضل أن تعترف

لنختصر عليك طريق طويل.

لم يجب حاتم ضل صامتا، جاء الصوت ثانيا.

- تكلم قبل أن تندم، هذه فرصة لن أمنحك إياها ثانيةً مين الشخص اللي كنت رايح تشوفو؟ ووين المطبعة؟

ظل حاتم صامتاً، تحرك صاحب الصوت باتجاهه وطبقة صوته تعلو:

- يا ابن الكلب احكي، يا حيوان نحنا نعرف كل شي عنك.

ظل حاتم على صمته، وتحرك صاحب الصوت ووجه أوامره لعناصره وهو يصرخ:

- أريده أن يعترف بكل شيء، دعه يعترف عن كل ما حدث معه منذ ولادته، وحتى هذه اللحظة، كل شيء.. كل شيء.. نفث غضبه مع دخان سيجارته وخرج.

- أمرك سيدي، أجابه أحدهم وأغلق الباب خلف سيده.

وبادر فوراً بأداء واجبه يرافقه اثنين من العناصر وفي يد كل منهم «كابل رباعي» هو سوط الجلاد. ابتدأت المجزرة في السابعة مساءاً ولم تنته حتى مطلع الفجر، كانوا يتناوبون على جسده وحاتم بين الغيبوبة والصحو على ضربات «الكابل»، لم ينطق بكلمة لكن صراخه ملأ الفراغ الكوني، ظل دمه شاهداً على الجدران يراقب ويئن..

- مين كنت رايح تشوف يا ابن الحرام ما رح تحكي؟ وين ساكن ومع مين يا حيوان؟

لكن حاتم ظل صامتاً.

- شو مفكر حالك رح تتحمل، والله لنخليك تحكي كيف خلفتك أمك يا ابن...

لكن حاتم أصرّ على الصمت. كانوا يتلذذون بتعذيبه، قدميه تحولتا لقطعتي جمر ملتهبتين، يشعر بألم لا يحتمل ولا يظهر من جسده سوى قدميه مشرعتين في الهواء ورأسه. رأسه أيضاً لم ينج من الضربات، أحس حاتم بخيط ساخن يسيل على وجهه، وصل السائل الدافئ إلى شفتيه، لعقه وأدرك أنه دمه، لم يستطع أن يتفلت ليتحسس موضع جرحه النازف، محشور بهذا الإطار اللعين ويديه مقيدتين للوراء. صرخاته شقّت السماء وصعدت إلى موطن الآلهة. شعر بأنهم يبذلون قوة كبيرة، كأنهم يحاولون أن يهدّوا جبلاً بضرباتهم الممتلئة لؤمًا وحقداً.

- اعترف يا ابن القحبة.. هلكتنا

قال ذلك أحد الجلادين والعرق يهطل منه هطلاً، لهاثه مضطرب، ورائحة أنفاسه الكريهة جعلت حاتم يشعر بالغثيان.

- أبو حازم.. واضح إنو راسو يابس

عرف حاتم اسم أحد الجلادين وشعر أنه قد حقق نصرًا.

رجع الرجل الذي كان يلقي الأوامر والواضح أنه الضابط المسؤول عن تحقيقه، ألقى على حاتم نظرة مدققاً بعمل عناصره ويبدو أنه رضي عن النتائج.

- شو ما حكى؟ ما اعترف؟

- لأ سيدي.

- شووووووو.. لهلق ما اعترف؟

اقترب الضابط من حاتم.. وضع حذاءه على رأس حاتم مكان الجرح النازف وضغط عليه بكل وزنه

- عم تعمل مراجل؟ هلق رح نشوف مراجلك... أبو حسن جيبولوا الكرسي..

كان الضابط يستشيط غيظاً حين نطق هذه الأوامر.

حاتم كان مطلّع على أجواء المعتقلات وأساليب التعذيب «نظرياً» بعضه من أدبيات الحزب والبعض من خلال أحاديث الرفاق عن تجاربهم في المعتقلات. وكان متحضراً نفسياً لكن الكلام لا يشبه الواقع إطلاقاً. أخرجوه من الدولاب، ولم يستطع الوقوف مع أنه كان ينتظر بفرح التحرر من هذا الشيء اللعين، آلام أقدامه منعته من التمتع بذلك، وشعر بألم قاتل في ظهره مكان انغراس القيود، إذ كانت هذه النقطة مرتكزاً لكامل جسمه. تلقى ضربةً على معدته من قبضة من لا يعرف، جعلته يهوي أرضًا، عضّ على شفتيه مقاومًا الصراخ، أحس أن

غيبوبته الجميلة قادمة لتأخذه بعيدًا، لكنهم لم يسمحوا لها جاءت ضربة أخرى على رأسه وكأن مطرقة حديدية هبطت عليه كصاعقة كهربائية ترنح ألماً وتكور على ذاته.

– يا ابن الكلب.. لن أسألك عن شيء ولكني سأتلذذ بتعذيبك وسماع صرخاتك.. فقط لتتعلم كيف تكون الرجولة حين تأتي لتركع أمامي راجياً أن أسامحك..

الضابط كان يتكلم مع حاتم وهو يكاد ينفجر غيظاً من تماسك حاتم وأخذ قرار بداخله بأن يقضي عليه ويسحقه، حملوا حاتم من أكتافه وجعلوه يركع على ركبتيه، شعر بجسم حديدي يقرصه تحت إبطيه ويضغطه للوراء، سأل أحد الجلادين:

– سيدي ربع ولا نص؟ زعق سيده بعهر

– تلات أرباع... يا حيوان.. شو نص وربع بدك تدللو؟

ارتبك الجلاد من جنون سيده، الكرسي الألماني قد يقتل الشخص أو يصيبه بشلل دائم إذا زادت الجرعة عن الحد المعقول، نفذّ الجلاد الأوامر بيدين خبيرتين وضغط «تلات أرباع».. أحس معها حاتم أنه قد تعرّف على الموت بكل أشكاله.. صرخ صرخة شطرت المكان والزمان واستيقظت الآلهة على إثرها وأفاقت الأرواح النائمة على دويّها. ما هذا العالم الذي يسمح أن تتحكم هذه المسوخ به؟ لتضع قوانينها التي تراعي دائماً قتل الإنسان وإبداعه.

استيقظ حاتم في مكان أدرك أنه الزنزانة التي عرف تفاصيلها بدقة من وصف الآخرين لها، الظلمة سيدة المكان، آلامه تنطق قيحاً ودمعًا، دمه النازف من كل مكان على خريطة جسده المتهالك، أراد أن يستجمع قواه لكنه فشل، لم يستطع تحريك أي مفصل في جسمه، بقي متقوقعاً كما كان، أراد أن يفكر بما يحدث خارج آلامه، أن يغادر زنزانته ويهرب بعيداً، لكن أوجاعه خذلته وثبتته في مكانه، لم يستطع الخروج من دوامة الحدث، أنهكته جروحه وهوى مجدداً في هذيانات متلاحقة، يصحو على صراخ أحدهم فيعتقد انه هو من يصرخ في حفلة تعذيب، يغيب مجدداً ليصحو على صوت أحد العناصر يصيح ويعربد ويخبط على الأبواب الحديدية.

استمر تعذيب حاتم لمدة ثلاثة أشهر، في الصباح والمساء يحملونه على بطانية ويجرونه إلى مكاتب التحقيق ليمارسوا عليه ساديتّهم وإرهابهم وإجرامهم، بقي متماسكاً لأيام طويلة تحت رعونة الكابلات و«الشبح» والكرسي والركل والكهرباء إلى أن سقط في حفرة عميقة من الهلوسات المحمومة، يتحدث إلى نفسه ولا يدرك أبعاد ما يقع على جسده من مجزرة، تحوّل ما تبقى من جسده إلى كتلة متورمة تحمل طيفاً من الألوان الزرقاء والحمراء والسوداء، صار الجلاد وعناصر السجن يشفقون على جسده ولكن بصمت دون أن يتجرأ أحدهم على إظهار أي تعاطف.

غيبوبته الجميلة قادمة لتأخذه بعيدًا، لكنهم لم يسمحوا لها جاءت ضربة أخرى على رأسه وكأن مطرقة حديدية هبطت عليه كصاعقة كهربائية ترنح ألماً وتكور على ذاته.

- يا ابن الكلب.. لن أسألك عن شيء ولكني سأتلذذ بتعذيبك وسماع صرخاتك.. فقط لتتعلم كيف تكون الرجولة حين تأتي لتركع أمامي راجياً أن أسامحك..

الضابط كان يتكلم مع حاتم وهو يكاد ينفجر غيظاً من تماسك حاتم وأخذ قرار بداخله بأن يقضي عليه ويسحقه، حملوا حاتم من أكتافه وجعلوه يركع على ركبتيه، شعر بجسم حديدي يقرصه تحت إبطيه ويضغطه للوراء، سأل أحد الجلادين:

- سيدي ربع ولا نص؟ زعق سيده بعهر

- تلات أرباع... يا حيوان.. شو نص وربع بدك تدللو؟

ارتبك الجلاد من جنون سيده، الكرسي الألماني قد يقتل الشخص أو يصيبه بشلل دائم إذا زادت الجرعة عن الحد المعقول، نفذّ الجلاد الأوامر بيدين خبيرتين وضغط «تلات أرباع».. أحس معها حاتم أنه قد تعرّف على الموت بكل أشكاله.. صرخ صرخة شطرت المكان والزمان واستيقظت الآلهة على إثرها وأفاقت الأرواح النائمة على دويّها. ما هذا العالم الذي يسمح أن تتحكم هذه المسوخ به؟ لتضع قوانينها التي تراعي دائماً قتل الإنسان وإبداعه.

استيقظ حاتم في مكان أدرك أنه الزنزانة التي عرف تفاصيلها بدقة من وصف الآخرين لها، الظلمة سيدة المكان، آلامه تنطق قيحاً ودمعًا، دمه النازف من كل مكان على خريطة جسده المتهالك، أراد أن يستجمع قواه لكنه فشل، لم يستطع تحريك أي مفصل في جسمه، بقي متقوقعاً كما كان، أراد أن يفكر بما يحدث خارج آلامه، أن يغادر زنزانته ويهرب بعيداً، لكن أوجاعه خذلته وثبتته في مكانه، لم يستطع الخروج من دوامة الحدث، أنهكته جروحه وهوى مجدداً في هذيانات متلاحقة، يصحو على صراخ أحدهم فيعتقد انه هو من يصرخ في حفلة تعذيب، يغيب مجدداً ليصحو على صوت أحد العناصر يصيح ويعربد ويخبط على الأبواب الحديدية.

استمر تعذيب حاتم لمدة ثلاثة أشهر، في الصباح والمساء يحملونه على بطانية ويجرونه إلى مكاتب التحقيق ليمارسوا عليه ساديتّهم وإرهابهم وإجرامهم، بقي متماسكاً لأيام طويلة تحت رعونة الكابلات و«الشبح» والكرسي والركل والكهرباء إلى أن سقط في حفرة عميقة من الهلوسات المحمومة، يتحدث إلى نفسه ولا يدرك أبعاد ما يقع على جسده من مجزرة، تحوّل ما تبقى من جسده إلى كتلة متورمة تحمل طيفاً من الألوان الزرقاء والحمراء والسوداء، صار الجلاد وعناصر السجن يشفقون على جسده ولكن بصمت دون أن يتجرأ أحدهم على إظهار أي تعاطف.

جيرانه في الزنازين المجاورة لزنزانته حاولوا جاهدين التحدث إليه بطرقهم التي ابتكروها في حال غاب عناصر السجن لكنهم فشلوا، غرق حاتم بصمت تشوبه بعض لحظات من هلوسات ينطق بكلمات غير مفهومة وكأنه يتحدث إلى أشباح.

الضابط شعر أن المسالة صارت شخصية بينه وبين حاتم، وقرر أن يدمره ويرسل به إلى متاهات الجنون والضياع، لأن حاتم كسر جبروته وهيبته ولم يتكلم ولم يفعل ما أراده، لم يعترف لم يجب على أي من الأسئلة رغم الدمار الذي مارسه على جسده الضئيل.

أخبره أحد الجلادين ذات مرة أن وضع حاتم الصحي متدهور جدًا، لا يأكل ولا يشرب، يتبول على نفسه وتصيبه حالات هيستيرية حين يقوم أحد «السجانة» بفتح باب الزنزانة عليه لتقديم الطعام له أو ليخرجه إلى الحمام، ثم إن جروحه متقيحة ورائحته نتنة لا تحتمل، ويحتاج إلى نقل فوري للمشفى.

أجابه الضابط بعجرفة القاتل المستبد والمنتصر دون رحمة أو شفقة وهو يبتسم ابتسامة المنتصر:

- دعه يغرق في دمه وقيحه ورجولته.

حزن الجلاد على حاتم وخاف، خاف من يديه التي ارتكبت الجريمة من أن تحاسبه يوماً ما، لأنه كان يعرف نهاية حاتم.

في زنزانته التي باتت ملاذه كان حاتم متكوراً على جروحه ودمه المتخثر، حين استطاع استحضار فرح لكن الصورة كانت باهتة، حاول أن يتلمس ملامح وجهها بأصابعه الدامية والمتقيحة، كانت الصورة تبتعد وهو يلهث ليلحق بها، تحولت لضوء، نهض لأول مرة منذ ثلاثة أشهر أراد أن يمسك بضوء الطيف، وتماهى معه وذهب بعيداً معانقاً كل ذكرياته من طفولته المبكرة.. حتى لقائه بفرح، رقص مع الضوء وغاب خلف تاريخ البشرية الممتلئ بالجرائم والحروب والاضطهاد وقتل الإنسان وتاريخ الطغاة.. خرج من ذاكرته وتحرر منها ومن أعبائها.

بأصابعه التي خلت من أظافرها، ونمى مكانها كتل دموية متقيحة، كان يمسك بشيء ما، هكذا وجده السجّان حين رآه وقد فارق الحياة أحس السجان أن صوته اختفى وأصابه الخرس، حاول أن يفك أصابعه عن بعضهم لكنه لم يستطع، وركض لإبلاغ المحققين عن الكارثة، أصابتهم الصدمة حين علموا أن حاتم قد مات، أو قُتل. طلب المحقق من السجان أن يخرج حاتم من الزنزانة دون أن يثير الشبهات، كي لا يشعر المعتقلين بأي شيء غريب، حملوه على بطانية وأخرجوه ولكن المعتقلين كانوا قد شعروا بأن مصاباً قد حصل وأدركوا بحواسهم الحادة أن حاتم قد فارقهم، وتأكدوا من تصرف السجانين بتلك الطريقة اللصوصية، لم يكن أحد من المعتقلين يعرف اسم رفيقهم وجارهم، لكنهم أحسوا به وبكوه في كل مرة كان يحضره السجانون من حفلة التعذيب.

اليوم رفيقهم تم قتله، وبطرقهم السرية أدركوا هول الفاجعة، بدأ أحدهم بالطرق على الباب، تبعه الباقون بالطرق على أبواب زنازينهم بقوة، جاء السجان مهرولاً فزعاً وصرخ فيهم.

- ماذا تريدون ولماذا تطرقون هكذا؟

لم يجب أحد وتابعوا بالطرق، خاف السجان وتساءل ماذا حل بهم، وأدرك أنهم علموا بموت رفيقهم، أولاد الحرام كيف عرفوا قال ذلك محدثاً نفسه، وحاول تدارك المصيبة التي حلت عليه؛ حاتم نقل إلى المشفى ومن هناك سيتم نقله إلى سجن مركزي، هو بخير، انضبوا وبلا أي صوت، وإلا سأحضر الكابل. صمتوا جميعاً بعد أن عرفوا اسم رفيقهم وهذا ما أرادوه، كان الهدف من حركتهم تلك أن يعرفوا اسمه وليخبروا ذويه بموته، تراجع كل منهم إلى زاويته وجلسوا مع آلامهم وحزنهم على حاتم، وحين ذهب السجان هرعوا جميعهم ليتحدثوا بطريقتهم كالعادة، من تحت أبواب الزنازين، وأول زنزانة كانت مهمتها مراقبة الطريق وحين يشعرون بقدوم أحدهم يعطيهم إشارة للتوقف عن الكلام، إذاً اسمه حاتم، واتفقوا أن ينتظروا أحد السجانين الذي كان متساهلاً قليلاً معهم ويخبرهم ببعض المعلومات، ليسألوه عن حاتم وعن تهمته ليتمكنوا من إيصال الخبر لذويه. تم التحفظ على قضية حاتم بسرية مطلقة وطوي ملفه، لكنهم قرروا الانتقام منه رغم موته وذلك باعتقال كل

من كان له علاقة به بالتدريج، لأنهم لم يستطيعوا التوصل إلى أي معلومة منه.

غاب حاتم وغابت معه حكاية حب جميلة لم يكتب لها أن ترى النور، واستطاع رفاق حاتم وجيرانه في الزنازين أن يسربوا خبر «استشهاده» تحت التعذيب بعد أن تم نقلهم إلى سجون مركزية، وقد تمكنوا من جمع معلومات كافية عنه من ذاك السجّان المتساهل قليلاً والذي يبدي بعض التعاطف مع المعتقلين، ثلاثة ممن كانوا في الزنازين تم نقلهم والتقوا بأهاليهم في الزيارات، وأول ما فعلوه أن أخبروهم بقصة حاتم بالتفصيل وطلبوا منهم البحث عن ذويه لإخبارهم بما حدث.

كانت فرح غارقة في جامعتها وحزنها معاً، بعد أن تأكدوا هي وأيمن وسمير وعلي من اعتقال حاتم، حملوا رسالته بكل أمانة، كان يجمعهم شرف وعد الرفاق وحب وفداء الوطن والإنسان، ولم يخنثوا بوعدهم، ضاعفوا مهماتهم على حساب دروسهم وحياتهم. وكان نشاطهم الحزبي قد بدأ يشكل قاعدة متينة جداً للحزب في منطقة الساحل السوري مدينتي اللاذقية وطرطوس، وقد تقاسموا العمل على الساحات.

فرح وسيرينا وهاشم كان نشاطهم في مدينة جبلة والجامعة، أيمن وعلي كانت منطقة نشاطهم في طرطوس مع مجموعة ناشطين من نفس المدينة بالإضافة إلى نشاط أيمن في الجامعة الذي أسس له مع مجموعة طلاب الطب أصدقاؤه القدامى،

سمير كان نشاطه في اللاذقية مع رفيقه محمود، والذي هو بدوره كان ينحدر من عائلة عريقة في المنطقة، ما يجعل من تحركاتهم أكثر سهولة وأقل خطرًا، وقد كانت مهامهم من أشد المهام حساسية لما للمدينة من خصوصية وواقع شديد التعقيد فهي مدينة الحاكم وحاشيته لذلك باتت تمركز لوجود الطائفة «العلوية» التي اعتبرت الأقلية الحاكمة ومتكأ الديكتاتور ومرتع لمشاريعه هو وعائلته والمقربين منهم، لذلك كان سمير يحرص على تنفيذ مهامه بحذر بالغ مع أنه يعرف نسيج المنطقة جيداً ومناطق الأمان التي يستطيع من خلالها نشر فكر الحزب واستقطاب الجماهير وقد تمكّن من خلق نواة في المناطق التي لم يكن حاتم قد تواصل معها بعد.

أيمن وفرح كانا ينتظران سمير في مقهى كلية الهندسة بناء على موعد اتفقا عليه سابقاً، وقد تفاجآ حين حضر سمير برفقة شخص غريب، لم تعرف فرح ما سر الاضطراب المفاجئ الذي سيطر عليها حين رأت سمير والغريب قادما باتجاههما، شعرت بسريان قشعريرة موجعة في جسدها، جلس سمير والغريب الذي يرافقه وكانت ملامحهما مقتضبة، وبادرا بالحديث عن حاتم، قال الشاب الغريب:

- أنا أيهم وشقيقي معتقل لدى المخابرات العسكرية منذ ثلاث سنوات، وقد تم نقله منذ فترة قصيرة إلى سجن صيدنايا ليحاكم بمحكمة أمن الدولة، وفي أول جلسة له استطعنا أن نزوره

وتحدثنا إليه وكان جلّ ما يشغل باله ويركز عليه هو إيصال أخبار حاتم لذويه. اشرأبت فرح وانتفضت متحفزة لتسمع أي خبر عن حاتم وأيمن تهيأ ليسمع خبر قد يكون جيداً، تابع أيهم حديثه وهو مطأطئ الرأس:

- للأسف حاتم مات تحت التعذيب وقد..

لم تسمع فرح تتمة الجملة، صرخت بملء أوردتها، وركضت لا تعرف أين تتجه، غابت عن ضجيج الحياة وغرقت في حروف تلك الجملة التي ظلت تتردد لفترة طويلة في ذهنها، حاتم مات تحت التعذيب؟ يا ويحكم، يا ويحكم، ماذا فعلتم؟

أيمن صعقه الخبر ولم يصدق بادئ الأمر، لكن حين استمر الشاب بسرد التفاصيل التي أصرّ شقيقه على إيصالها، كيف قاوم حاتم حجم التعذيب، وكان صمته ورفضه للنطق بأي كلمة قد سدد ضربات موجعة وقاضية للمحققين، ما استثار فيهم الانتقام منه والنيل من صموده، حتى بات الموقف شخصياً بين المحقق وحاتم.

جن جنون أيمن وسمير واعتبرا أن استشهاد حاتم قضيتهم وعليهم الثأر لمقتله، شكرا أيهم شكراً لائقاً بمن قام بمهمة عظيمة واتفقا على لقاءات قادمة، وذهب كل في طريق أيمن وسمير بحثا عن فرح ولم يجداها، فقررا الذهاب إلى حيث من المتوقع أن يجدوها. كانت تصرخ في وجه البحر.. والبحر يتراجع

ويرق أمام فجيعتها ولم يحاول تهدئتها كما اعتاد سابقاً.. تركها تبكي أحزانها وترثي موت حاتم..

انهارت وتهاوت على الصخر، وسقطت مغشيًا عليها أمام المغارة.

جاء أيمن وسمير وعلي، وجدوها قد فقدت الوعي، حملها علي وذهب بها إلى منزلها، وهو يرتجف غضبًا خوفًا عليها، وضعها في سريرها، بينما أيمن وسمير أخبرا جمال بما حدث، هرعت جمال لانتشال فرح من غيبوبتها، واسترجاعها إلى الصحو. حين استفاقت فرح بعيون دامية حزنًا، وجدت الجميع متحلقين حولها، علي قرب رأسها، إذ رفض أن يغادر أو أن يترك يدها. سارعت جمال إليها، تفقدتها طبيًا، اطمأنت على نبضها، ووضعها بشكل عام، وقدمت لها مسكنًا لتهدأ. عادت فرح للغرق في النوم القسري، بينما جلس الجميع في الصالة والصمت سيد المكان.

أم أيمن لم تصدق أن هذه الفجيعة قد أصابت قلب ابنتها الطفل، مازال الوقت مبكرًا جدًا لتختبر ابنتها فرح طعم

هذا الوجع – السم، وهي التي حاولت في كل لحظة أن تحمي أولادها من الخطو على درب الآلام، تحملت وكابدت مرارة وقسوة الواقع بصمت لتمنع اقتراب أي سوء من محيطهم. بعد أن استعادت فرح القليل من عافيتها بمساعدة جمال الخبيرة،

وبحب والدتها وحمايتها الدائمة، ووقوف العائلة كلها والأصدقاء بقربها، تمكنت من العودة إلى الصحو.

أدركت ما حلّ بروحها، وقلبها، لكنها ظلت تحاول متمسكة بكلمات حاتم التي لم تغب عنها، وصارت تحفر عميقًا،

تستنهض كل قواها الكامنة لتتمكن من المضي في طريق ثأرها، بعد أن استرجعت مداركها، وعرفت حجم الهول الذي أطاح بعالمها، حسمت أمرها، وقررت أن تسلك الدرب الصعبة، ستتحدى الخوف المتجذر في النفوس وستقارع الصمت الجبان، ستتلو آيات الحرية وقصائد الأوطان على مسارح الجرأة.

«يا كل المطرودين من رحمة الأزمنة والآلهة، أنا الأرض تثأر، لتعيد للزيتون غده المصادر، وللأقحوان ربيعه المهاجر للأبواب مفاتيحها، وللقمر نجمته البعيدة، للحرية وقع خطى هادرة، ثائرة، تدك سور الخوف والحصار المزمن فينا البحر ينأى بأشرعته أمام نظرة فرح الجديدة، يغوص إلى أعماقه هلعاً، يبتلع زرقته، ويخبر حراس ملكوته تنحيه عن وظائفه اليومية، تاركاً عرشه الملحي للريح».

حب

لم تكن الشمس قد داهمت نافذة فرح ولا رطوبة البحر. حين فتحت عينيها وفوجئت بطغيان عبق فجر حزيراني مختلط بكرنفال من روائح وألوان باقات ورود متعددة الجنسيات والبعض منها يندر وجوده.

لم تصدق أن قوس قزح كهذا يحيطها، بحثت عن يد إلهية صنعت هذا الجمال.

كانت غرفتها تترنح تحت وقع السحر، استوت في جلستها وراحت تدقق بكل التفاصيل.

آه إنها قصائد بوح بتوقيع عاشق أشرقت عيناه بشموس لا تنام، لكن أين هو؟

بناظريها تبحث عنه نهضت وداعبت باقات الورود التي اختصرت الألوان ومعاني الجمال.. فتحت باب غرفتها المفضي إلى حديقتها الصغيرة فوجدته جالساً إلى الطاولة الصغيرة المتوجة برائحة القهوة المنعشة، كان وجهه ينطق بكل ما قال

أسلافه من قصائد في الشوق..

ذهبت إليه وعانقته ودفء النوم مازال يلبس جسدها البض، قبلّ يديها وقدّم لها كرسيها الهزاز لتجلس بجواره، ابتسم بدفء يشوبه الحزن، وأشار بحركة من رأسه بالإيجاب، رشفت من فنجانها المطرز بنقش صيني، وهي تراقب أصابع يديه، كان أثر الألوان عليها يفشي سره الصغير، صرخت بحبور وهي تسأله

- عدت للرسم؟

ذهبت مسرعة باتجاه ركنه المخصص والمتروك منذ زمن بعيد، حيث تسترح أدوات الرسم، قلبها يطرق بفرح، كانت تمسك بأصابعه، وهي تراقب لوحته المتوسدة نافذة الركن، ركعت أمامها، تلمستها بأصابعها المرتجفة ارتباكًا، وهو يراقب ما تقوله حركات جسدها، ابتسم وهو يحتضن ارتباكها وذهولها أمام لوحته.. كان وجهها في اللوحة قادم من دوامة المأساة التي أصابت البلاد، من المعتقلات والخوف وسراديب الأمن الذي سرق البلاد، من قهر الفقراء وظلمهم، من حلم الأطفال بالأعياد والألوان.. انهمر دمع ثقيل على خدها.

عانقت حبيبها عامر وصوت قلبها يخبره بكل أوجاعها..

لم يتركها تذهب بعيدًا، ظل محتضنًا دمعها وقهرها الذي سكن روحها، وهمس لها في أذنها: لا تنسي أنني قادم مثلك من

هناك، وكسرنا معًا حصار الموت، وانتصرنا، ونحن معًا الآن، لا تخافي، لا تحزني، نحن معًا. حين انتهت فرح من قهوتها سألها عامر بلطف:

- بماذا تفكرين؟

كان هذا السؤال الدائم يفاجئ فرح، وينتشلها من شرودها، وهو التواق دائماً لمعرفة ما يجول بداخلها، إلى أين تسافر بعيداً عنه؟

- أفكر بالفارق!

- أي فارق؟

تلك اللحظة التي لم تفارق ذاكرة فرح. كيف اغتالوا أحد صباحاتها بفوهات معدنية مصوبة باتجاه رأسها، حين فتحت عينيها ووجدت ترسانة الأسلحة تلك تحاصرها، رجال غريبون يقفون بتأهب بانتظار أي حركة يقوم بها جسدها، تسمرت، حاولت استرجاع يومها السابق، أجل هي في منزل أبو جانيت في دمشق، ما يحدث ليس حلماً، أعادت إغماض عينيها لتتمالك ما تبقى من روحها، صمت عميق وكأنها تسبح في فراغ، عرق بارد ينضح من كل جزء في جسمها. فقدت الإحساس بالزمان، وابتلعتها دوامة الخوف، لكن جملة واحدة كانت تتردد في عالمها الداخلي بصوت والدتها:

«يا بنتي قاومي الخوف والموت في سبيل الحياة».

راحت هذه الجملة تتردد أقوى، ما أجبرها على فتح عينيها من جديد، لترى أنها تعيش كابوساً أبطاله رجال يتحركون كالآلات، قاموا بانتزاعها من فراشها، كبلوها بالأصفاد، وقادوها بعيداً عن الشمس التي لطالما لاحقتها واحتمت بدفئها.

عملت فرح مع أيمن وسمير وعلي، وخلال سنتين من العمل والنضال الثوري على كسر القواعد الحزبية التي تعتمد سرية العمل والحرص الشديد في التعامل مع الآخرين، وكرسوا وقتهم للثأر لموت حاتم، رافضين بذلك الأساليب التقليدية التي يتبعها الحزب، والغير قادرة على التغيير، والتي تعمّق الشرخ أكثر، بين شباب التغيير، والحركات الكلاسيكية المناهضة للاستبداد. اعتمدوا أسلوب توزيع المناشير، والظهور علنًا بأسمائهم الحقيقية، والتوجه للآخر برسائل تفضح النظام الحاكم بقبضته الحديدية ومتراسه الأمني الذي كان يصادر الأرواح المتمردة والثائرة على الظلم والقمع الوحشي الذي ترزح البلاد تحت سطوته. هاجموا كل أساليبه الملتوية في الظهور كنظام وطني يدعم حركات التحرر والمقاومة، كشفوا الستار عن ألاعيبه ونفاقه وأشاروا بدلالات واضحة على فساد النظام واستغلاله البشع لمقدرات الوطن.

ذهبوا أبعد من ذلك.

شكّلوا خلية من الرفاق الجامعيين وأطلقوا عليها «خلية الثأر» وقد كانت هذه الخلية مغلقة تماماً، وكان شعارها وأهم

أهدافها، العمل على تغيير نظام الحكم، وكل منشور تعتمده هذه الخلية كان يحمل صورة حاتم كتوقيع، ليكون صفعة للنظام.

الاجتماعات كانت تتم في بيت أحد الرفاق في اللاذقية، وفي غاية السرية يتم الاتفاق على موعد اللقاء. استطاعوا تأمين مطبعة صغيرة في جمع ثمنها، واتفقوا على أن تبقى في مكان الاجتماعات، كي لا تقع مسؤولية اقتنائها على أحد. الخلية كانت تضم أحدى عشر رفيقاً معظمهم زملاء في الجامعة، وعلى مدى عامين تمكنت الخلية من وضع برنامج ناظم لتحركاتها الآنية والمستقبلية، كان التزام الرفاق بآلية العمل شديد الدقة والسرية، حتى مع رفاق آخرين من الحزب كانوا شديدي الحرص على إخفاء نشاطهم في الخلية، لأنهم آمنوا كخلية أن السرية التامة ستمكنهم من الوصول لغاياتهم وتحقيق أهدافهم. ذاع صيت الخلية على نطاق واسع وكانت أجهزة المخابرات تسعى بشكل حثيث لتصل لأفرادها.

في نهاية عام 1992 وبعد جهد بذله فرع الأمن العسكري الذي قام بقتل حاتم تم التأكد من أن فرح ومجموعتها كانوا على علاقة وثيقة وقوية جداً بحاتم، وبناءً عليه تمت مراقبة فرح ومتابعة تحركاتها، ستتذكر فرح تفاصيل ذاكرتها وأحداث تلك الأعوام، وهي ترقد في قيلولة من تعب السنين، بعد أن مزّق اعتقالها الثاني في عام 2010 نسيج روحها ودمّر بنيان عائلتها الصغيرة وشرّد أطفالها وحاصر زوجها لتتلقفه منافي الوطن.

في أحد مستشفيات باريس تخاطب برج ايفل الذي يطل عليها كل يوم من نافذة غرفتها لتخبره عن الأحلام المسروقة والأمان المصادر، عن سنيّ الصبا المهدورة في مقارعة أشباح الديكتاتور التي كانت تغتال هناءة البيوت والأحياء الوادعة، وكيف كانت يد الديكتاتور تبطش مدمرة كل من أراد أن يخرج عن سياق القطيع الذي فرضته سياسته التي أعادت للأذهان تاريخ حكم أباطرة الاستبداد والظلم. لكنها أيضاً أخبرت «ايفل» في إحدى المرات التي أطل عليها هازئة من غروره، كيف يحاول جاهداً بلا جدوى معانقة الشمس، وكيف أن كل الشموس تهبط لساحات سوريا الحبيبة لتحظى بقبلة.

قالت له: عبثاً يا صديقي مهما امتلكت من أدوات وحداثة أن تصل لمستوى عراقة دمشق وأصالة حلب وبطولة حمص، إنها سوريا، شعبها الآن يخط تاريخه بدمه، لقد ثار على كل التابوات وكسر جدار المخاوف المزمنة، انتفض بكل ما أوتي من حلم وحياة ليحقق كرامته وحريته، هاهي شوارع المدن تنطق بألف أسطورة.. ودماء الشهداء تنير دروب القادم، آه يا وطني.

لن تستطيع الذاكرة أن تصف بأي طريقة ومهما كانت بليغة اللغة ما كان يحدث من انتهاك للإنسان في أقبية الموت، وضمن حدود هذي الأرض التي حملت اسم سوريا منذ عميق الأزمان وقدمت أرقى الحضارات الإنسانية، لقد كان انتهاكاً مشيناً للتاريخ والإنسان.

جعل الديكتاتور ومن بعده ابنه الذي ورث جرائم والده وجلس على كرسيه، من سوريا مسرحًا لنوبات جنونه وساحة لهوسه بالسلطة المطلقة، كبلّ الوطن بهستيريا الرغبات المحمومة للأنا الطاغية، وجنح لتحويل سكان البلاد إلى عبيد ومرتزقة يسهرون على خدمته وزبانيته، أما من رفض الامتثال والخضوع لمشيئة التدجين والتركيع، فقد كان يلاقي مصيراً مأساوياً على يد الكائنات الشرهة للقتل والتي تدربت لأزمنة طويلة على ذلك، وكل هذا باسم أمن الوطن.

لقد كان شرهاً ووجبته المفضلة اليومية، هي الدم السوري.

يطلق أشباحه كالسم في فضاء البلاد، يحاصرون الشمس والهواء والحلم ويقتلون تحت مسميات مقدسة كل من كشفهم وكاشفهم.

فرح وأيمن وسمير وغيرهم كثر، أرادوا استحضار شعاع الشمس لينتعش الربيع المعتقل الغائب وليرقد حاتم بسلام في عالم المطلق اللانهائي، لكن الديكتاتور سحق بذور الفرد الحر تحت رحى تغوله المخابراتي حتى يكاد يظن أي كان أن الشعب كله قد تحول إلى عنصر أمني في خدمة الأب القائد والديكتاتور الأوحد الذي تفرّد بالأرض ومقدراتها واستحكم بالمصائر.

مزدوجة

حضر الحراس واقتادوها إلى السيارة ليعيدوها إلى (قفص الترويض) كانت تراقب المدينة من نافذة السيارة الباعة المتجولين السيارات المارّة، البيوت الهانئة، الحياة مستمرة، غمغمت بحسرة. إلا أن الزمن كان قد توقف بنظرها لحظة اعتقالها.

حين وصلوا بوابة السجن، وضعوا لها العصبة الجلدية على عينيها حتى لا تعرف أين هي، لكنهم لم يعيدوها إلى زنزانتها، بل أخذوها إلى مهجع النساء. استقبلتها أم جوزيف بلسانها السليط الذي كانت تنال به من الحراس كالعادة، لكن بعد أن أطلت فرح عصي عليها الكلام وأصابتها الدهشة والجمود. كانت فرح وهي في زنزانتها تسمع صوت أم جوزيف، معربدة صارخة في وجه من أبعدوها عن وطنها، مستغلة أي سبب لتنهال عليهم باللعنات والشتائم. كان البعض يعتقد ممن يسمعها وحتى فرح أنها واحدة من أولئك الحراس لكن سرعان مايتضح

بأنها سجينة قد طالت إقامتها، تسع سنوات أو أكثر، فاعتاد عليها الحراس واعتادت عليهم، كما أن خبرتها في أمور السجن قد فاقت خبرة البعض.

بعد أن أغلق الحراس باب «المزدوجة» وراء فرح، حاولت التقاط أنفاسها، اتكأت على الجدار، لأن قدميها لم تستطيعا حملها، قادتها أم جوزيف إلى غرفة داخل هذا المهجع المؤلف من أُربع غرف.

جلستا، فسألتها أم جوزيف الأسئلة المعتادة عن اسمها وبلدها، دراستها، عمرها، سبب وجودها. أجابتها فرح باقتضاب، لكنها بادرتها بسؤال عن سبب دهشتها حين رؤيتها أدركت بعد ذلك أن رأسها الذي كان متمادياً في التورم هو سبب هذه الدهشة المؤلمة! ما أدهش أم جوزيف ثانية عدم إجابة فرح عن سبب وجودها، كان هناك الكثير من التساؤلات التي تدور في رأسها، وتتذكر العديد من اللواتي عبرن هذا النفق، كيف كن يكذبن بشأن وجودهن ويختلقن قصص لاتمت لواقعهن بصلة، ويخترعن أسباب عظيمة لاعتقالهن، لاتلبث أم جوزيف أن تكتشف أكاذيبهن لأن الأسباب الحقيقية غالباً ماتكون مخجلة، لكن هذه الفتاة لايبدو عليها ذلك، ثم هذا القدر الهائل من التعذيب لا يخفي وراءه سبباً مخجلاً، ما سبب وجودها يا ترى؟

- هل لي أن أعرف أولاً سبب وجودك أنت هنا؟

فوجئت أم جوزيف بسؤالها، لكنها ابتسمت وأجابتها بأنها موجودة منذ تسع سنوات رهينة حتى يظهر زوجها.

- أين زوجك الآن؟

- في لبنان.

- ماذا يريدون منه؟

- هو في حزب متطرف كما يقولون، أهدافه تتعارض مع سياسة بلدكم، وأنت؟

- أنا من حزب شيوعي معارض سري لا يسمح بوجوده.

- ماذا؟

بدا الخوف جلياً واضحاً على وجه أم جوزيف، تلعثمت، اضطربت، ولتخفي ارتباكها نهضت بحجة القيام بتحضير فنجاناً من القهوة. تفاجأت فرح من إمكانية وجود القهوة، لكن أم جوزيف بادرتها بالإجابة على نظرتها المتسائلة: لقد اخترعنا طريقة بدائية وسرية لصنع القهوة، سترين لاحقاً الكثير من الأمور التي تدعو للاستغراب، كما أن أصحاب الأحكام العرفية الطويلة يحق لهم شراء بعض الحاجات الضرورية، كالسجائر والزيت والسكر.. إلخ،

سجائر؟ قالت فرح بسخرية، كنت أتساءل من أين يحصل جاري في الزنزانة على السجائر ويرمي بها إلي وهم يقودونه

إلى الحمامات، من «طاقة» المنفردة، حتى تجمع عندي عدد كبير منها لم أعرف ما أفعل به ليس فقط السجائر كان يرمي لي تفاحته أو برتقالته التي هي حصته من الوجبة اليومية وبعض المناديل الورقية وأشياء كنت أستغرب من أين يحصل عليها، إلى أن قررت بعد جولة من جولات التعذيب الكرنفالية، حين أعادوني منها إلى زنزانتي كان أحد السجانة يشعل سجائر لنزلاء الزنازين، فقررت أن أشعل سيجارة لا أعرف وقتها ما السبب الذي دفعني لذلك ربما لأن آلامي كانت تفوق طاقتي على الاحتمال، وحين أشعلت السيجارة وابتلعت دخانها ذهبت في غيبوبة جميلة، ساعدتني أن أتجاوز آلامي وأغط في نوم عميق، استمتعت بهذي التجربة وكررتها مراراً حتى أصبحت عادة، ابتسمت لها أم جوزيف، إذا تعلمت التدخين هنا؟

أجل، صمتت فرح لأن فكها لم يساعدها على نطق الكلمات بشكل جيد وراحت تقرأ ما نقشنه الرفيقات الشيوعيات من حملات الثمانينات على جدران المزدوجة من أشعار وكلمات عن الثورات والحرية وتاريخ اعتقال كل واحدة واسمها... كانت فخورة فرح بتجربة صبايا الحزب.. حتى أنهم لم ينسين أن يتركن تعليمات مهمة جداً للقادمات الجدد عن طريقة التنظيف وجدول الوجبات وتعليمات عن طرائق مهمة لحفظ الفائض من الأطعمة والمخصصات، سرّها ما قرأته من آثار لرفيقاتها تلمست الجدار بحنان..

إلا أنها شعرت أن انهياراً جسدياً رهيباً يحدق بها.. بينما أم جوزيف منشغلة بتحضير قهوتها، قامت فرح متكئة على الجدران تستطلع المكان، سارت في الممر الداخلي لما يدعونها «بالمزدوجة» التفتت إلى يسارها وفوجئت بوجود امرأة عجوز تجاوزت السبعين، مستلقية بلا حراك، بالكاد تتنفس، يكاد يشك بأن الموت قد عرف طريقاً إليها، سارعت فرح بالعودة متعثرة بجروحها باتجاه أم جوزيف التي كانت قد انتهت من تحضير قهوتها وجلست بانتظار فرح التي كانت في حالة صدمة وهي تسأل عن وضع العجوز.

- إنها أم صبحي

لاتستطيع الحراك لأنهم «شبحوها» ولم يحتمل ظهرها ذاك الألم.

- لماذا؟ ما هو السبب الذي يستدعي تعذيب عجوز بمثل وضعها؟

لقد تجاوزت الحدود الشرقية إلى العراق لزيارة زوجها والحقيقة هي لم تتجاوز الحدود بل سافرت بشكل نظامي بعد أن حصلت على موافقة الأمن السياسي.. لكن» الشرا....» شعبة الأمن العسكري لا تعترف بالأمن السياسي وموافقته!

راح سيل من اللعنات يتدفق من أعماقها، ولم يكن بمقدورها فعل شيء سوى مراقبة أم جوزيف وهي تسكب القهوة والغضب

ينهش بها، وكل خلية على امتداد جسدها كانت ترتجف.

ارتسمت على وجه أم جوزيف ابتسامة صفراء، قدمت لفرح فنجان قهوة، فاستنشقت رائحتها المرتبطة بصباحات أمها دائماً، تاهت تستحضر ملامح وتفاصيل أوقاتها المتروكة على شطوط الذاكرة المؤجلة، هامت فراشة لتعانق أتون الشمس المستغرق في غيّ أزليته لتراقص أرجوانه الممتد، منذ الكينونة الأولى وتداعب الشاطئ الموشى بالذهب العتيق..

أفاقت من شرودها على صوت أم جوزيف وهي تقدم لها سيجارة فابتسمت بدورها ساخرة تقارن بين حالتها في الزنزانة والوضع الآن، كانت مشاعرها حمام ساخن يعبق بالبخار، تتقاطع الأصوات والصور، أفقياً، عمودياً، لتصل حد الغيبوبة أحياناً، تنتصب القضبان في وجهها، تلاحقها، تلهث، تقف عند بوابات النهار، لكن إعصار الدم يبتلعها وتهوي لتحيطها جدران حمقاء، أصوات خبيثة، وعيون يملؤها الحقد، وليس من أحد يمكنه سماعها لأنها لا تستطيع البكاء.

- إني أنتظر إجابة. قالت أم جوزيف وابتسامتها مازالت مرتسمة على شفتيها:

- عن أية أسئلة؟

- كيف امتلكت فتاة بمثل سنك الجرأة لتكون في «حزب سري معارض» في بلد كهذا؟ لأني أحب الغابات، والألوان، وضوء

النهار، ورطوبة البحر، لأني أريد أن أتنفس ملئ رئتي دون رقيب يحتسب علي مقدار الهواء المتاح، لأني أحب أمي، وأكره كيف كسر كيانها القهر ولم تجد ملاذاً إلا دموعاً لم تعرف سبيلاً خارج مقلتيها، ولأني أحب وطني، سماءاً شاسعة تتسع لجناحيّ، أفقاً ممتداً لا يرجع صدى زفراتي وصيحاتي، لأن البحر كان أستاذي الأزلي، علمني كيف أنال ما أريد بالصخب المزبد ثورة، والصمت الذي يكسر جبل الجليد.

كانت أم جوزيف تستمع مشدوهة، لأن هناك الكثير من المفردات لم تعرف سبباً لورودها في حديث فرح، لكنها كانت تحس بأن هناك من تفوق عليها في حب الأوطان، وراحت مشاعر أخرى تتضح ليرتبط حبها لوطنها بمعانٍ أخرى لم تفكر فيها سابقاً. أدركت أن الأمر هنا مختلف، فالأوطان ليست بطاقة شخصية تثبت النسب ليكون ما تبقى ما هو إلا حلم صعب المنال، لم تفكر يوماً بأن عليها أن تحارب لتقول ما تريد، أو أن تخاف من اختلافها وخلافها مع الآخرين، أو أن عليها أن تخبئ أحلامها وأمانيها.

استطاعت أم جوزيف أن تضمّد بعض جراح فرح، لكن أظافر أصابع اليدين كانت مشكلة كبيرة لم تعرف أم جوزيف كيف تعالجها فقد تقيحت بطريقة تكسر القلب لمنظرها، جروح جسدها كانت بليغة لكنها ستتعافى وستترك ندوب، رأسها كان ممتلئ بالجروح ومتورم لدرجة أن ملامح وجه فرح غائبة وغير

واضحة، ظهرها مشوه، رجليها لا يخلو مكان فيهما إلا وعرف جرحاً لن يندمل، أما قدميها فهنا الطامة الكبرى، لا أظافر فقد خلعت كلها ولم يبق سوى كتل دموية متقيحة، والجروح عميقة ورائحة نتنة جعلت أم جوزيف تعتقد أنها «غرغرينا»، كانت تبكي وتتساءل كيف تحتمل هذه الفتاة كل هذه المجازر التي يرتكبوها بحق جسدها؟

حضّرت لها الماء الساخن وراحت تمسح برقة فائقة مكان الدم المتيبس لتستطيع أن تضع لها المراهم، ثم طلبت منها وهي خجلى؛ سأقوم على غسل شعرك بهدوء ولكن عليك أن تحتملي سيؤلمك كثيراً، ليست مشكلة أم جوزيف لا أريدك أن ترهقي نفسك، وضعي جيد لست بحاجة لشيء، عموماً حين أتماثل للشفاء قليلاً، سأقوم بالاغتسال، رفضت أم جوزيف وأبت إلا أن تهتم بها، بعد أن انتهت أم جوزيف من غسل الجروح، لفتّ أصابع يدي فرح وقدميها بشاش طبي حتى تحميها من الاحتكاك بأي شيء قد يسبب آلاماً هائلة لفرح. شعرت أم جوزيف برابط غريب يقربها من هذه الصبية وهي تقوم على خدمتها بكل محبة وحنان كانت لديهم طريقة بسيطة ومجدية لتسخين الماء وتحضير القهوة والشاي، باستخدام سخّان مؤلفّ من قطعتين معدنيتين تفصل بينهما قطعة من الخشب موصولة بسلك كهربائي.

استطاعت فرح تنظيف بعض آثار الدماء والجروح المتقرحة.

قدمت لها أم جوزيف بعض الثياب و«بطانية» نظيفة وقادتها إلى ركنها الجديد، أم جوزيف وخلال التسع سنوات التي قضتهم بين هذي الجدران استطاعت أن تحصل على بعض الأدوات التي تجعلها تستمر مرتبطة بخيطٍ واهٍ مع العالم الخارجي، ومن كانت تمر في هذا النفق وتغادره تترك لأم جوزيف كل ما تحمله من ملابس وحاجيات، ومن خلال خبرتها التي اكتسبتها في هذا المكان عرفت أنها لتبق على قيد الحياة وتحافظ على الحد الممكن من العافية عليها أن تحافظ على نظافة زنزانتها من كل ما من شأنه أن ينقل الأوبئة والأمراض كما أنها تعلمت أن تغذي نفسها بالحد الأدنى الذي يقدمونه من وجبات في هذا المعتقل اللعين. النظافة تعم المكان وكذلك السكون مما جعل فرح تغرق في نوم عميق، أفاقت منه على ضجيج كبير، فأدركت أنه وقت العشاء من «قرقعة القصعات» المدوية وجلبة الحراس والسخرة.

فتح باب المهجع، فكانت أم جوزيف له بالمرصاد، وراحت تتحدث مع أحدهم، وتتساءل عمّا ارتكبته فرح من جرائم لتستحق هذا التعذيب. أجابها الشخص الذي كان يسامرها:

- شيوعيون أنجاس، يستحقون الإعدام، الجواسيس أحسن منهم هيك القيادة بتقول.

- حرام عليكم ما تفعلون، «يا عدرا دخيلك»!

- أم جوزيف «خليكي بحالك وسكري على الموضوع» قال

ذلك وأغلق الباب بقوة اهتزت لها الجدران، بعد أن دفع بوجبة العشاء إلى الداخل بقدمه. عشاء مؤلف من البطاطا المسلوقة والعدس الذي أراد أن يكون حساء ولم يفلح بذلك.

استوت فرح بجلستها وحاولت النهوض لكنها لم تستطع، كأن قوة غريبة كانت تشدها نحو الأسفل، أحست أم جوزيف بأن شيئاً غريباً يحدث مع فرح فهرعت إليها، والخوف والغضب يتصارعان في أعماقها. تفقدت حرارتها وراحت تتحسس يديها وقدميها بيد خبيرة. ثم رمقتها بنظرة حانية ورفعتها بهدوء، وعلمتها أن تستند إلى الجدار حين تحاول النهوض، وأن تفعل ذلك بهدوء وبالتدريج، لأن الجروح عميقة وتعيق حركتها، ثم أحضرت لها الماء والدواء.

وكم استغربت فرح هذا الحنوّ لكنها لم تكن تعرف أن وضعها كان يدعو للحزن وكأن أهوال وكوارث الكون قد مرت على جسدها، أخبرتها أم جوزيف أن السجان جاء برفقة الممرض الذي أعطاها الدواء وطلب منها الاحتفاظ به منعاً لأي خطأ في تناوله.

- سأذكرك بمواعيد الدواء حتى تتماثلي للشفاء بأسرع وقت.

- شكراً أم جوزيف.

كانت فرح تشكر الصدف التي منعت والدتها التي حاولت

زيارتها مراراً ومنعت بقسوة من رؤيتها لأنها كانت تحاول دائماً أن تظهر أمامها بروح عالية وابتسامة تدعو للتفاؤل، لتبق والدتها بوضع نفسي جيد، كانت مستعدة لاحتمال وطأة أي ألم إلا حزن والدتها. فرح كانت تشكل ركيزة أساسية في حياة والدتها، كما كانت المساحة المتبقية لتحلقّ أحلامها في مجال مفتوح بدون أسوار.

طلبت أم جوزيف من فرح أن تجلس معها.

نهضت فرح وجلست قربها في الممر، على مقاعد مصنوعة من صناديق خشبية، محاولتين انتقاء ما صلح من حبات البطاطا، وإذ بباب المهجع يفتح ثانية ويظهر أحد الحراس فيلقي على فرح نظرة حاقدة لم تستطع تجاهلها، فبادلته بنظرة ازدراء استفزت عصبيته ليصرخ:

لقد أحضرت لك رفيقتك، لتكملان ما بدأتماه.

ودفع بسيرينا إلى الداخل بعنف، فالتفتت سيرينا إليه كاللبؤة، وقالت له وهي تهدد بإصبعها:

- إياك أن تلمسني ثانية، إياك!

لم تصدق فرح وجود سيرينا، (رغم كل شيء فرحت بوجودها). فنهضت إليها وغابتا في عناق طويل، دموع سيرينا تنهمر، ويداها ترتجفان، وهي تنظر إلى فرح بألم، وتعود لضمها بحذر خوفاً من أن تؤذيها. حاولت فرح أن تهدئ من روعها،

وأشارت لها أن تجلس، سألت فرح:

- أين كنت سيرينا ومنذ متى؟ لم أعلم بوجودك أبداً.

لكن سيرينا المفجوعة بحالة فرح المزرية، تسمرت في مكانها، وكل ما استطاعت فعله هو البكاء!

عادت فرح للحديث:

لقد عرفت أنهم اعتقلوا أيمن وسمير وبعد ثلاثة أشهر تم نقلهم إلى مكان آخر، لكني لم أعرف أين كانوا يضعونهم، رأيت سمير في إحدى المرات في ممر غرف التحقيق كان وجهه للجدار وعيناه معصوبتان، ومن خلال سياق التحقيق علمت بوجود أيمن وبعد فترة طويلة تمكنت من السؤال عن شقيقي وعن سمير وأخبروني أنه تم نقلهم إلى مكان آخر، لكن أنت لم أعلم أبداً بوجودك! كيف حالك؟ هل عذبوك كثيراً؟

- وعلي؟ سألت سيرينا بخوف
- علي بأمان، نجا من هذه التجربة وأرجو أنه الآن في دراسته الجامعية.

بقيت سيرينا متسمرة أمام جسد فرح الذي تحول إلى خلاصة لكل تجارب التعذيب وأدواته، وقفت والرعب يتملكها من هول حجم التعذيب الذي مرّ على جسد صديقتها ورفيقتها، وتساءلت:

لماذا لم تعامل هي بنفس الطريقة؟ صحيح أنها جربت حفلات التعذيب ولكن لفترة شهرين وعلى فترات متقطعة، واختفت الآثار متحولة إلى ندوب.

أم جوزيف تراقب بخشوع وتبكي بصمت؛ أولادها، آلامها، شوقها للحرية، سجنها، وتبكيهما.

قالت فرح:

- إنها صديقتي سيرينا.
- لكنها صغيرة ليحضروها إلى هنا.
- لست صغيرة، لكن أهلي لم يشبعوني بالماء في الصغر لذلك لم أنمو بما فيه الكفاية.

ضحكتا من تهكمها، لكن أم جوزيف أحسّت بالإحراج قليلاً، فتدخلت فرح موضحة:

- في الواقع، إنها أكبر مني سناً.
- أعتذر حبيبتي لم أكن أعرف، وهل هي هنا لذات تهمتك؟
- نعم.

جلست فرح وسيرينا تحدقان الواحدة بالأخرى تتخاطبان بصمت، لأن العتمة ورائحة الدم التي تسيطر على المكان تحاصر الأجواء بثقل الخوف والتأهب وانتظار جلسات الموت البطيء، باحت سيرينا لفرح بكل رحلاتها عبر أنفاق القتل الوحشي

ومحاولات كسر روحها العصية على التطويع، ولم تكن بحاجة لمفردات، كانت تعرف أن فرح عبرت نفس الأنفاق لكنها توقفت هناك للحظة في نفق ما، إلا أنهم لم ينجحوا في قتل روحها التي كانت حاضرة معها في زنزانتها، لنهم استطاعوا إيقاف نبض قلبها بعض الوقت.. سافرتا معاً كالمعتاد وغادرتا (قفص الترويض معاً)، كانتا تتفقان على أن الأوطان ليست امتداداً جغرافياً، إنها ذاكرة ضخمة تحتضنك بدفء حين تهاجم أبوابك رياح مسمومة.

• كيف تم اعتقالك؟ سألتها فرح.

• من الجامعة وقد شحطوني أمام الطلبة بكل حقارة أولاد العهر ولم أكن أعلم أنك وأيمن وسمير قد اعتقلتم، وأنت كيف اعتقلوك؟

- كنت في دمشق أقوم على توصيل رسالة لأحد أهالي المعتقلين وبعض النقود، ثم قررت أن أنام في بيت أبو جانيت هل تذكرينه؟ كان مسافراً وترك لي مفتاح منزله فوق الباب، المشكلة أنه تم نقل أرشيف الحزب لهذا البيت لفترة مؤقتة على أن يجدوا له مكاناً آخر، هناك وجدوني، كنت نائمة واستيقظت على جيش من الشياطين مدججين بالأسلحة المصوبة إلى رأسي.

• ما مشكلتهم مع رأسك؟ سألت سيرينا بمشاكستها المعتادة.

• لكني علمت أنهم اعتقلوا أيمن وسمير من جبلة في أحد الشوارع سررت أنهم لم يكونوا يحملان شيئاً، كما أن أمي لم تر هذا المنظر الذي كان من الممكن أن يودي بحياتها.

• وكيف علمت بأنه لم يكونا يحملان شيئاً؟

• أولاً لأني أعرف طريقتهم في العمل، ثانياً من طريقة التحقيق، صحيح أن التعذيب الذي وقع عليهما كان شديداً وإجرامياً كعادتهم معنا، لكن تحويلهم من الفرع يؤكد ذلك فلقد انتهى تحقيقهم واعتقد أنهم في طريقهم للمحاكمات، المهم أنهم ارتاحوا من أجواء الفرع.

• طيب ونحنا؟ ليش ما حولونا معهن؟

• أنا تم ضبطي مع أرشيف الحزب، ثم كنت في كل جلسة تحقيق أستفزهم لدرجة الجنون وهم لا يملكون إلا أن ينهالوا عليّ بكل شراستهم وحقدهم كما أنهم يعتقدون أني «رئيسة التنظيم» أو شي حدا صاحب قرار، وأنت على ما أعتقد أنهم ربطوا مصيرك بمصيري، وهذا ما آسف عليه لأجلك حبيبتي، لكن ما يثير استغرابي أنهم سألوني عنك بطريقة عابرة، دون تركيز، كل التركيز كان على مكان المطبعة وعن عمل الخلية وعدد أعضاءها وعن حاتم.

هنا صمتت فرح وملح الدمع يحرقها، كادت تختنق من وقع اسم حاتم راح صداه يتردد ليملأ المكان ويدمر جدران الحصار.

• من الجيد أنهم ربطوا مصيري بمصيرك وعلى ما أظن أن أقوالنا واحدة بخصوص أسئلتهم وهذا سيفيدنا كثيراً، سنخرج من هنا أكثر قوة، وسنعمل على تخليد ذكرى حاتم دائماً.

• سيرينا؟ هل تذكرين عجائز الياسمين؟

كانت متعة فرح وسيرينا الفائقة هي حين تسنح لهما الفرص بأن تجدا بعض الوقت لتسيرا في دروب المدينة بسعادة مطلقة دونما هدف، تراقبان البيوت والعابرين والتفاصيل التي لا تلفت نظر أحد، لكن ما كان يستوقفهما دائماً تلك الياسمينة العملاقة التي لا يذكر عمرها أحد، كيف استطاعت أن تعانق السماء وتصنع من جذورها الضخمة الضاربة عمق الأرض خيمة، أو ملاذاً لنساء الحي الجميلات اللواتي توقفن عن متابعة الوقت ولم يعد باستطاعتهن إلا اللجوء إلى تلك الياسمينة، وانتظار ساعة الرحيل، كانت فرح تراقبهن بدقة تلك الأنامل المنمشة التي كانت يوماً ما تعرف الصبا، أقدامهن الصغيرة، ملابسهن، مناديلهن، تلك الحركات التي تقمن بها، كيف تحضر كل واحدة كرسيها الخاص وتجلس منتظرة لتكتمل المجموعة، ويبدأ الإبحار الطويل في نقطة ما في الأفق يتخلله بعض الأحاديث المختصرة.

كانت الياسمينة تمطرهن بدموعها البيضاء العبقة برائحة الأرض وكأنها تحضرهن لفرحهن النهائي، مزينة الرؤوس بنجمات ناصعة كتيجان الكرنفالات الخرافية، وهن منتظرات

قدوم مراكب الانتقال إلى عوالم أخرى مجهولة لا نعرف عنها شيئاً وحين يقررن العودة إلى منازلهن يقمن بكنس الأرض وجمع ما هطل من ياسمين ووضعه في كيس خاص بجانب الرصيف.

كان تعليق سيرينا الدائم على هذا المشهد يوقظ فرح من نشوتها:

- شفتي ليش متعلقة بهالوطن؟ إذا زبالة بلدنا ياسمين!

كانت شخصية سيرينا الساخرة والهزلية تضفي على بؤس الواقع مسحة من المرح المفقود، هي التي كانت في أكثر المواقف جدية تزخر بروح النكتة والتهكم في محاولة منها الابتعاد ما أمكن عن (التراجيديا) كما كانت تقول حين يستاء أحدهم من ردة فعلها على أمر كان يعتبره شديد القسوة والألم.. ذاك المعنى الذي رافق سيرينا منذ نعومة أظفارها ولازمها في خط حياتها، والأسباب كثيرة منها غياب الأب المتكرر والطويل في المعتقلات نتيجة مواقفه المعلنة والصريحة في مساندة الإنسان المقهور والمستلب أمام أي نظام مستبد، ورفضه الدائم للظلم والاضطهاد.

ما جعل والدة سيرينا في نضال مستمر وشرس مع الحياة في سبيل تأمين قوت أطفالها ومساندة زوجها في مواقفه والمواظبة على زيارته في المعتقل، الأمر الذي كان ينهك العائلة مادياً، لكن تلك الدقائق القليلة المسروقة حين تلتقي العيون عابرة الحاجز

الحديدي الفاصل بينهما، لتبوح بكل المشاعر التي تحملهما فوق البؤس والمرار متوحدين في حلم واحد (التحليق في عالم حر). تلك اللحيظات كانت تشحن قدرتهما على مقاومة الصعوبات، لتعود والدة سيرينا بدم جديد، وأمل أقوى، أما والد سيرينا فقد كان يهجع في زاويته يسترجع الملامح الحبيبة، ويعيد تكرار كلمات حديثها لتصبح قصيدته، لأن يحين موعد الزيارة القادمة.

سيرينا التي عاشت أفكار والدها، وقدستها، وبالغت في ذلك، استطاعت بمعرفتها وبصيرتها التي اكتسبتها بالتجربة أن ما وراء الأقنعة، ما يدعو لنفور الآخرين منها وابتعادهم، ما كان يوقعها في الكآبة والحزن.

استطاعت أن تتغلب على معاناتها، فخرجت من قوقعتها بلسان سليط ساخر، تاركة خيطاً رفيعاً بينها وبين الآخر.

لقد كانت تعانق جراحها وتنام بين مخاوفها وأحلامها بغد أفضل فغياب الأب قد ترك فراغاً هائلاً، لا يملؤه أي ظلّ أو فكرة. لكنها تمكنت من رسم شمسٍ على زجاج نافذتها، واحتمت بغابات الجبال، وتآلفت مع السنديان، فبات بمقدورها أن تسير دروباً طويلة لوحدها، محققة ما اعتبره الجميع محالا، فقد تخطتّ معاناتها وصنعت من كرومها ترفاً لا يناسب ولا يليق إلا بمن اعتلى قمماً للمجد.

نال الحزن من أم جوزيف بعد شرح فرح لشخصية سيرينا والقاء الضوء على بعض جوانب مختبئة وراء سخريتها وتهكمها، وأدركت أنها كانت مخطئة، وفي محاولة منها للتكفير عن نفورها السابق من سيرينا، قدمت لها بعض الملابس الجيدة، وصارت تقضي معهما الكثير من الأوقات، تاركة أم صبحي لأنينها و«نقها».

يمر الوقت بطيئاً بين استلام الوجبات الثلاثة يومياً والتدخين وشرب المتة والقهوة والثرثرة، وحالات القهر المتكررة التي تصيب المعتقلين بشكل يومي، من وقع أصوات حفلات التعذيب، التي لم يستطع أحداً الاعتياد عليها.

أم جوزيف التي غابت في تفاصيل المعتقل وأصبحت من ثوابته، هي التي كانت تعرف معنى الحياة وتعيشها بكل أبعادها لم يدخل الخوف في قاموسها إلا حين سقطت في فخ الجدران الصفراء التي لا تعرف إلا فصل الموت، تلك الجدران التي شهدت مئات الأرواح تسحق تحت سوط اللاقانون أصبحت محيط أم جوزيف وعالمها، لكنها اعتبرت أن ما تمر به ما هو إلا فترة مؤقتة، لذلك احتفظت وحافظت على ذاكرتها، ومنعتهم من الاقتراب منها وتشويهها، تاركة لهم جسدها ليدمروه كما شاؤوا.

ذاكرتها الممتلئة بالأسئلة البسيطة والمعقدة، حاولت أن تجد لها أجوبة عند فرح وسيرينا، هي القادمة من واقع يتاح فيه

للإنسان أن يجد فضاءه الخاص، محققاً ذاته المبدعة، فوجئت من هول الحقائق التي عرفتها خلال الأحاديث جاءت الأجوبة لتكشف عن لبس أرقها سابقاً، واقع هذا البلد كان أحجية وحل رموزها كان عند تلك الفتاتين اليانعتين الممتلئتين وعياً ونضجاً وإدراكاً للصعوبات التي سيلاقيها من أراد أن يقف في وجه الحصار الطويل لأحلامهما المشتركة.

• فرح أريد أن أعرف كيف تستطيعون احتمال هذه الأوضاع؟

• عن أي أوضاع تتكلمين يا أم جوزيف؟

• الجوع، الفقر، الخوف، الضيق بكل أشكاله؟

• كل شيء ممنوع، لذلك نحن هنا!

في بلدنا الصغير رغم كل الحروب التي حدثت مازالت المحبة توحد الناس، هنا لا يوجد إلا بقايا ناس. لا يوجد من يدافع عن حق المظلومين ويحميهم!

• لأن الناس كلهم «مظلومين» وقهقهت سيرينا كالعادة

• الأمر معقد جداً لاأعرف من أين سأبدأ، القصة عويصة أجابتها فرح بحرقة.

• لكن يوجد من الخيرات الكثير، ما يضمن حياة مستقرة للجميع.

• يا أم جوزيف.. كل هالخيرات بتروح «لحماة الديار» هيدا العويص بالقصة.

أجابتها سيرينا معتقدة أنها قد فهمت ما كان عصياً عليها، اتكأت أم جوزيف وأشعلت سيجارة، وسرحت في نقطة ما في الجدار المقابل لها، بينما فرح وسيرينا تتجادلان كالعادة حول مفهوم الثابت والمتغير، حين عادت أم جوزيف لتسأل:

- طيب «أصحاب البلد» ألا يخافون أن يعرف العالم عن كل ما يحدث هنا؟

• عجبتي هي «أصحاب البلد» لم يسبقك عليها أحد، برافو أم جوزيف راحت سيرينا تصفق لها باستحسان.

هم لا يقيمون اعتباراً لأحد، بالمقابل هناك تركيبة من الأكاذيب المضللة في حال تسرب خبر ما، تابعت فرح:

- ثم من لايهتم بحال أبناء بلده؟

• يا صبايا ألا تشعرون بالندم ولو قليلاً؟

• ليس مخفياً على أحد بأي سوط سيجلد وما ينتظره!

لكن سيرينا اشرأبت قائلة:

• أجل أنا نادمة على شيء واحد فقط، أنني لم أفقأ عيني الضابط الذي قام باعتقالي.

• يعني لا وجود للندم؟

هاجت سيرينا وماجت وردت عليها وهي ترقص غيظاً:

ندم شو؟

عم تقلك فرح إنو بنعرف شو بدو يصير، ندم شو؟ في غيرنا استشهد تحت التعذيب، وغيرنا وغيرنا

القصة مش مزحة ولعب ولاد، ديري بالك تغلطي أم جوزيف تانيْ مرة بزعل منك، على شوي كنت عم فكر نظمك بالحزب، هلق بسحب كلامي. ضحكت فرح لكنها شعرت أن شفتاها متيبسة وقلبها يفرز سمّاً وليس دماً ولم تستطع أن تنسجم مع هرج سيرينا وأم جوزيف، رجعت للخلف حتى لامس ظهرها رطوبة الجدار المتعفن، اتكأت على آلامها وغابت مع ضباب سجائرهن.

إنه المكان الذي شهد روح حاتم وأرواح رفاق غيره غادرت الحياة تاركة مواقف مشرّفة ووصية واحدة، استرجاع الوطن من أيدي الديكتاتور وغيلانه.

فرح التي اختصرت جراح جسدها آلام الوطن لم تهدأ ولم تتراجع عن مواجهة الديكتاتور وزبانيته وأزلامه، لم تطفئ تجربة اعتقالها الأولى وتعذيبها جذوة ثورتها ومناهضتها لكل أشكال الاستبداد، تابعت مسيرة نضالها باحثة عن الشمس المفقودة في طريق وعر، وبقيت على عهد وصية الشهداء الذين ضحّوا بحياتهم ليواصل من يأت بعدهم الطريق.

حاتم، أيها الشهيد الغالي، أبناء الشمس استيقظوا وثأروا لدمك المسفوك من أجل حرية الوطن والإنسان، هذا ما قالته يوماً فرح أمام متحف اللوفر في باريس وفي كل ساحة كانت تزورها، أنا أعرف أن روحك ترافقنا وأعرف كم أنت فخور بشعبك الذي سطرّ ملحمة تاريخية في النضال لنيل حريته، ولو جاء هذا بعد انتظار طويل، إنه يكتب تاريخه بيده الآن وهذا كان أقصى أحلامك وأحلامنا.

تماثلت فرح للشفاء خلال شهر من اهتمام أم جوزيف وسيرينا، واستطاعت أن تتحرك بحرية بعد أن تعافت أظافرها من التقيح وبدأت تلتئم لتنمو الأظافر من جديد، كانت تمارس بعض التمارين الرياضية برفقة سيرينا «التي لم تتخل عن حركاتها التهريجية» لتعيد الحياة لنهايات أعصابها التي لحق بها التلف، لكن الهالات تحت العينين تحولت إلى اللون الأسود وجروح الظهر والقدمين ماتزال تنز دماً، أما تورم الرأس فقد خفّ لدرجة كبيرة بفضل رعاية أم جوزيف وسيرينا والدواء الذي وصفه طبيب المشفى العسكري. كانت تقسو على جسدها ليستجيب لكل أمر، ذات يوم ودون سابق إنذار، أخبروهن أن يحضّرن أنفسهن للخروج جميعاً.

سألت فرح أم جوزيف عن الأمر، فأخبرتها أنهم بين الحين والآخر يسمحون لهن بالصعود إلى ساحة فوق الأرض يدعونها (التشميسة).

جاء ثلاثة من حراس (قفص الترويض) فتحوا باب المزدوجة، وانتظروا السيدات للخروج، خرجن جميعاً باستثناء أم صبحي. وقفت فرح وسيرينا بانتظار أم جوزيف، لكن هول المفاجأة صعقهما، سارتا في الممر الطويل تلحقان بأم جوزيف كمن يسير في نومه.

• أهو حقيقي ما رأيناه سيرينا؟

• أنا أيضاً لا أصدق ما رأيت! هل تحول هذا المكان إلى معرض فني؟

• تعالي نسأل أم جوزيف عن سر وجود هذه اللوحة.

وصلتا ساحة الشمس.

كانت أم جوزيف تستحم بضوء النهار، هي التي كانت بأمس الحاجة لاستنشاق هواء طبيعي، بعد أن اختزنت في رئتيها من هواء عفن، مثقل بالسموم والأنفاس البشرية خلال كل تلك السنين) ما يكفي لقتل قبيلة من الدببة). ذهلت أم جوزيف من هجوم الفتاتين:

• ما الأمر؟ استمتعا بالشمس، ستفتقدان هذا الترف لفترة طويلة.

أشارت فرح لها أن تبتعد عن الحراس، وجلسن بعيدات عن أعين الحراس والمراقبين، ثم لم تنتظر فرح لتباغت أم جوزيف قائلة:

• كأني، ولم أكن أحلم، رأيت لوحة للرسام الفلسطيني «عامر حداد» هنا في الممر!

• أجل لم يكن حلماً.

• ماذا تفعل تلك اللوحة هنا؟

• لأن صاحبها هنا!

• أين؟

• لا يفصل بيننا سوى جدار، إنه في المهجع أربعة، وهو يضع لوحاته في الممر لتجف تحت المراوح.

• وكيف يسمحون له بذلك؟

- يقوم برشوتهم، يعطيهم ما يحلو لهم من ملابس وسجائر وأطعمة تأتيه في زيارة الأهل، أو يقوم بصنع قلادات خشبية جميلة (لقد صنع لي واحدة) وأشياء أخرى، يطلبون منه الكثير مقابل ذلك، كما يسمحون له بإدخال ما يحتاج من ألوان وأدوات سراً.

• عامر حداد هنا؟ تساءلت سيرينا ولماذا هو الآخر هنا؟ ماذا فعل لهم؟

• هو هنا بتهمة أنه إرهابي! قالت أم جوزيف ذلك بحذر وخوف.

• إرهابي دفعة واحدة؟

أعلن الحراس أن وقت النزهة قد انتهى، نزلت فرح وسيرينا الدرج المؤدي إلى المهاجع بخفة القطط، بينما راحت أم جوزيف تمشي الهوينى وتشاكس متعمدة، لتؤمن للفتاتين التغطية وأكبر قدر من الوقت.

وصلتا أمام اللوحة، راقبتا كل ضربة ريشة فيها، لم يكن الفرح بوجود اللوحة في الممر فقط لأنها عمل فني مبدع لرسام معروف بل ذاك الإحساس بحضور جزء من العالم الخارجي، وما يضفيه على المشاعر من دفع هائل بالقوة، في حين كل ما هو حاضر وموجود يدعو للموت. غابت فرح في عالم اللوحة، كان ليده وقع السحر، تأخذك إلى عمق اللوحة، وكأنك تسمع أروع ما كتب نيرودا من قصائد عشق، يدعك تسبح معه في فضاءات سرمدية لتغيب مع موسيقى الشرق، يجلسك هنيهة في غابات الأرز الإلهية، ليعيدك معه إلى شواطئ المرجان، لتنعم بدفء الأزرق الأبدي.

وما أن تطأ قدمك أرض الواقع حتى تشعر بأنك تحررت من التابوات جميعاً، لتتبلور فيك روح متمردة تحثك أن تفصح عن مكنوناتك وهواجسك، وأن تقرر على أي جانب تريد الوقوف!

– عامر حداد. لقد حضرت له معرضاً في صالة الكرامة، هل تذكرين سيرينا؟

– طبعاً أذك، كان ذلك عام 1986، لقد أعجبت جداً بلوحاته

وخصوصاً لوحته (موت إله)، وحاولت أن ألتقي به لأتعرف إليه، لكن جمهرة كبيرة كانت حوله، فلم أستطع اقتحامها، والوصول إليه، على ما يبدو من الواجب أن أعترف بقصر قامتي!

ضحكن حتى الثمالة، وغبن عن الواقع، بحديث طويل عن عامر حداد، وتشعب الحديث إلى غيره من أعلام تلك الفترة من شعراء وكتّاب وفنانين. أثناء ذلك كانت أم جوزيف تقطع الحديث عند كل اسم جديد، لتستوضح وتستفسر، وتحتفظ بذاكرتها الجبارة بكل معلومة جديدة.

سألت فرح هامسة:

أم جوزيف أخبريني كيف سمحوا لعامر حداد أن يرسم ويضع لوحاته أمامهم دون خوف وعلناً.

– بدأت القصة منذ عام تقريباً حين احتاج أحد الضباط من يرسم لصديقته مشروع تخرجها في الجامعة، فأخبره أحد السجانين أنه يوجد في السجن رسام شاطر ومشهور كتير لذلك وحين طلبوا منه أن يقوم برسم مشروع التخرج أحضروا له الألوان وما يحتاج ليرسم، وعامر استغل الأمر وطلب ألوان تفوق حاجته وبقيت عنده.

• منذ أن علمت فرح بوجود عامر حداد في المعتقل تملكها شعور هائل بالقوة، أحست أنها قادرة أن تواجه جيوشاً، تحول إحساسها إلى حقيقة تماهت مع واقعها، مما جعل روحها

المتمردة المبدعة، تعود للتحليق في تلك الفسحات القليلة التي ولدت بنبض ألوانه، لم تكن بحاجة في معظم الأوقات، أن تخبر سيرينا بما تفكر به، أو بما يجول في خاطرها، فكان يكفي أن تنظر إليها حتى تعرف كل شيء، وتجيب دون أن تسأل، لأنها من الأشخاص النادرين الذين يدخلون حياتنا فلا نستطيع نسيانهم أو تناسيهم ما طال الزمن!

كانت فرحة أم جوزيف واضحة على ملامحها وهي تخبر الفتاتين بما تعتبره سرها، قائلةً:

يا بنات لدي خمر. أنا صنعته في أحد الأيام كان مخصص الفاكهة أو الدوسير، عنب فطلبت حصة إضافية، فمنحوني كمية كبيرة لأنه كان يوجد فائض لديهم، في الواقع أردت أن أصنع خلاً لكنه تحوّل إلى خمر فأبقيت عليه.

– هي هي: أم جوزيف! استنكرتا معاً

– والعدرا والرب يسوع إنها الحقيقة يا بنات لم أكن أجرؤ على التفكير بوجوده، لكن من فرط سعادتي بكما، تجرأت على البوح.

حولت أم جوزيف إحدى الغرف إلى غرفة للمؤن، لتضع فيها ما يفيض عن حاجاتها، أو ما تتركه اللاتي أخلي سبيلهن.

كانت تتصرف في هذه المزدوجة وكأنها في منزلها، ترتب الأمور اليومية، تخبئ المؤن، تدبر ما يلزم من طعام وحاجيات وملابس ومنظفات، وكأنها ربة منزل حقيقية، وتقوم ببعض

المناورات مع حراس قفص الترويض لتحصل على ما ينقصها. محاولةً الغرق في هذا الواقع كي لا تقع فريسة ذكرياتها وحزنها على ما خلفته وراءها، أولادها، زوجها، علاقاتها، حياتها الجميلة، نشاطاتها الاجتماعية التي كانت تقوم بها والتي بدأت بشكل بسيط ثم تحول إلى أمر جدي ورسمي حين أنشأت جمعية خيرية تعنى بأمور «معاقي الحرب»، كانت تبذل من مالها ووقتها وتجهد لتوفر قدر المستطاع لمن هم بحاجة للمساعدة بعض الأمان، تسافر وتحضر المؤتمرات تجمع التبرعات، تبحث عن العائلات المنكوبة لتقدم لهم فسحات أمل جديدة، إحساسها بالمسؤولية تجاه كل من تضرر من حرب حصدت بآلاتها المدمرة كل ما صادفها لكنها لم تقدر رغم ضراوتها على إلغاء الإنسان، اندفعت أم جوزيف تبحث عن كل فرصة تستفيد منها لإيصال رسالتها، ما جعلها تصبح وجهاً اجتماعياً معروفاً، وجعل دائرة مسؤولياتها تتسع لتشمل كل مخلفات الحرب من جوع ودمار وأمراض نفسية وجسدية وأيتام وعائلات بلا مأوى.

حين أحضرت الخمر سألت بهدوء:

– هل تريدان التذوق..؟

– ما رأيك بأن نبقيه لعيد الميلاد؟

– وهل يعقل أن أبقى لعيد الميلاد؟ قالت ذلك بحرقة.

تدخلت سيرينا:

- إنه على الأبواب... على كل حال لن نرد لك طلب، هاتي

جلسن في الغرفة وتناولت كل واحدة منهن كأساً وراحت فرح وسيرينا تغنيان مارسيل والشيخ إمام وزياد وجوزيف صقر. كانت أم جوزيف تشارك ببعض أغاني جوزيف، وبينما كن يغنين بصوت حزين وهادئ وإذا بطرقات منتظمة على الجدار!

هرعت أم جوزيف وأغلقت الباب الذي يفصل الحمام عن الممر الرئيسي وبقيت هناك. طال غيابها حتى كادتا أن تنسيانها، وعندما عادت بادرتها سيرينا بالقول متهكمة:

أولاً هذا ليس خمراً! «خل» ممكن! لكن خمر؟ إنه عار على الخمور! ليكن بعلمك أنّ لي في صناعة الخمور والعرق باعاً طويلاً وخبرتي تضاهي خبرة صانعي الخمور في فرنسا. أنتم أهل بعلبك خبراء الأفيون والحشيش وكثير عليكم ذلك، وأنت تهزئين بنا وتقولين سراً وجرأة وما إلى ذلك، هذا ليس سراً، فالكل يعرف أن المعتقلين يعمدون إلى صناعة الخمر أو ما يشبهه، فما الجديد في ذلك؟ أما السر الحقيقي فذاك الذي تخفينه وراء الباب، ما هو؟

كانت أم جوزيف مشدوهة طيلة الوقت، تحاول أن تعرف هل هي جادة أم مازحة؟!

- ما السّر الحقيقي؟ إذا كان الكل يعرف أننا نصنع الخمر إذاً فالكل يعرف أننا نتواصل ونتراسل ونتحدث. ما رأيك في ذلك؟

- (أفحمتيني، مع من كنت تتحدثين؟).

تدخلت فرح بسرعة محاولة تحويل ما حدث إلى طرفة من طرائف سيرينا

- سيرينا تداعبك أم جوزيف، وليس من شأننا ما تفعلين.

- كنت أتحدث يا سيادة المحققة مع صديق لي في المهجع أربعة، وأنا قادمة لأخبركما، ولكنك لم تعطيني فرصة.

أحسّت سيرينا بالخجل لكنها لم تعترف، فاعتدادها بنفسها وشكها وريبتها من كل شيء منعها من ذلك.

على كل حال يا فرح لي معك في الصباح حديث خاص. تصبحون على خير، قالت أم جوزيف ذلك وذهبت للنوم.

وحدث ما كنت أتفاداه؛ جدل عقيم دام لساعات:

- ما كان عليك التدخل في شؤونها الخاصة، لكل علاقة حدود، نحن نرزح تحت وقع الألم نفسه بغض النظر من أي جهة هي أتت، الآن مصيرنا واحد وجلادنا واحد.

هنا انفجرت سيرينا:

- مصيرنا واحد؟ وهل هؤلاء الأوغاد جلاديها؟ أخبريني! إنها تتعامل معهم كأنهم جيرانها. ناهيك عن سبب وجودها هنا، لا أريد أن أخوض معك في هذا الحديث أكثر.

- سيرينا. إنها هنا منذ تسع سنوات، لقد تآخت مع جدران السجن، فما بالك بسجّانيه. بربك سيرينا، لقد نسيتْ شكل أطفالها وتفاصيل مدينتها، ولا تعرف ما استجد على ملامحها. علينا أن نحتمل بعضنا، لقد ساعدتنا، وعالجت جراحنا، وألبستنا من ملابسها، إذاً هي إنسانة جيدة.

- فرح كيف تتمتعين بهذا الهدوئ، وانا اكاد اجن؟ إنها جاسوسة.

- لا ليس كذلك، انها إمرأة عربية تحب بلدها، وهي رهينة حتى يظهر زوجها.

- بالله عليك، اكتفيت من هذا التقريع.

- أرجوك ان تعتذري منها، لا اريد ان اقوم بذلك نيابة عنك.

- الصباح رباح، قالت ذلك وغاصت تحت بطانيتها وعلى شفتيها ابتسامة خجولة.

- الان سيرينا، لا تدعيها تنام وهي مجروحة.

لم تجب، فتركت فرح الموقف معلقاً. في الصباح كانت أم جوزيف تنتظر لحظة استيقاظ فرح، نادتها إلى غرفتها لتشاركها قهوة الصباح، بينما كانت سيرينا تغط في نوم عميق. ذهبت إليها، وألقت التحية على أم صبحي، فبادرتها بالمثل، حاولت أن تعتذر عن موقف أمس، لكنها أحست بالعجز، تلعثمت، وتاهت الكلمات، ولم تستطع النظر إليها مباشرة. جاءت كلمات

أم جوزيف خلاصاً لها في هذا الموقف الصعب:

- فرح، أنا لا يهمني ما حدث البارحة، صرت أعرف طبيعة سيرينا، إنها فتاة طيبة وممتازة، في فترة سجني هذه مر على رأسي الكثيرات، ما هب ودب، الغنية والفقيرة، المثقفة والجاهلة، القوية والضعيفة، لكنهن جميعاً لم يحركن مشاعري، الوحيدتان أنتما استطعتما دخول قلبي، ولا أعرف لماذا؟

- سامحينا إن كنا قد آذينا مشاعرك بالأمس.

- أنا لا أريد أن أبرر لك أي شيء، فمع الأيام تعرفين من هي أم جوزيف، وأتمنى أن نلتقي في الحرية لتتأكدي بنفسك من أي جهة أنا أتيت.

لقد سمعت حديثنا قالت فرح لنفسها في حين تابعت أم جوزيف كلامها:

- على كل حال الأمر الذي أردت محادثتك بشأنه هو أن عامر حداد يريد أن يتحدث إليك.

راحت ضربات قلبها تعلو، وملامح وجهها ترتجف، حاولت ضبط مشاعرها قدر المستطاع حين سألتها:

- أنا؟ لماذا أنا تحديداً؟

- لا أعرف لكن أبو أحمد الذي كنت أتحدث إليه، أخبرني بالأمر، وعلى ما يبدو أنه كان يسأل عنك كثيراً، ويراقب ما

يحدث معك في فترة التحقيق.

- وماذا أفعل؟

- تحدثي إليه.

- ببساطة، هكذا!

- أجل.

- أم جوزيف، أنت لا تعرفين ما أعني. إنه شخص معروف ومهمٌ ليس في الوسط الفلسطيني وحسب، بل عربياً وعالمياً، إنه فنان عظيم. فكيف وبأية جرأة تريدين أن أتحدث معه؟

- تتحدثين إليه كما تتحدث أي امرأة مع أي رجل!

- رجل وامرأة؟ أنا لا أفكر به إلا كفكر متحرر، شعلة متقدة وليس كرجل أو!

- لا تتعبي نفسك وتتعبيني، ولا تعقدي الامر، حدثيه وأنتهينا.

- ما أبسط الأمور بنظرك، حتى الآن لم أتقبل فكرة أنه معتقل معنا، يعيش نفس ظروفنا، ثم تريدين أن أتحدث إليه، لا أستطيع.

- هو الذي يطلب ذلك، وليس أنا! ونهضت.

انسحبت فرح بدورها، وذهبت إلى غرفتها، وراحت توقظ سيرينا، التي أفاقت وهي تتثاءب بحركات كوميدية، لكن فرح لم تلق لها بالاً، لأن ما يشغل بالها كان أعظم.

- شو القصة؟ «ما رضيت أم جوزيف علينا »!

- سيرينا، لن تصدقي ما حصل.

- ماذا؟ سيفرحون عنا اليوم، اليس كذلك؟ حلم إبليس، دعك الان من جنونك قليلاً، عامر حداد يري التحدث إليّ.

- وما هو الشيء الذي لا يصدق؟

- سيرينا، أرجوك كوني جادة ولو قليلاً.

- يا ناس، والله إني أتكلم بجدية!

- تعتبرين أن الأمر بسيط وعادي؟!

- اقل من عادي، حتى الان لا اعرف ماذا تريدين أن تقولي.

- أريد ان اقول إنه «عامر حداد».

- ويكون «لينين» شو يعني؟ أتعرفين ما هو عيبك؟ إنك تعطين للناس أحجاماً أكبر من أن يحتملوها، متناسية من أنتِ!

- من أنا؟

- أنت فرح صديقة سيرينا، ألا يكفيك هذا؟

وذهبت مقهقهة تاركةً فرح في لظى الحيرة. لحقت فرح بسيرينا، والتي كانت تداعب أم جوزيف، وتحاول دغدغتها وهي تحدثها عن قريتها الوادعة، الغافية على سفوح الجبال:

- أم جوزيف.

نادتها وكانها على خشبة مسرح

– لقد قررت ان اعدل في وصيتي!

رمقتها أم جوزيف بنظرة حانية وأجابتها:

– ماذا في ذلك؟

– الجديد أني قررت أن أضيف بنداً أهبك فيه، فأنت تعرفين أني لا أملك الكثير، ولكني قررت وأنا بكامل قواي العقلية..

قاطعتها أم جوزيف بتحبب:

– أشك في ذلك!

لكن سيرينا تابعت متجاوزة التعليق:

– قررت أن أهبك حمارتي، وتأكدي أنها غالية عليّ كثيراً.

كادت أم جوزيف تنفجر ضحكاً، بينما فرح تنظر إليهما شاردة، لأن ما تفكر فيه قد أرهقها، بينما فرح تتخبط وتصارع أفكارها تحفز الذاكرة كي تسترجع كل تفصيل قد عرفته عنه، جاءت سيرينا كالإعصار لتخبرها:

– إنه ينتظرك.

– أين؟

– هنا، تحدّثي عبر هذا المصرف، اعتبريه هاتفاً أو ما شابه.

جلست فرح القرفصاء، وانتظرت أن يتكلم، وجاءها ذاك الصوت:

– ليكي، عم تليكي؟

حاولت الاختباء، أو الهروب، ثم أجابته:

– أهلاً.

وسقط قلبها في بئر سحيق، كانت خجولة جداً وترتبك من مواقف كهذه

– اسمعي لقد رأيتك أكثر من مرة، وهالني ما يفعلون بك، سألت عنك كثيراً وعرفت القليل، أصبحت همي وشغلي الشاغل، لا أنفك أفكر بك.

أما أنا فأعرفك، وأعرف عنك الكثير، لقد راعني وجودك هنا، فما هو السبب؟

– هذه التفاصيل نتكلم عنها لاحقاً، ما أريده هو أن نتواصل، ولكن بطريقة مختلفة، ما رأيك بالكتابة مثلاً؟

لاقت هذه الفكرة استحساناً فرح ليس لأن قلمها يجيد التحدث نيابة عنها، بل لأن هذه الطريقة تنقذها من المثول أمامه وكأنها في امتحان صعب.

– موافقة، هذا أفضل بكثير.

تلك الرسائل التي ستبادلونها بشكل يومي تقريباً ستصنع حولهما حصناً منيعاً ضد الموت القادم ببطء «كالوباء» ليقضي على كل صلة تربطهما بالإنسان بدأت الفكرة حين أصبحت

أحاديثهما صعبة جداً، عبر مصرف المياه (الذي كان وسيلة المعتقلين لتناقل الأخبار وتبادل الأحاديث والذي كان يشكل شرفة لملاذ سحري يهرعون إليها في تلك اللحظات الحالكة السواد، منتشلين أرواحهم من مستنقع البؤس والموت). لذلك اقترح عامر أن يتكاتبا وأن تبعث الرسائل عبر مصرف المياه

- إذاً استلمي الآن أول خطاب أوجهه لك عله ينال إعجابك، سأنتظر ردك.

عادت لركنها وسارعت لقراءة ما كتب:

- لا أعرف من أنت، ولكن إن كنت أنت من أبحث عنها فاقرأي باهتمام وجيز بعض ما رسمت: لقد استفقت يوماً من رقادي باكراً على غير عادتي، ففوجئت بأني أحمل على ظهري مشروع قرار كبير، هو البحث عن الحقيقة، كانت أوراق المشروع ثقيلة، لكني اجتهدت في دراستها حتى وصلت للقرار، وبدأت أبحث عن الحقيقة.

- هل سمعت يا (...) أن إنساناً وصل للحقيقة قبل الآن؟ نعم إنه أنا عفواً، ولكنني هناك، وعند الحافة القصوى لما يدعى الحقيقة، عرفت كل الزيف! فهل أنت مثلي؟ والآن أخبريني سيدتي؛ هل تمكنت من استفزاز قلمك ليكتب أو ليرسم بعض الكلمات؟ إن كنت كذلك، فاضحكي على كل ما هو حقيقي في هذه الحياة، ودعيني أسمع ضحكاتك عبر طرقات الجدار،

واعلمي أني لست جدياً كما تتخيلين، فأنا الرسام الضاحك إلى الأبد، حتى انتهاء لوحة حياته، ولدي الكثير من الألوان التي أستطيع كتابتها، لتتمكني من التحليق فوق هذا العالم البغيض.

كان المكان يضيق بها، وكأن الجدران كانت تقترب لتطبق عليها، حررت روحها من ربق جسدها، وراحت تهيم في عوالم مختلفة وتطوف الأمكنة، ذهبت لتعانق فردوسها اللازوردي، استنشقت عبق أمها المشبع بالحبق، دغدغتها في حلم وادع، وتركتها لتتفقد بنفسجها الحزين، ونسارين نافذتها، وعادت وهي تحمل وجوه أحبابها، لتخبره؛

- لقد كنت أحتمي بعباءة الليل، أراقص النجوم وأنتشي بخمر الياسمين، أعانق النهار لأستحم بوهج الشمس كل يوم، يا سيد النهايات؛ لقد مرت كل الدروب على قدميّ، وضاعت ملامح الزمان، ليسقط الوقت في شرك المشاعر المبجلة، وبينما كنت أبكي حبراً، والفجر لم يأت بعد، كان الصنوبر هناك ما يزال يؤدي رقصته الأبدية على وقع الظلال الممتدة نحو الحلم، قل لي يا سيد النهايات؛ هل غفوت على زند الينابيع، واستمعت لقصائد البرق، وأجراس القوافل، وأقاصيص الخريف؟ تعال واسند رأسك إلى جذع الصفصاف الحالم، وتمدد في حقول القمح، واشرب نخب العاشقين! ألا يكفيك من حقائق؟ ألا يكفيك من حقائق بأنك حين تحب، تعانقك الأرض، ويصير الوقت صفراً؟ فلا هو موت ولا حياة، ولا هو خصب ولا يباب،

فصل للحب فقط! ألا يكفيك من حقائق؟ بأنه لا يظهر الإنسان إلا حيث تنتهي حدود الحكومات هناك حين تهمس نسيمات البحر للنوارس، فيتعالى نشيد الضرورة محرراً الإرادة السجينة بالجنون، وفي الحب شيء من الجنون، ألا يكفيك من حقائق بأنه ما من إله يقف إلى جانبك حين يسحق قلبك بكاء طفل يتلوى جوعاً، وأنت لا تملك سوى عجزك!

الأيام تمر مسرعة، ما لم يسمح لفرح أن تلحظ ما يطرأ عليها من تطورات. كانت تعلو فوق دائرة الحصار، لتغرق في عالم «عامر حداد»، والمراسلات اليومية جعلت روح الخطاب تعلو، لترتفع وتسمو وتلامس المشاعر العميقة. هو الذي استاء قليلاً من ردها على رسالته الأولى لأنه اعتبر أن خطابه كمن يرمي كلمة ويستمع لصداها، قال: ما هو إلا مفتاح لحوار قد يستمر إذا نحن أجدنا التعامل معه. ولهذا أغبط نفسي لأني عثرت عليك، فمن كان بإمكانها مجاراة أفكاري المجنونة، لا يمكن أن تكون امرأة عادية!

اعتبرت فرح هذه الكلمات وساماً تفاخر به مدى حياتها. لقد عاشت طفولتها وبدء وعيها بين مفردات وقصائد الوطن المحتل تلك الأسماء والشخصيات التي كانت تشكل عالماً خاصاً تلجأ إليه وتحاكيه وتعتبره ركنها المقدس، لا يحق لأي كان خدشه، أو الاقتراب منه. لقد كان أكبر من قضية صراع. وبحسها المراهق الطفولي شكّل في أغلب الأحيان مرجعاً لكل حالة تمر بها. راح

يكبر إحساسها ليتحول لحالة عشق تعيشها بكل أبعادها، كانت تدور حوارات ومساءلات دائمة في دواخلها عن حقيقة مشاعرها، لماذا؟ لماذا اعتبرت «فلسطين الوطن الجريح» قضيتها وفي بعض الأحيان انتماءها؟ لقد لمست عند الكثيرين مشاعراً تكاد تكون قريبة من مشاعرها لكن أحداً لم يشبهها، على الرغم من أن آخرين قدموا حياتهم فداءاً، وآخرين بذلوا ما استطاعوا. الآن وفي (قفص الترويض) أدركت أنها كانت تبحث عن وطن يحتضن أحلامها، يحميها لتحميه.

كان قد مرّ على وجود فرح وسيرينا في مزدوجة النساء قرابة الأربعة أشهر، حين تم استدعاء فرح للتحقيق مرة أخرى. نال الخوف من أم جوزيف وراحت تصلي صلاتها الخاصة حين ذهبت فرح برفقة السجان الذي أخبرها في الطريق أن الضابط الثاني في شعبة المخابرات العسكرية يريد التحقيق معها بحضور والدها لأنهم طلبوا منه الحضور، انهالت عليها هذه المعلومة ككومة من حجارة، وحين وصلت لم يكن المكان المعهود الذي يتم التحقيق فيه عادةً، إنه مبنى آخر، وهو قمة في الفخامة والأناقة ورود وسجاد وحرس خاص بهيئة أنيقة! ورائحة عطرة تفوح في الأرجاء. دخلت غرفة الانتظار، وكان ضغط دمها قد ارتفع حتى بلغ ما بلغ، وسؤال واحد يحاصرها: لماذا أحضروا والدها؟ ماذا يريدون؟ والدها ذو الشخصية الفذة والمتفاخرة بأصولها، ابن الشيخ (العلامة أحمد) (والسيدة زهية) إنهم من سادة

المنطقة، فمن جهة الدين هم أهل الدين والمشيخة عند العلويين، وذوو إرث يؤهلهم لذلك، ومن جهة الأملاك فقد كانوا يملكون من الأراضي والمرابعين الكثير، وكأن المنطقة كلها كانت تحت سيطرتهم. لكن والد فرح أراد خطاً آخر لحياته بعيداً عن هذا الإرث، واختار العلم معتمداً على نفسه، وحقق ما أراد، وأصبح قاضياً معروفاً، له مكانة مرموقة، ومكانة اجتماعية كبيرة. ودخل معترك الحياة السياسية، وكان له نهج واضح، فهو من الناصريين الملتزمين، وقد عاش حياته ينادي بأفكارهم، وكان دائم الحلم بتحقيق الوحدة العربية. والدها الذي لم تعش معه ولم تشعر بوجوده إلا عن طريق بعض الأخبار التي يتناقلها بعض أصدقاء العائلة والمعارف، الآن سيقوم بالتعرف على ابنته.

لم يستغرق انتظار فرح بضع دقائق، حتى تم استدعاؤها، ولكن بعد أن وضعوا العصبة الجلدية على عينيها) الطماشة (هزها الخوف، لكنها تمالكت نفسها، أدخلوها الغرفة وجلست، أحست بحركة وراءها، راقبت وحاولت استراق النظر، وأدركت أن والدها يجلس خلفها، كان متوتراً لدرجة أن قدمه ما كانت لتهدأ عن الحركة. راح ذاك الضابط الكبير يسألها أسئلة محرجة لينال من كرامة والدها ليس إلا. لم يكن يعتقد، بل كان متأكداً أنه بمستوى إله، ولا يقبل غير ذلك! المدهش أن هذا الضابط كان في زمن مضى يختصر معنى«وطن»، كان يرفض أن تجتاح سماء بلاده ريح مسمومة، أو أن تمتد إلى بيدره يد

غريبة. لكن في غفلة ما اختلف ما كان، فالمسافات قد أبعدته عن فضاء البلابل، وأقصته بوابات النغم عن سماع موسيقى القرى وبهجة الحصاد! وتحول حين تخلى عن ذاته، إلى وحش كاسر، يبطش كل من اقترب ليهز عرش السلطة، كل هذا ليثبت لذاته بأنه لم يخطئ حين تخلى عن مبادئه التي رضعها من ينابيع القرى النائمة على دمع القهر. راح يتشدق ويسأل عن أمورها الخاصة وعلاقاتها العاطفية لم تكن فرح تعرف أن العلاقات العاطفية تهز أمن البلد! وكانت تجيبه باقتضاب وبالنفي غالباً، مما جعله يخرج عن طوره، لكنه كان مضطراً أن يكظم غيظه أمام والدها. والذي كان لا يعرفه هو أنها تراه الكل كان بمقدورهم الرؤية من خلف الطماشة. راح يضرب بقبضته على المكتب، ويناور ليبدأ بالمساومة على أمل أن يفوز بجولته، أخذ يعرض الكثير من المغريات مقابل أن توقع على تعهد بالولاء التام، وهذا الولاء يوجب عليها نقل الأخبار وكتابة التقارير!

– لديك الكثير من العناصر والمخبرين والمجندين لخدمتك، وتعرفون كل ما يحدث، حتى أنكم تستطيعون معرفة ما يدور في أذهاننا، فبماذا سأفيدكم؟

هنا ثارت ثائرته، وقام من وراء مكتبه، وطلب من والدها مغادرة الغرفة ولم تعرف إلى أين أخذوه، صرخ بصوت عالٍ يطلب جلاده الخاص، كانت تعرف أن هناك حفلة مطنطنة تنتظرها، لذلك أرادت أن تنتقم لكل من مروا في هذا النفق،

لحاتم أولاً، لشقيقها أيمن وسمير ولنفسها ولكل الرفاق، حين كان يوجه لها أي شتيمة كانت تردها له مضاعفة. جاء وجرها من شعرها ورماها على الأرض، وداس بحذائه على فمها وسحقه سحقاً وهو يزبد غضباً؛ يا بنت الشرموطة عم تتفصحني وتتذاكي قدام أبوكي، والله لعلمك كيف تجاوبي أسيادك يا عاهرة. راحت فرح تجيبه بصوت بلغ حد الصراخ ليسمع من في الخارج كيف يهان هذا المجرم:

- إنت وأمك وإختك وعمتك وخالتك شراميط ومرتك وبنتك بتارين الشام يا ابن الكلب يا عاهر، كعب حذاء أمي بيشرف كل أهلك وما بسمحلك تجيب سيرتها يا نذل يا قذر.. يا ابن العهر يا ابن الزنى يا خنزير.

كانت فرح تعرف أنها ستنال من الموت نصيباً كبيراً لذلك قامت بمواجهة الضابط أما هو فكاد يفقد عقله لأنه لأول مرة في تاريخ خدمته يمر عليه من يواجهه دون خوف أو حساب، حتى الجلاد خاف منها وعليها لأن سيده سيطلب منه قتلها هذا مؤكد، هكذا اعتقد الجلاد، أما حراس المكتب أو الحجّاب فقد كانوا خائفين جداً لكنهم فرحين بالمقابل في دواخلهم فقد انتقمت لهم هذه الصبية بنت الأصول وأخت رجال «هكذا قال أحدهم يوماً ما حين كان يستذكر خدمته العسكرية في فرع فلسطين».

جاء الجلاد الذي كان يعرف واجبه جيداً، فقام به على أكمل

وجه، وراح يتفنن بتعذيبها باستخدام الكابل الرباعي مع الكرسي الألماني، الكرسي أداة تعذيب مستوردة من سراديب النازية، كانوا يتقنون العمل عليها بحيث يصل المعتقل لدرجة الإغماء من شدة الألم المركّز في الظهر والطرفين السفليين حدّ الإحساس بالشلل، لكن إتقانهم لعملهم كان يحول دون حدوث ذلك. أما الدولاب فقد كان مسألة أخرى، فمهمته لا أن يزرع فيك الذل وحسب بل أن تعتاد عليه، ناهيك عن الأذية والتشوهات التي يحدثها في الجسم.

لقد جعل الجلاد من جسد فرح أمثولة لمن تسوّل له نفسه أن يواجه ضابط مخابرات، لم يترك مكاناً في جسدها إلا وكسره وكان الضابط يتدخل أحياناً رافساً وجهها أو باصقاً عليها، أو ساحقاً لفمها الذي تلفظ بشتائم ضده، كانت فرح مغمياً عليها، وبعد ساعتين من التعذيب طلب الضابط من الجلاد أن يتوقف ليس رأفة بفرح ولكن لأنه مضطر للمغادرة لموعد مهم مع القيادة. حملوا جسد فرح المدمى على بطانية لأنهم لم يجدوا مكاناً سليماً ليمسكوها منه، ونقلوها إلى مكانها وسلموها كجثة هامدة لأم جوزيف وسيرينا.

يا وطني المصلوب بالعار ودخان الهزائم والألقاب، كيف لي أن أحميك؟ أنا من أحالوا جسدي رماداً، تنشقته رياح موسمية، لتحيلني هباءً، كيف لك أن تحميني؟ وأنت المحاصر بصكوك مدموغة بشهقة أرواحنا ودمائنا المباحة في أسواق النخاسة!

هبني من الوقت فسحة لأستعيد ألق الورد وشرود النسيم، لأن الحصار قيدّ افتتاني بالربيع وأحال الطقس فصلاً للوباء. بين الهذيان والصحو تلفظت فرح ببعض الكلمات تسأل عن والدها، فأجابها السجان مطمئناً أنه غادر وقد عومل باحترام شديد.

- باحترام أيها السفلة! أي احترام هذا؟!

قامت أم جوزيف وسيرينا بحملها إلى مكانها ووضعنها بهدوء ورحن يتفقدن حالتها، راحت سيرينا تكيل اللعنات والشتائم، وأم صبحي تطلب من الإله الخاص بها الانتقام القريب، أما أم جوزيف فقد كانت تحبس دموعها، وكأنها كانت تتوقع ما حدث، لكنها قامت فوراً بالطلب من السجان المناوب أن يحضر الممرض بسرعة.

حضر الممرض ومعه معدات وأدوية وضمادات، ألقى نظرة على فرح وراح يلعن ويشتم كل شيء، في بادئ الأمر أعطاها مسكنات قوية لتنام بعمق، ثم باشر بتضميد الجروح تساعده على ذلك أم جوزيف وسيرينا، وأم صبحي تصلي لها فقط، الكل كان متعاطفاً معها السجانين والمعتقلين والسخرة، الكل.

مضت الليلة تتناوب سيرينا وأم جوزيف على مراقبة وضع فرح في هذه الأثناء سمعن طرقاً على الجدار هرعت أم جوزيف إلى المصرف لتعرف ما الخبر. وتوقعت أنه عامر وبشكل مختصر أخبرته ما حدث مع فرح، جن جنونه ولم يعرف ما

يفعل، عادت أم جوزيف إلى غرفة فرح لتشرف على وضعها، نامت سيرينا وأم جوزيف مستندتين على بعضيهما بجانب فرح، استيقظتا على صوت فرح تناديهما وتطلب ماء، أحضرت لها سيرينا الماء وتحسست جبينها، اطمأنت قليلاً وابتسمت لها:

- كيف الحال؟

- جيدة، أريد أن أدخن سيجارة، وأشعر أن فمي يؤلمني كثيراً.

- هو متورم كثيراً، لماذا؟ سألتها سيرينا بينما أم جوزيف هرعت لتسخّن الماء علها تتمكن من شرب كأس من المتة.

- لقد داس بحذائه على فمي ابن العهر.

- من هو؟

- نائب رئيس شعبة المخابرات العسكرية

أشعلت لها سيرينا سيجارة وقدمتها لها ووضعت لها بعض البطانيات كمساند خلف ظهرها لتتكئ عليها، جلست فرح تحاول أن تصحو من مهرجان اليوم الماضي. سألتها سيرينا بعصبية ولكن لماذا بعد مرور هذا الوقت ولماذا أحضروا والدك؟

- لأنهم جرذان وخنازير، هكذا أجابت أم جوزيف وهي تحضر «عدة المتة» قدمت لفرح كأساً لتشربه، وأخبرتها أن عامر يكاد يجن جنونه وطلب مني أن أخبرك بأنه يريد التحدث إليك فأخبرته عن حالك وأن الوضع سيء جداً ولا تقوين على الحراك.

- قاطعتها سيرينا: أخبرينا الآن ماذا حدث معك البارحة؟

أخبرتهم فرح بكل ما جرى وكيف أحست بوجود والدها، وماذا فعلوا بها بعد مغادرته المكتب بأدق التفاصيل، كانت أم صبحي قد انضمت للجلسة أيضاً كلهن كن حزينات على مصير فرح، لكن في الوقت نفسه سررن بقوتها ويمقارعتها لهم، قبلّت أم صُبحي جبينها وقالت لها: الله يحميك يا بنتي، وينصرك على أعدائك وأعدائنا جميعاً، عاد الطرق على الجدار بقوة، فهرعت أم جوزيف تستطلع الخبر، وبعد لحظات عادت لتخبر فرح أن عامر يريد التحدث إليها الآن. وقفت وهي تكابر على ألمها، وتبتلع أنينها، سندتها سيرينا وأوصلتها إليه، قال لها بكل اللهفة المحتبسة بداخله:

- أنا خائف جداً عليك، ما الذي استجد معك؟ولماذا بعد كل هذا الزمن؟

- على ما يبدو أنهم محتارون في أمري وغير قادرين على اتخاذ قرار بشأني ولا أعرف بالضبط ما يحدث، لكن ما آلمني أن ذلك تم بحضور والدي.

راح يكيل اللعنات، ثم توقف وقال:

- منذ البارحة أريد أن أقترح عليك أمراً، أما بعد ما حدث اليوم، وكيف كاد قلبي ينفطر عليك، ارتأيت تنفيذه حالاً، لأنني أريد التواصل معك بكل حواسي!

- وما هو هذا الامر؟

- لا بد ان نتكلم بشكل مطول دون خوف أو توجس، والكلام عبر هذا المصرف غير مريح وغير امن.

- إذاً ما العمل؟

- اسمعي، أنت تعرفين أني مقيم على سقيفة الحمامات مع فاضل فقط ولا أحد من المعتقلين يصعد إليها دون معرفتي، وأنت لديك سقيفة واسعة تمتد على مساحة الغرف الأربعة والحمام، ولا أحد يستخدمها، لذلك فكرت أن نثقب الجدار، أنت من جهتك وأنا من جهتي، فما رأيك؟

راقت لها الفكرة كثيراً، وسألته عن تفاصيل العمل. أخبرها أنه في إحدى زياراته أحضروا له اللبن الرائب في وعاء له قبضة معدنية فاحتفظ بها، وسيستخدمها الآن في عمله، أما فرح فلديها مقص للأظافر يصلح أداة للحفر، وعندما سألته عن تحديد النقطة المراد العمل عليها، أخبرها أنه قام بقياس المسافة بواسطة خيط سيرسله لها عبر المصرف. كان الخيط معقوداً في وسطه بحيث إذا أمسكت العقدة ووضعت جانبي الخيط على الجدار بشكل مستقيم تتشكل زاوية قائمة، وهذه النقطة رأس الزاوية ستكون موضع العمل، لكن فرح كانت منهكة وطلبت أن يبدأ العمل حين تشفى وتستطيع الصعود إلى السقيفة.

يلجأ المعتقلون في أنفاق الموت إلى إيجاد فراديسهم على ضفة

ما، يصنعون من موتهم اليومي بعض حياة، يتسلقون الأحلام المتسللة عبر هذيانات الحرية التي تدفع بهم للتحرر من جدران الحصار وغرف الموت. المعتقلون إما أن يختاروا درب الموت ويذهبون معه ليتحرروا من كل قيد، وإما يختارون الحياة، لذلك تراهم

يحترفونها بشكل احترافي مستغلين كل خبرة مكتسبة أو فطرية للاحتيال على كل أشكال الموت التي تواجههم ويناضلون ضد الوقت والآلام والذاكرة، يتآلفون بكل دهاء مع الأيام الصفراء التي تمر كالوباء، وينتشلون أرواحهم من مستنقعاتها، إنه الحب، الوطن، الحياة، مقدسات متشابكة ومتداخلة، ثالوث تصلب عليه هناك كل أسباب الموت والضياع. في أنفاق الموت تتمرس على الحياة وتتمسك بها، تعلمّك أساليب التعذيب معنى آخر لما كنت تعيشه في الحياة الطبيعية، وقيمة كبيرة لما كان يحيط بك، عائلتك، أصدقاؤك، حديقتك الصغيرة، حانوت الحي، عمال النظافة، أرصفة الشوارع، رائحة الأشياء، لون البحر، تفاصيل الطريق إلى المدرسة والجامعة والعمل، نوافذ بيوت الجيران ورائحة الطهي اليومي، صوت الأطفال في حديقة الحي، تحضر كل هذه الصور لتصبح واقعاً وتخرج من إطار الذاكرة وتشكّل درعاً يحميك من كل شيء قد يلغي الإنسان بداخلك.

اتفق عامر وفرح، وصعدت فرح إلى السقيفة بصعوبة،

محتملةً أوجاعها، عاينت المنطقة بدقة، كان عامر في الجهة المقابلة يطرق طرقاً خفيفاً ليؤكد على المكان. وضعت الخيط على طرف الجدار من ناحية، وإلى أسفله من ناحية أخرى، وفي الزاوية وضعت علامة،

وبدأت العمل محاولة خدش الجدار. أما عامر فقد قام بثني السلك المعدني ليصبح له مقبض يد حتى بات يشبه ما يسمى باللغة الدارجة مانويل، وبدأ العمل، كان عملاً شاقا لأن حرارة الأدوات ترتفع من الاحتكاك لتصبح كالجمر، ويصبح من المحال الإمساك بها، مما يضطرهما لقطع العمل قليلاً.

لم يكن أحد يعرف مخطط عامر سوى صديقه « فاضل»، الذي كان يتقاسم معه المكان والهموم والتوق لاسترجاع الحق المسلوب، ولأن فاضل كان كردياً يسارياً، فقد وجد في عامر ملاذا آمناً، ليودع فيه أوجاعه وأحلامه. أخبره كيف كان يسافر كل ليل محلقاً متفقداً سفوح «البوطان» ومساحات الوطن الحلم. اندفع فاضل إلى العمل بحماس، وكان يرفض التوقف رغم سخونة الأداة التي تحرق يده، كما واظبت فرح على الحفر من جهتها، وكانت أم جوزيف تراقب الأجواء، وتحذر فرح في حال وجود خطر ما، كما تحذرها من عواقب الأمر على الجميع إذا ما انكشف، لكن فرح لم تكن تلقي بالاً إلى مخاوفها، لأنها متيقنة من أن هذه الأمور لا تكتشف، إلا إذا حدثت وشاية.

دام العمل على هذا المشروع أربعة أيام، وحين وصل السلك

الذي كان يعمل به عامر إلى الجهة الأخرى، وانزاح الإسمنت، وعلا القليل من الغبار، علت صيحات الفرح المكبوتة، كانت مشاعر البهجة فياضة، وكأن جداراً منيعاً قد تحطم، أحس عامر بنصر عظيم، وعلى الفور قاما بتنظيف الثقب من النتوءات، ونظر الواحد منهما إلى الآخر، ولكن فرح لم تر شيئاً! ضحك عامر، وقال:

حين أريد أن أراك عليك أن تبتعدي قليلاً، والعكس صحيح، وحين نريد التحدث نصل فيما بيننا خرطوماً صغيراً. نادت فرح على سيرينا وأم جوزيف فصعدتا إليها فرحتين، وتكلمتا مع عامر، وألقت سيرينا عليه سلاماً خاصا، ونزلتا. قالت له:

– الموج عالٍ والريح تركت في الشراع جروح السنين، فهل أبحر؟ سأبحر، فكل البحر نوارس للعشق، لأني منذ صيرورتي الأولى أحلم ببحّار شاخت وسامته، يركب البحر بقاربه الأسطوري، يعتلي صهوته بإباء، حكيم مجنون، عاتٍ على العتاة، قادم من اللجة. في عينيه المغيب والفجر، يقودني صوته إلى مناخاتٍ فاتنة ويده تفتح لي باباً لنهاية أحبها ولا أعرفها، لأنك تجعل العالم أقل بشاعة، واللحظات أقل ثقلاً سيكون لنا حقول مفعمة بأزهار غريبة متفتحة من أجلنا، تحت سماوات أكثر جمالاً.

قال:

– يا حبي الغافي خلف إناء الخمر إني أرسم بالأسود ضحكات تمحو أثر الحزن، يا حبي القادم عبر دخان العمر أستحضر وجهك كل ليل ليغفو مع أحلامي الداكنة، يلون أطيافي الرمادية بلون العقيق والمرجان، وأبحر معه إلى أغوار مسحورة.

قالت:

– افرش يديك دروباً لعبوري، وافتح لمجيئي المزدحم بفراشات بوابات الليل، أنا القادمة منك إليك مثل سوسنة في البال تخاف أن يدركها اليباس تستحث النسغ مزيداً للعطاء.

قال:

– طيري معي، فلا يحق لغير المجنحين الطيران، تعالي نعانق الشمس، نقفز فوق النجوم، نرش ورداً على صليب الإله، نحمل البحر فرحاً لأطفالنا، نسقيهم من قدور العظماء، ونعلم الآخرين معنىً جديداً للحب.

كانا يتحدثان لأوقات طويلة، يسافران فيها عبر الأزمنة يغادران الأمكنة إلى عوالم لا تغيب عنها الحقيقة. ولأن الوقت هناك كان مقتولاً، كما كل شيء إلا روحيهما، لم يكونا يعرفان ما قضياه معاً، كانا يقطعان الحديث لضرورة ما، كتناول الطعام، أو نيلِ قسطٍ من الراحة، وحينما تنهي الحديث، كانت تلصق فوق الثقب صورة قديمة باهتة متناسبة مع لون الجدار.

ذات مرة بينما كانت فرح تهبط لتصنع لنفسها شيئاً تتناوله،

استوقفتها نظرة غريبة من سيرينا، فاستوضحت، لكنها أجابتها بفتور وبطريقة مبهمة، عرفت فرح أنها تخفي عنها شيئاً، لكن أم جوزيف أتت وقطعت عليهما حديثهما وأخبرتهما أن هناك ضيفة جديدة ستحل عليهن، وقد أخبرها بذلك السجان الذي أحضر وجبة العشاء، لذلك يتوجب الحذر حالياً، حتى تتكشف طينة الزائرة الجديدة. اعترى فرح الخوف والقلق، وهي تحدث نفسها:

- أيعقل أن أحرم من هذا الحلم الذي أعيشه؟

ولاحظت أن ابتسامة خبيثة قد ارتسمت على شفتي سيرينا!

- هل يعقل أنك سررت يا صديقتي؟

- ليس سروراً، لكن لكل شيء أوان ونهاية، أجابتها بلؤم!

• لا أصدق أنك تتفوهين بهذه الكلمات، غير معقول، أتوقع ردة الفعل هذه من كل الناس، إلا أنت!

- يجب أن تتوقعي كل شيء هذه الأيام!

كادت تخرج عن طورها، لكنها حرصت ألا تقوم بأي رد فعل يؤذيها لينقطع هذا العتب المؤلم بفتح باب المهجع، وإدخال الزائرة الجديدة بل الزائرتين كما يبدو، وإحداهن كانت تعرفها أم جوزيف التي صاحت:

- زوزو لماذا أعادوك ثانية؟

- قصة طويلة، «بعدين».

أما الثانية فقد كانت امرأة مصرية قبيحة الشكل، مترهلة البدن. دخلتا وراحت زوزو تخبر«عطيات» عن تفاصيل الإقامة في المزدوجة والقوانين المتبعة بشكل عام.

«عطيات» التي تم إحضارها على خلفية تهمة الاتجار بالرق الأبيض، لم تلق ترحيباً من الصبايا، لم تمر تهمة كهذه من قبل علينا، قالت أم جوزيف ذلك باستياء.

- وجودي هنا بسبب دخولي البلد بطريقة غير شرعية. قالت ذلك وهي تلحق زوزو التي كانت تدلها على مكان نومها.

انزوت فرح بأم جوزيف وسألتها عن وضع زوزو؛ سنؤجل الحديث عنها لوقت لاحق، لكن كوني حذرة منها. أدركت فرح أنهن فقدن حالة الأمان التي كانت تعم أيامهن، فتلك المرأة المصرية لوحدها كارثة، أما زوزو فالأمر مختلف معها، ويبدو أنها تنعم بوضع مادي جيد لأنها ترفل بالحرائر، وعطرها الذي طغى على المكان لم يكن من النوعية الرخيصة، لكن تلك «العلكة» التي كانت تتشدق بها وتمضغها بتلك الطريقة المستهترة، قد فضحت حقيقة أمرها.

انزوت فرح وسيرينا في غرفتهما، وراحتا تراقبان التحركات والأحاديث. كانت أم جوزيف تملي بعض التنبيهات، والتوجيهات المتعلقة بنظام المكان وما يتعلق بالنظافة وغيرها، حين رفضت

زوزو بشكل غير متوقع أن تتقاسم الغرفة مع عطيات، وطلبت أن تتبادل الأمكنة مع أم صبحي، مما أثار ثائرتها، فرفضت مستغربة كيف تمتلك زوزو الجرأة للإقدام على طلب كهذا!؟

قالت زوزو بطريقة استفزازية:

- إذاً نتقاسم الغرفة أنا والصبايا النواعم.

لمْ تتفوه فرح وسيرينا بأي كلمة وآثرتا الصمت، مما سمح لأم جوزيف بالتدخل:

- أنا لست وصية على الصبايا، لكن ألا ترين أن هناك أماكن فارغة، وما من سبب يدعوك لمضايقتهما؟

أجابتها زوزو:

- إذاً أعطني «بطانية»، وسأنام على السقيفة.

نظرت أم جوزيف باتجاه فرح بوجل، وأجابت بحزم:

- الدنيا برد وكفى! خذي مكاني وأنا وعطيات نتقاسم الغرفة.

- كنت أمازحك، ألم تشتاقي لحركاتي؟، قالت ذلك وهي تحرك يديها وردفيها كغانية محترفة!

ثم توجهت صوب فرح وسيرينا وجلست معهما، فلحقت بها أم جوزيف على الفور متوجسةً، وكانت تسأل الصبيتين عن اسميهما وتهمتهما وعن الوضع بشكل عام. تلقت سيرينا حديث

زوزو بارتياح وكانت تبدو مبتهجة بها، مما أثار حفيظة فرح وريبتها، ولكنها تجاهلت هذا الانطباع وسألت زوزو باستهجان:

- وأنت ماذا عنك؟

أجابتها بطريقة ساخرة:

- أنا فلسطينية، وكنت متزوجة من فلسطيني، لكننا انفصلنا، وعندي ابنة بعمر العشرين، مثلكما.

سألتها فرح:

- فلسطينية؟ من أين؟

- ولم الاستغراب حبيبتي؟ ألم تري فلسطينية شقراء أبداً؟ كانت زوزو تتهكم وهي تتمايل بغنج.

- ليس الأمر كذلك، ولكن لماذا أنت هنا؟

لأن زوجي النذل يريد النيل مني، ومنعي وابنتي من السفر، مما دفعه للإبلاغ عني وإخبارهم أني أريد الهروب بجواز سفر مزور.

- و أنت أردت ذلك فعلاً؟

أجل. لأني من حملة الوثيقة المصرية. قالت ذلك وراحت تخاطب أم جوزيف معاتبة ومحاولة إحراجها

- أين القهوة؟ يا حيف! بالحبسة الماضية تركت لك بالشيء الفلاني.

لكن هيهات، من يستطيع النيل من أم جوزيف فهي معروفة ببديهتها الحاضرة:

• ولك مش عيب عليكي؟ مش بخاطرك تركت هذه الأشياء التافهة، وهيدا أقل شي ممكن تعمليه، وخلي الطابق مستور!

قالت ذلك غامزة زوزو، لتفهمها أن تنهي هذه المهاترة، و« تلفلفها»، لم تشأ فرح أن تضع أم جوزيف بموقف محرج، فتدخلت:

– أنا أقوم بضيافتك، معقول، حللت أهلاً ووطئت سهلاً «نزل السرور بخدمتك».

ضحكت أم جوزيف ضحكة المنتصرة، وأحست أنها ليست وحدها في الميدان.

وضعت فرح القهوة أمام زوزو. ما جعلها تقوم بمناورة أخرى:

– و الله يا صبايا كنت أمزح. أنا والحمد لله وضعي المادي جيد ولست بحاجة إلى شيء.

واضح جداً، لست بحاجة لقول ذلك. قالت فرح ذلك وهي مغتاظة، ثم انفردت بأم جوزيف وسألتها عن عمل هذه الحسناء الجديدة، أجابتها بخجل وارتباك:

– تمتلك مركزاً كبيراً جداً للتجميل.

– وما العيب في ذلك؟

– بصراحة هي تستخدمه لأغراض أخرى!

– لقد توقعت ذلك، هي قوادة أليس كذلك؟

– أجل، لذلك لا أريدها أن تنفرد بك أنت أو سيرينا

لا تخافي علينا، لكني أريد ك أن تخبري عامر، أننا في حالة حصار، ولا نستطيع التواصل الآن.

– لقد قمت بذلك كوني مطمئنة. ولن يطول الأمر على هذا الحال، لكن هناك أمر لا أعرف إن كان يحق لي التدخل به؟

– قولي ما تريدين.

– بالنسبة لسيرينا، عليك مراعاة مشاعرها قليلاً، فالواضح أنها تشعر بالغيرة.

– هي أخبرتك بذلك؟

– ليس بالضبط لكني أشعر أنها تفتقدك كثيراً، ومنذ أن بدأت بمحادثة عامر وهي تشعر بالوحدة.

– لكنها في أغلب الأوقات نائمة، ثم، سيرينا تشعر بالغيرة؟

– أرجوك فرح، لا تفهمي غيرتها بشكل خاطئ، غيرتها ليست منك، بل عليك.

– حسناً، حسناً أفهم تماماً.

حصار داخل حصار، والوضع يزداد سوءاً، ولا مفر، عمري

الذي يختصر كل الخيبات بدأ يترنح من ثقل السكون والانتظار الحارق لموعد ممنوع، أمضيت ليالي معقودة بنهارات باهتة تختلج وجعاً حتى الغيبوبة، أحياناً أردتك معمودية لحريتي لفرحي لنرسم عالماً خارج حدود الزمان والمكان، ها قد حولت صدري إلى زنزانة أحتضن فيها كل الحنين، حبست كل المحيطات في مقلتيّ، خفت عليهما أن تنهمرا ريحاً وعاصفة، وبدل أن تفيضا بالدمع غرقتا في متاهة التقليد، اخترت الهروب لأن التعب قد نال مني عند أعتاب مقصورتك الموصدة.

مرت الأيام ثقيلة الخطى، فرح وسيرينا بالكاد تتبادلان أطراف الحديث حزن فرح على سيرينا ومنها كان يتفاقم، لأنها كانت توطد علاقتها مع زوزو! أما أم جوزيف فقد آثرت الحياد، بعد أن حذرتها مراراً، أما فرح فلم تقف مكتوفة الأيدي، كانت تهاجمها في كل لحظة سانحة، إلى أن أعلنت سيرينا أن لكل واحدة الحق بالقيام بما ترغب به! وأضافت موضحة: أنا لم أقف في وجهك يا فرح حين أردت محادثة عامر! بل لقد ساندتك!

صرخت فرح بصوت متهدج ومجروح:

- أتقارنين انغماسك في عالم زوزو بعلاقتي بعامر؟

وبصوت مبحوح وحزين أضافت:

- ياخسارة يبدو أني أعطيتك من التقدير أكثر مما تستحقين.

ردت سيرينا مجرّحة بتهكم:

- تركنا الفهم والنضج وقوة الشخصية لك أيتها الملكة، كما تلقبك صديقتك الحبيبة أم جوزيف.

- حين تعودين من ضياعك هذا لن تجدي اعتذاراتك نفعاً.

وانسحبت مقررة مقاطعتها والألم يكوي قلبها، حابسة دموعها، كانت أم جوزيف بانتظارها في الممر الخارجي، فأشارت لها أن تجلس بقربها وقالت لها هامسة لتهدئ من روعها:

• لا تحمّلي موضوع سيرينا أكثر من حجمه، لكن الأهم من ذلك الآن، هو أننا نستطيع استغلال أمر يحدث هنا لصالحك، فيصبح بمقدورك التحدث مع عامر.

- ما هو؟ أرجوك!

• زوزو تعرف أننا نستطيع التكلم مع المهجع أربعة، لأنها ذات مرة تحدثت إلى أحدهم، فلا خوف منها، ولكن عطيات هي البلوى، ولكنها وقعت بين يدي!

- لماذا؟ أقصد ماذا فعلت؟

- تتحدث مع السجّان «حسان» من خلف الباب، وكانت تعتقد أنها في مأمن، إلى أن كشفت أمرها، وانكشفت أمامي

- هما من نفس الطينة وليس من المستغرب أن يلتقيا.

- أجل، سيلتقي بها بعد أن تخرج من هنا، لأنه سيعمل لحسابها.

- النذل يبقى نذلاً، متوقع منه أبشع من هذا.

- أريد أن ألفت نظرك إلى مسألة حساسة.

- ما هي؟

- ليس كل العاملين هنا من طينة واحدة، فمنهم من أجبرتهم الظروف، لكنهم حافظوا على طبيعتهم الخيرة والنبيلة.

- أعرف، أعرف، وأعرف أن محمود ممن تعنين، وهو يساعدك كثيراً، لكن كيف سنستغل مشكلة عطيات لصالحنا؟

- دعي هذه التفاصيل لي، عودي للحديث مع عامر بحذر وأنا سأراقب لك الأجواء.

استطاعت أن تصعد خلسة، طرقت الجدار طرقات خفيفة، فأجابها عامر بمثلها، انتزعت الصورة التي غطت بها الثقب، ووضعت الخرطوم، جاءها صوته المتهدج عشقاً:

- اشتقت إليك يا سنونوتي المتمردة، كيف استطعت تخطي المخاطر؟، فأخبرته.

إني مشتاق، حبيبتي إني أرسم لك لوحة أسميتها «نجمة الصبح»، لأنها تشبهك كثيراً، سأتركها لك تذكاراً.

- يا حبيب الروح، حين رأيت لوحتك «الصرخة»، دخلت عوالماً من السحر، واستطعت حينها أن أتلمسك وأهيم في عوالمك.

تعاقبت عشرة نهارات مع لياليها، وكل ما يبحثان عنه: المزيد

من الحياة. قالت:

دعني أغفو على ضفافك كالنعناع البري، لأنك مادمت نهري فلن أتصحر.

قال:

- لا أستطيع أن أعدك إلا بمزيد من الحب، وحين يعلن الشتاء هزيمته سأكون، وفي مساء قريب جداً أقدم قرابيني من الحبق وأزهار اللوز في معابد العشق، وأصليّ كي لا يطول انتظاري.

- لا أستطيع أن أوقف رحيل السماء والنوارس وعبق البرتقال برحيلك، ولا أستطيع أن أطلب منك البقاء، ما من عاشقة استطاعت أن تبتلع تلك الكلمات، أما أنا يا شاعري الحبيب، فعليّ أن أعيش طقوس عشق مغاير، سأقول:

اذهب وعانق الشمس، سأكون في سماء عينيك غمامة، أتنقل في فضائك، لأمطرك أمنيات حبيبة.

كان قد بدأ العد التنازلي، فلم تبق سوى أيام قليلة، ويغادر عامر دهاليز الظلمة، تاركاً وراءه نجمة صبحه. اتفقا على ألا ينقطعا عن التواصل مهما حدث، ولأن الشر متأصل في نفوس البعض، لم يتم ذلك، لأن عطيات، قد أخبرت سجانها بأنهم قاموا بثقب الجدار، وهذا جرم شنيع، وسيكون عقابه فوق التصور! فهذا لم يحدث سابقاً هنا.

ذهب حسان، وأخبر مدير السجن بما عرفه، كانت فرح قد

صنعت عجينة من الخبز والماء، وألصقتها على الجدار وأعادت الصورة مكانها، وفعل عامر ما فعلت. وقررا مواجهة الموقف مهما كانت النتائج.

لكن شيئاً من المتوقع لم يحدث! كانت حيرة أم جوزيف عظيمة! فكيف يعلم مدير السجن بأمر كهذا، ولا يدمر السجن فوق رؤوسهم جميعاً؟ حتى هذه اللحظة لم يعرف أحد سر التكتم على هذا الأمر!، انتظرن جميعهن وجبة العشاء ليفتح الباب، كانت أم جوزيف وزوزو تنتظران بفارغ الصبر وحين فتح الباب ظهر سجان آخر. سألت أم جوزيف «محمود السجان» وهي ترتعد خوفاً من العواقب، عن ردة فعل المدير، فأخبرها مطمئناً أن مدير السجن قرر «لفلفة» الموضوع! مما أثار دهشة واستغراب الجميع، هدأت الحركة في الممر، وابتعد ضجيج القصعات، وذهبن جميعهن إلى غرفة عطيات التي كانت تجلس في الزاوية محاولة الاختباء، لكن أين ستذهب؟ سمعت توبيخاً لم تسمع مفرداته من قبل، وتعرف معنى بعض كلماته!، بينما كانت أم جوزيف تركلها بقدمها، واتفقن على حبسها في غرفتها، فلا تخرج منها إلا للضرورة الملحة. أخذت زوزو ما يخصها من الغرفة، وأغلقن الباب عليها.

لم يطل الأمر طويلاً على هذه الحال، فبعد يومين جاء إخلاء سبيل أم صبحي، فودعنها بفرح مشوب بالحزن، آملات لها الصحة والخير. أما عطيات فقد تم تحويلها إلى سجن النساء،

وغادرت دون وداع. وفور إغلاق الباب، أدارت فرح ظهرها، تهم بالصعود إلى السقيفة، لكن أم جوزيف أوقفتها، ومنعتها مخبرةً إياها أنه قد يكون حول عامر واشين أيضاً! وأن عليها أن تكف عن المخاطرة وإذا كان هناك أمر ضروري، فالحديث عبر المصرف يكون أكثر أماناً. لكنها رفضت الحديث عبر المصرف، واستسلمت، محاولة الاعتياد على غيابه!

كانت جلبة زوزو تعم المكان، وأم جوزيف مشغولة بالترتيب بعد خروج أم صبحي وعطيات، حين فتح الباب ثانية: أم جوزيف تعالي واستلمي. كان السجان يصيح ساخراً مما دفع الجميع للخروج لمعرفة ما يجري.

وقفت خلفه صبية ترتجف خوفاً، ردت أم جوزيف متهكمة:

– شو ها لنشاط، مش عم تهدوا، «ما تتركوا حدا برّه»!

كانت تلك الصبية السمراء المشوقة القامة، تنظر بذهول ورعب شديدين. أغلق الباب وراءها، ثم دخلن غرفة فرح وسيرينا. كانت عيناها معلقتان بعيني فرح، فراحت توجه الحديث لها حين تسأل سؤالاً ما، انتبهت سيرينا لذلك وتذكرت لقاءهما الأول وما تركه من أثر في مسيرة علاقتهما. فرح من الشخصيات الآسرة، تمنح عبر ابتسامتها الفاتنة شعوراً يغرق المرء بالحنين الذي طالما بحث عنه فهي مزيج من الكبرياء والألفة والمحبة، وطغيان العنفوان الذي امتلكته من تآخيها مع

موج البحر، وعورة تجربتها قد زادتها جمالاً والتصاقاً بذاتها المحبة للعطاء والتسامح، الذي كان من أهم صفاتها، فرح تلك العينان الأخاذتان المترعتان بالأضواء، المنبسطتان كحقول القمح في حزيران، تضفيان على شخصيتها الفريدة سحراً غريباً. لقد ارتاحت لها زهية من اللحظة الأولى، فبادرتها الحديث:

– أنا اسمي زهية، وزوجي معي، لكنه مازال في المنفردة.

كانت فرح تدقق بتفاصيل «زهية» والقهر قد تغلبّ عليها، وجهها المصبوغ بألوان قاتمة، ملامحها الضائعة خلف آثار التعذيب، يداها، قدماها المتفسختان، كل هذا، لكن الأوضح كان لون الخوف الظاهر في كل رعشة في صوتها المتهدج، عينيها الذابلتين وخفوت بريقهما.

«كيف ينتقمون ممن رفض أن يكون فرداً من قطيعهم» هكذا كان صوت فرح الداخلي يعلو ليخاطب كل الضمائر وهي تتذكر كل حفلات التعذيب التي عبرت منها منقذة فقط إحساسها بالحياة. أما سيرينا فقد أوقعتها حالة «زهية» في حزن عميق، وذهبت بعيداً عما يحدث في «قفص الترويض»، حضرت بذاكرتها كل الصور التي حاصرتها وقتلت طفولتها وصباها وفرحها، كيف كانوا يداهمون المنزل باحثين عن والدها، مثيرين الرعب والخوف في داخلها هي وأخوتها، مدمرين كل شيء حولهم، محاولين بذلك سحقهم، وعلى الرغم من تصدي

والدتها لهم ومواقفها المذهلة، إلا أن ذاكرة الرعب لا تفتأ تطفو بين الحين والآخر معلنة سطوتها ووجودها.

لملمت فرح شظايا روحها وأرسلت ابتسامة مطمئنة لزهية لتشعر بالقليل من الأمان، جلسن جميعهن حولها.

– ومن غير شر، شو تهمتك يا حلوة؟ لأنو عنا كوكتيل، قالت زوزو ذلك وهي « تتفزلك».

– من «اليسار المعارض»، نظرت أم جوزيف نحو فرح وسيرينا لتستلما الحديث.

علقت زوزو: الصبايا مثلك على ما أعتقد.

امتلك زهية فرح طفولي، ونظرت باتجاه فرح وسيرينا، وقبل أن تنهال عليهما بأسئلتها، سألتها سيرينا:

– ألست جائعة؟ ألا تريدين فنجان قهوة أو«كاسة متة» مثلاً؟

– أريد كل ما ذكرت، لكن قبل ذلك هل بإمكاني استلاف سيجارة؟

ضحك الجميع من تعبيرها «استلاف» وقمن جميعهن بتقديم علب السجائر باتجاهها مع تعليق ودود من فرح:

– عفواً لم نعرف أنك من أصحاب هذه العادة السيئة مثلنا!

أقمن لها احتفالاً بسيطاً، فوضعن على مائدة العشاء كل ما خبأنه لأيام القحط. راحت زوزو تتبجح بأنها تستطيع أن تطلب

لهن من أي مطعم أي وجبة يردن تناولها. استنكرن عرضها، لكنها أصرت وقالت أنها ستطلب وجبات للجميع! فرفضن ثانية عرضها السخي دون تردد، إذ علقت فرح بحزم:

- أنا لا أريد قطعاً، لا تحسبي حسابي، فلقد اعتدت طعام السجن ولا أريد تغيير هذه العادة حالياً.

تضامنت زهية معها فوراً وقالت: شكراً لك يا سيدة، وأنا أيضاً لا أحب أكل المطاعم!

قهقهت زوزو كعادتها، ثم قالت:

هكذا تصطادين أتباعك؟! أتظنين أن مواقفك النبيلة والالتزام والعته الذي أنت فيه سيحقق لك شيئاً! ؟

فنظرت فرح إليها بازدراء وبرود كادا يقتلانها، وما زاد طين زوزو بلّه وما زاد من انفعالها، تعليق سيرينا المباغت:

- أنت من يصطاد في الماء العكر يا مدام! إن كانت فرح قد رفضت الرد عليك فلأنك لا تستحقين ذلك! لكن أنا سأفعل.

لن أسمح لك.

قاطعتها فرح:

- دعيها تتقيأ عفنها أمامنا.

- لن أدعها تعتقد أنها بمالها تستطيع أن تفعل ما تشاء، قالت ذلك بعنفوانها المعهود.

اغتاظت زوزو، وأحست بوجود تكتل مخيف، وهي أصلاً لا تراهن على أم جوزيف، لذلك حاولت إشعال فتيل الفتنة:

- الآن يا سيرينا تدافعين عن فرح! البارحة كانت مواقفك عكس ذلك ماذا جرى؟

ثارت ثائرة سيرينا فعصفت:

- أتحاولين استغلال سوء تفاهم عابر، لا تنسي أننا متفقتان بالمبدأ ونحن صديقتان رفيقتان، ومهما حدث سنحتوي أي خلاف بيننا، لذلك لا تحاولي!

حاولت أم جوزيف تهدئة الموقف، فأخذت زوزو إلى غرفتها وهي ترتجف غيظاً، ثم عادت لتسأل أين ستنام زهية؟

أجابت فرح وسيرينا معاً: معنا طبعاً!

- الآن ستجن زوزو لأننا لم نسمح لها باختيار مكان نومها.

- فلتجن!

كانت فرح تزدري هذه المرأة كثيراً، ليس بسبب مهنتها وطريقة حياتها، بل لأن فرح المولعة بفلسطين، قد توهمت أن جميع الفلسطينيين هم على شاكلة تلك الأسماء اللامعة من مناضلين وأدباء وفنانين، وأحست أن هذه المرأة قد ارتكبت خيانة مزدوجة! قضية الوطن الجريح نسجت حول فرح عالماً مختلفاً عن تصور أطفال جيلها، فاعتبرت أن أي كائن أنتجه هذا الجرح

هو ميزة بحد ذاته. كيف لا؟ وهي التي ساقتها قصائد الوطن المحتل إلى جبل النار، وتلفحت عشقاً بهفهفات حيفا وشاطئ عكا. عادت بذاكرتها إلى مدينتها الغافية على غناء البحارة السمر وسحر أساطيرهم، وانتظار مراكب الدهشة والمفاجآت، كيف كانت تذهب إلى «مغارة الفدائيين»، التي تحولت من كهف بحري إلى رمز حيّ يأخذك إليه حاملاً روحك إلى فضاء العبور لعوالم الجرأة برفقة صديقة العائلة الملقبة بفاطمة الفدائية. كانت تنتظر وتترقب من بعيد، علها تلمح ظل أحد الفدائيين لتسجل لحظتها المستحيلة. تنام على سرير الطفولة الهانئة، لتخبئ عينيها بعتمة الأحلام وتسافر مخترعة قصصاً عظيمة صانعة بذلك عالماً أرادت أن تحقق جزءاً منه. راحت تتذكر كيف كان شقيقها الأكبر و«فاطمة الفدائية» وبعض الأصدقاء في سعي حثيث لتأمين حاجيات «فدائيي المغارة» بسرية تامة لإيصالها عن طريق فاطمة وفرح التي كانت مهمتها تقتصر على المراقبة، وهذا ما كان يزعجها! كانت تريد اقتحام هذا المجهول، وعندما قررت ذلك متجاوزة كل المخاطر والمحظورات عبرت باب المغارة لتدرك بحسرة أن الوقت قد خذلها، فلا أثر لهم!، لقد رحلوا! راحت تتلمس جدران المغارة وتشم رائحتها، ثم غادرت المكان مع دمعتين اختزنتا صورة البطولة والفداء في ذاكرتها أبداً لقد عاشت فرح قصة هذا الشعب الحي التي أغنت ذاكرتها بفكر مبدع وأعمال لا تموت. رحلت معهم في بلاد المنافي البعيدة،

وعادت مع أحلامهم لتجسيد الوطن المقدس بقصيدة تارة أو بحكاية عن بطل غاب بين غصن زيتونة وبندقية تارة أخرى. غنت مع أطفال جنين أهازيج ذاكرة الوطن المسبي، وحملت مع شبان الجليل شعلة الثورة.

تساءلت زهية بدهشة:

– زوزو فلسطينية؟؟

أجابتها سيرينا بحسرة:

– للأسف! بعدها أخبرت سيرينا فرح وزهية الكثير عما عرفته من تفاصيل عن حياة «زوزو»، فهي لم تدمر حياتها فقط، بل وحياة ابنتها والكثيرات غيرها!

هدأت تلك الليلة بعد أن تحاورن مطولاً في مواضيع سياسية تتعلق بأحوال التنظيمات والأحزاب وعن تجربة حزب العمل الشيوعي تحديداً. كانت سيرينا خلالها تدافع عن وجهة نظرها بشراسة، تصل حد العدائية أحياناً، لأن زهية كانت تنتقد التجربة بطريقة جداً منطقية لا تستطيع معها سيرينا إلا أن ترد بالجنون والغضب، لأن كل ما قالته زهية كان حق، إلا أن التعلق العاطفي بكل تفاصيل التجربة رغم الأخطاء الفادحة التي ارتكبت وأودت بحياة الكثيرين وضيعّت سنوات طويلة من حياة عدد كبير من الناشطين والكوادر في المعتقلات جعل سيرينا تثور للدفاع وبشكل غير منطقي وغير عقلاني، أما فرح فقد اكتفت

بالاستماع أغلب الوقت والتدخل حين ترد معلومة خاطئة فقط لتصحح، لأن فرح أيضاً كان لها رأياً ﴿ ذلك كانت ترى كل الأخطاء وتنتقدها، لذلك اتجهت نحو مسارها الخاص وعملها ضمن الخلية التي شكلوها «هذه هي ضريبة العمل السري»، ملاحظة كانت تنوه بها دائماً فرح ﴿ مجمل أحاديثها، كما أن بطش النظام لعب الدور الأكبر، لذلك كان هناك من الضحايا الذينْ لا علاقة لهم بالعمل السياسي عدد كبير دفعوا ضريبة مجانية دون قيامهم بأي فعل. طال الحديث لدرجة وصلت حد المهاترة أحياناً، كان جدلاً لا نتيجة مرجوة منه لأنه لا يخضع لمعايير الحوار، انفضت الجلسة ولم يتفقن إلا على القليل القليل! علماً أن الضريبة التي دفعها شباب حزب العمل الشيوعي وعائلاتهم وأصدقاؤهم كانت أكبر من الحديث عنها.

﴿ الصباح استيقظت فرح على صوت سيرينا وأم جوزيف تناديان عليها، فاستغربت أن سيرينا مستيقظة على غير العادة، وأم جوزيف لا توقظ أحداً إلا لأمر هام، مما دفعها للنهوض بسرعة وسألت:

– أية مصيبة قد حدثت؟

كانت زهية قد استيقظت وجاءت تسأل بدورها.

– تعالي فرح وانظري، قالت سيرينا وهي تبتسم

كانت أم جوزيف تبتسم هي الأخرى. نظرت فرح من ثقب

الباب.. لم تعرف المدة التي قضتها وهي تحدق، لكن نشيج روحها هو ما دفع بالصبايا لإبعادها عن الباب. بعد أن نظرت زهية ورأت اللوحة المنتصبة ﴿ الممر سألت عن السبب الذي يدعو فرح للبكاء.

أجابتها سيرينا:

– العشق مؤلم فما بالك بالعشق السجين؟

وسردتا القصة لزهية، التي امتلأت ملامحها بالإعجاب والدهشة، اقتربت سيرينا من فرح ممسكة بيديها وسألتها:

– أنت لا تبكين مغادرته القريبة فقط، بل ذاك الإهداء الجميل بتوقيعه على اللوحة.

لم تستطع الرد عليها، لأن مئات الغصّات كانت تتجمع ﴿ حنجرتها، كانت تبكي ذاك العطاء النادر الذي أعادها إلى أبعد وأنبل ما ﴿ الذاكرة، كيف كانت أمها تفتح صدرها لتحتويهم ما استطاعت، وهي تقف أمام نبع عطائها مذبوحة ألماً، ولا تعرف رداً، مهما حاولت ومهما فعلت. وها هو عامر يعتصر روحها من حدّة الوجع الناتج عن هذا المنح والحب الذي لا ينتظر مقابلاً. بعد أن هدأ نشيجها قليلاً عادت، وأمعنت النظر ﴿ نجمة الصبح وراحت تدقق ﴿ ذاك التوقيع البديع، توقيع بأول حرفين من اسميهما، يحتويان بعضهما بشكل غاية ﴿ الروعة. أعادت قراءة تلك الألوان المتدرجة عبر ألوان الأزرق، لتنتهي

بالاستماع أغلب الوقت والتدخل حين ترد معلومة خاطئة فقط لتصحح، لأن فرح أيضاً كان لها رأياً في ذلك كانت ترى كل الأخطاء وتنتقدها، لذلك اتجهت نحو مسارها الخاص وعملها ضمن الخلية التي شكلوها «هذه هي ضريبة العمل السري»، ملاحظة كانت تنوه بها دائماً فرح في مجمل أحاديثها، كما أن بطش النظام لعب الدور الأكبر، لذلك كان هناك من الضحايا الذين لا علاقة لهم بالعمل السياسي عدد كبير دفعوا ضريبة مجانية دون قيامهم بأي فعل. طال الحديث لدرجة وصلت حد المهاترة أحياناً، كان جدلاً لا نتيجة مرجوة منه لأنه لا يخضع لمعايير الحوار، انفضت الجلسة ولم يتفقن إلا على القليل القليل! علماً أن الضريبة التي دفعها شباب حزب العمل الشيوعي وعائلاتهم وأصدقاؤهم كانت أكبر من الحديث عنها.

في الصباح استيقظت فرح على صوت سيرينا وأم جوزيف تناديان عليها، فاستغربت أن سيرينا مستيقظة على غير العادة، وأم جوزيف لا توقظ أحداً إلا لأمر هام، مما دفعها للنهوض بسرعة وسألت:

- أية مصيبة قد حدثت؟

كانت زهية قد استيقظت وجاءت تسأل بدورها.

- تعالي فرح وانظري، قالت سيرينا وهي تبتسم

كانت أم جوزيف تبتسم هي الأخرى. نظرت فرح من ثقب

الباب.. لم تعرف المدة التي قضتها وهي تحدق، لكن نشيج روحها هو ما دفع بالصبايا لإبعادها عن الباب. بعد أن نظرت زهية ورأت اللوحة المنتصبة في الممر سألت عن السبب الذي يدعو فرح للبكاء.

أجابتها سيرينا:

- العشق مؤلم فما بالك بالعشق السجين؟

وسردتا القصة لزهية، التي امتلأت ملامحها بالإعجاب والدهشة، اقتربت سيرينا من فرح ممسكة بيديها وسألتها:

- أنت لا تبكين مغادرته القريبة فقط، بل ذاك الإهداء الجميل بتوقيعه على اللوحة.

لم تستطع الرد عليها، لأن مئات الغصّات كانت تتجمع في حنجرتها، كانت تبكي ذاك العطاء النادر الذي أعادها إلى أبعد وأنبل ما في الذاكرة، كيف كانت أمها تفتح صدرها لتحتويهم ما استطاعت، وهي تقف أمام نبع عطائها مذبوحة ألماً، ولا تعرف رداً، مهما حاولت ومهما فعلت. وها هو عامر يعتصر روحها من حدّة الوجع الناتج عن هذا المنح والحب الذي لا ينتظر مقابلاً. بعد أن هدأ نشيجها قليلاً عادت، وأمعنت النظر في نجمة الصبح وراحت تدقق في ذاك التوقيع البديع، توقيع بأول حرفين من اسميهما، يحتويان بعضهما بشكل غاية في الروعة. أعادت قراءة تلك الألوان المتدرجة عبر ألوان الأزرق، لتنتهي

بالأبيض الشفاف، تتوسط اللوحة فتاة تلبس ثوباً مزركشاً بألف حكاية فارسية، بدت كملهمة الشعراء، تنقلك عبر أثير هادئ، إلى ضجّة اللجة المتاحة بآفاق لا تنتهي. تبوح لك بآهات البكاء السري في سراديب الحب الممنوع، وتأخذك بعيداً، تفتح لك بوابات مدائن الأساطير. بأداء دقيق استطاع اختراق المألوف، وباحٍ بخلجات النفس.

المشهد الثاني

كان عامر قد سخّر ريشته ليسّر لفرح بعضاً من توقه ورغبته في التوحد معها. امتزج بألوانه ليسطر بأبجديته الخاصة أهازيج مختلفة للتوق والوله المجنون قالت له يوماً:

- كيف تستطيع أن تحمل الريشة بيد والبندقية بيد؟

ولأنه المنفي من وطنه، ترك على سياج الورد لعبته الصغيرة، خبأ حلمه في عباءة جده القديمة، ترك صليبه على جدار الكهف في بيت لحم، قبلّ حجارة البئر ونرجسه البري وغادر مع الغمام الأزلي، تاركاً باب البحر مفتوحاً ليكتب قصيدته بمفردات جديدة. صاحَبَ الوعر والريح ودروب الرعاة السرية، عانق بندقيته ليغسل قمحه المسبي بدمه. خبأ صوته، ليصرخ في الأزمنة، ويشق السماء معلناً قدوم الأنبياء الجدد الملثمين بالصمت والنار والثأر، «فالبيت لنا والأرض لنا».

كانت منظمة التحرير قد بشرت بالقيامة، ولكن على أرض غير أرضها. هدف المنظمة بكل فصائلها كان واحداً ألا وهو

ضرب العدو أينما كان. ولأن الجبهة الشعبية كانت الأكثر تعبيراً عن أفكار عامر فقد انخرط في صفوفها، وانسجم مع تطلعاتها. صار كادراً من كوادرها الفاعلين، والقيمين على التدريب «المهمّاتي» للعمل الخاص، وهم من يعرفون باسم «رجال وديع حداد». بذل من دمه وحياته وعاش حلم إثبات الهوية الفلسطينية في العالم.

الوكالة اليهودية آنذاك استحوذت على الرأي العام في العالم مبررة احتلالها فلسطين على أنها «أرض بلا شعب» مستخدمة كل ما أتيح لها، بدءاً من محارق النازية المزعومة، وصولاً إلى التهديد العربي بإلغاء وجودها، في الوقت الذي لم يسمع فيه أي صوت عربي يناهض الادعاءات اليهودية أو على الأقل يؤكد حق الفلسطينيين في وطنهم، لذلك كان على الفلسطينيين المواجهة وحدهم لإثبات هويتهم للعالم، وإسماع صوتهم، وإظهار ما ارتكب بحقهم من مجازر وتشريد وانتهاك لإنسانيتهم. ما دفع بالجبهة الشعبية لاستخدام أسلوب الكفاح المسلح كوسيلة للنضال تستطيع بها مجابهة الآلة العسكرية والإعلامية. ولأن وديع حداد كان أحد مؤسسي الجبهة فقد حمل على عاتقه وبعض رفاقه مسؤولية البدء بممارسة هذا الأسلوب في الردعلى ممارسات الاحتلال اليومية. بعد اغتيال وديع حداد في ظروف لازالت غامضة، استمر الرفاق بالعمل على خطاه مؤمنين بجدوى هذا الشكل من النضال في زمن المد الثوري والتحرري في العالم.

عامر الفدائي، ودّع على درب النضال الكثير من الرفاق الأشداء الاستثنائيين، مما أكّد إصراره على تحقيق هدفه في العودة وتحرير كامل التراب. لكن المؤامرة كانت أسرع في وضع حد لمسيرة نضاله، وتم اعتقاله في معسكر الموت الأصفر حيث يشن حبّ الأرض حرباً ضروساً، لتقاوم وتنتصر على ضعفك، متسلحاً بالذاكرة الجميلة، والقادم المأمول.

في ذاك المعتقل، بعد أن قضى وقتاً طويلاً في الزنزانة تم نقله إلى المهجع رقم خمسة، الذي كان يحوي خليطاً غير منسجم من الأشخاص بتهم مختلفة، من معتقلين سياسيين من كافة الأطياف، وموقوفين بتهم اقتصادية، وبتهم تجارة المخدرات وتهم تجاوز الحدود اللاشرعي، إضافة لأجانب بكل أنواع مخالفاتهم، بدءاً من انتهاء مدة الإقامة حتى التجسس. سلسلة لا تنتهي من التهم تنتظر أن تلبس أحدهم.

حين دخل عامر إلى المهجع، تملكته الدهشة من العدد القابع بين جدرانه، طاف المكان بنظرة سريعة، وحاول أن يجد لنفسه موطئ قدم فلم يستطع. إلى أن أتى «أبو كنان» وأخذ بيده إلى ركنه الخاص، وعرف عن نفسه وسبب وجوده «الانتماء لإحدى تيارات اليسار المعارض»، مما أثلج صدر عامر، فعرّف عن نفسه هو الآخر، وجلسا بمودة، وأخذ أبو كنان على عاتقه مهمة تعريفه على أجواء المهجع وقوانينه، انتبه عامر لوجود الأصوليين الإسلاميين الطاغي، والذين كانوا يشكلون مجموعة مترابطة

من أبرز أفرادها المدعو «أبو التوت»، هكذا أشار أبو كنان موضحاً وتابع ما اعتبره مهمته الذي كان يؤدي طقوسه رغم ضيق المكان، واللافت فيه أنه يدعم حديثه البعيد عن المنطق بآيات قرآنية وأحاديث للرسول بعد كل جملة، ليؤكد للمجموعة قوة إيمانه من جهة، وليفرض سيادته من جهة أخرى. كان أبا التوت يحاور أبا كنان كلما سنحت له الفرصة، لكن أبا كنان كان في كل حوار يظهر له هشاشة منطقه، وضعف حجته، مع العلم أنه من أصول مسيحية وشيوعي قديم، فقد كان مثقفاً، ومطلعاً على تاريخ الديانات عموماً، وعلى الكتب السماوية والقرآن خصوصاً. كان هناك العديد من المتهمين بالتجسس والعمالة، وكانوا يشكلون مجموعة متضامنة، مما دفع عامر للاشتباك معهم أكثر من مرة، لولا تدخل أبي كنان طالباً منه الهدوء، وتخفيف حدة غضبه قائلاً: ليس هنا! ليس الآن!.

كان الحوار بين أبي كنان وعامر رفيعا ومثمراً وخلاقاً، أخبره أبو كنان أنه رأى له لوحة أو «بوستر» في أحد المجلات الفنية العالمية، وقد أعجبته كثيراً، وأحب ما كتبت عنه المجلة. لم تدم إقامة عامر طويلاً في المهجع رقم خمسة، إذ تم نقله إلى المهجع رقم أربعة، لكن الفترة القصيرة التي قضاها مع أبي كنان كانت كفيلة بأن تمتن جذور الصداقة بينهما، وبقيا على اتفاق أن يلتقيا في الحرية، كما كان يحلم عامر. أحس بأنه يغرق أكثر في هذا البئر المظلم، لكنه تمسك بحلمه ليساعده

على النهوض من عتمته. راح يقترف الحياة بشكل يومي، ينظر إلى الوجوه ولا يرى إلا الاستكانة والاعتياد على الموت. لقد كانوا خليطاً مختلفاً عما رآه في المهجع السابق، هناك الأكراد بتهم مختلفة واللبنانيون من تنظيمات متعددة إضافة للعملاء أو الجواسيس، كما كان هناك السوريون المتلبننون مسيحيون قاتلوا مع قوى لبنانية مسيحية، والفلسطينيون من كل الفصائل، وأتراك وأفارقة، وكأنه مهجع للأجانب والعرب غير السوريين. كان عامر جالسا يستقري الوجوه، حين سمع عزف بزق حزين، نظر إلى مصدر الصوت فرأى ذاك الشاب نيروز، يحتضن البزق ويعزف أغاني لكردستان. ذهب باتجاهه بدافع لا واعي، وكأن الآلام تتوحد في بوتقة النغم، وتغفل عن كل شيء، إلا كونك إنساناً عارياً من كل الوثائق والإثباتات والحدود والأقاليم. كان يستمع بأذن الفنان العاشق. كقمر يتيم، كان يجلس ويسترجع ذكريات مؤلمة ومفرحة. يسافر مع النغم الحزين بعيداً، هناك حيث عبق الزعتر البري، والطيون وأزهار اللوز، يعتلي سحب الكرمل، ويرتحل مع ريح الجليل ليصل شواطئ صيدا، فتعبق ذاكرته برائحة البارود والدم.

أطرى على عزف الشاب، وأدهشه وجود آلة موسيقية في هذا المكان، فأخبروه أنها صناعة محلية، تم صنعها من خشب صناديق الخضار السحاحير، أما الأوتار فقد تم تهريبها بين أغراض إحدى الزيارات. انتبه عامر لوجود شاب كان ملاصقاً

له طوال فترة العزف، فاعتدل بجلسته وأخذ يتحدث معه بعد أن عرّف عن نفسه لكن «فاضل» بعد أن قدّم نفسه لعامر، أراد منه أن يتقاسم معه المكان، لأنه لم يجد مكاناً له بعد. سأله عن أي مكان؟ فأجابه أنه يحتل السقيفة لوحده، فرح عامر بكرمه، لكن فاضل لم يعرف ما دفعه للقيام بذلك، ربما أحب طريقة انسجامه مع العزف، فكل تفصيل في جسمه كان يبوح بمعنى مُختلف للألم، ذاك الحزن القابع وراء العيون، تلك الرعشة التي تتملكك، لا بداعي البرد، بل جراء تلك المشاعر التي تجتاح مساحات الذاكرة المغمورة برماد النسيان.

بعد أن استقر في مكانه الجديد لم يكن معه شيء من احتياجاته الشخصية ليضعها في مكانها، راح يستطلع حيثيات المكان، ويراقب من علو، ورأى أن بعض المعتقلين يملكون أشياء ممنوعة ومحظورة، بعد تساؤلات كثيرة مع ذاته، ومع فاضل اكتشف أنه يستطيع اقتناء ما يريد بعد أن عرف أنّ هناك إمكانية لفتح قناة سرية مع بعض الحراس، مما يمكّن المعتقلين من إدخال أشياء ممنوعة، وليس مستغرباً وجود مثل هؤلاء الحراس، فهم أناس مثلنا، والبعض منهم يتكتم على مشاعره، فلا تظهر إلا في بعض المواقف الحرجة والبعض منهم كان له أقارب أو أصدقاء أو معارف اعتقلوا. والبعض منهم مرت عليه أهوال المعتقل، ورأى ما لا يحتمل، مما شكل في اللاوعي ردة فعل رافضة ومكبوتة. لكنهم قلة، وليس من السهل التواصل معهم، أو

اكتشافهم، فلا بد أن تكون الثقة عالية، فهم لا يمنحون ثقتهم لأي كان، بل هي مقتصرة غالباً على المعتقلين الوطنيين، فهم مثلاً يرفضون التعاطف مع أصحاب تهم التجسس والعمالة. أما من تبقى منهم وهم الغالبية، فقد تحولوا إلى آلات صماء تدربت على القتل واغتيال الإنسان، والتلذذ بتعذيبه والنيل من كرامته وسحقه. كانوا يعتبرون أن أي شخص مختلف عنهم أو يخالفهم الرأي عليهم إلغاؤه وإنزال أشد العقوبات به. عمل من دربهم وصنعهم على سقف تفكيرهم عند حد معين بحيث لا ينقلبوا عليه إذا ما استعملوا ما تبقى من أدمغتهم. التقط عامر بسرعة تلك الخطوات التي تتم فيها عملية إدخال الأشياء الممنوعة، وكيف يتم التمويه عليها، وعرف السجّانون المتعاونون. تحدث مع فاضل عن إمكانية إدخال أدوات الرسم، فأخبره بضرورة التحدث مع «أبو أحمد » شاويش المهجع، الذي تعقد عن طريقه تلك الصفقات، وكان الأمر. خدم الحظ عامر هذه المرة، وفي صدفة غريبة بعد أن شاع خبر وجوده في فرع فلسطين، وكان أحد ضباط التحقيق يسأل عمن يتقن الرسم من المعتقلين، فأخبروه عن وجود عامر عندهم، أمرهم على الفور منهم أن يطلبوا منه رسم مشروع تخرج لخطيبته، وأطلعهم على التفاصيل، وحين تم إخبار عامر عن المشروع وافق على الفور لأنها فرصة ستبرر وجود أدوات الرسم بحوزته، وهذا كان رأي فاضل والشاويش أيضاً.

أحضروا له ما أراد من أدوات وكان هناك موعد محدد

لتسليم اللوحة، ابتهج عامر رغم استغرابه من التناقض الفظيع في شخصيات هذه الوحوش التي تتحكم بمصائر شعب، كيف يلغون حقه في التفكير والحياة في وقت، ثم يلتمسون طلب كهذا وكأنه اعتراف بوجودك وقيمتك، ما هذه المسوخ القبيحة التي تآمرت كل تفاصيل الحياة معها لتكون سيدة على حياتنا وأحلامنا.

باشر عامر بعمله فوراً، غاب في العمل وأبدع، أنجز عمله واحتفظ بما تبقى من ألوان وفراش للرسم وخبأها، سلمّ اللوحة، لكن كلمة شكر واحدة لم يرسلها الضابط وكأن هذا الأمر من واجباته القومية والوطنية ولزاماً عليه خدمته سأله الشاويش عن عدة الرسم ماذا سيفعل بها؟ أخبره عامر أنه يريد استخدامها لذلك احتفظ بها، لكن الشاويش بادره بتساؤل آخر عن كيفية تأمين ثمن الأدوات لاحقاً، لأنه يمنع حمل الأموال داخل المهجع أو أي شيء آخر عدا الثياب. فسأل عامر عن إمكانية اتصال السجان المعني بشخص ما في الخارج، فأجابه الشاويش بالإيجاب، شرط أن يكون هذا الشخص مأمون الجانب. أخبره عامر أنه يستطيع الاتصال بصديق له، وهو صاحب مكتبة مختصة ببيع أدوات وحاجيات الرسم، وكل ما يتعلق بالفنون والآداب.

ذهب السجان محمود إلى مكتبة الكرمل، وسأل عن صاحبها غيفارا. غيفارا صديق عامر الحميم والخاص جداً- توجس من

سؤال الشاب قليلاً وسأله عن طلبه، فأجابه محمود بأنه بعث من قبل عامر في المعتقل. فوجئ غيفارا بحديث الشاب لأنه وكل رفاقه، فشلوا في معرفة مكان عامر. الآن وبهذه البساطة يأتي أحدهم ويقول أنه جاء من قبله! التبس عليه الأمر وراح يسأل الشاب أسئلة أراد منها الوقوف على حقيقة الأمر. وحين أجاب «محمود» عن أسئلته، وأخبره أنه يعرف شيئاً يدل على صدقه، وهو أنه يوجد عنده لوحة تدعى عشق لم يشاهدها أحد غيره وهي عمل غير منتهٍ بعد.

هنا أمِن غيفارا جانب محمود، وليؤكد محمود قوله أكثر أخبره أن عامر يقول لك

- يلعن الأشياء كلها!

قهقه غيفارا وانتشى، فشكره، وأحضر له ما يحتاج إليه عامر، والدهشة تلفه، فما حدث قلب كل الموازين في عملية البحث عن عامر، وراح يحدث نفسه ويضحك، يلعن الأشياء كلها يا أبو عمير: سجان، رسم، ألوان، ومعتقل، كيف تمتلك تلك القدرة على إحداث هذا الفارق وأنت هناك؟

بعد أن ودّع غيفارا السجان وحمّله الكثير من الهدايا لأطفاله، ذهب على الفور إلى أسرة عامر ليخبرهم بما حدث، وما عرف عن وضع عامر دون التطرق للتفاصيل حفاظاً على وضع السجان وسرّيته. كان وقع الخبر على أسرة عامر عاصفاً ومربكاً، وبعد

أن قام غيفارا بتهدئة والدة عامر انزوت في غرفتها الخاصة، وأنارت شمعة، راحت تصلي، وتطلب من يسوع ووالدته، وكل القديسين أن يقفوا إلى جانب ابنها الحبيب في محنته هذه. أما شقيقتي عامر الجميلتين جان دارك ويولا، فقد كانت ثقتهما بغيفارا عالية جداً، لأنه كان يمثل الأخ الثاني لهما، كما أنه كان صديقاً وذا مكانة خاصة في حياتهما. لقد اقتنعتا بكلام غيفارا:

- عامر بخير وعرفنا أين هو الآن.

وهدأتا على أمل أن يستطيع العم إلياس إيجاد طريقة لزيارته في أقرب وقت، خرج غيفارا من منزل أسرة عامر، ذاك المكان الذي كان له ميناءً للهموم والحنين. تدخل حديقته الصغيرة فيحتويك عطر زهر الليمونة التي تحتل زاوية الحديقة، وتلقى عناية خاصة من والدة عامر، وعلى درب مرصوف بحصى صغيرة تزين جوانبه زنابق من كل الألوان، وأزهار المنتور والحبق، يفتح المنزل بابه لتستقبلك خريطة فلسطين على مساحة الجدار المقابل للبوابة، خريطة لم تغفل أصغر قرية من الناقورة إلى رفح ومن حيفا إلى طبريا. تدخل فسحة الاستقبال المرتبة بأيدٍ أنثوية أنيقة، فتلفت نظرك أعمال فنية تحمل توقيع عامر، من لوحات زيتية ونحتية متربعة في أماكن تدل على اعتزاز أهل المنزل بهذه الأعمال. كما تجد أعمالاً فنية أخرى لفنانين عالميين، ولوحات تخص أصدقاء لعامر، توزعت الأعمال محيطة بصورة الأب الغائب الحاضر أبدا بطرس حداد -الأسير الشهيد- بنظرته

الفريدة، التي تعيدك إلى دربك، إن عرف اليأس طريقاً إليك.

باقي غرف المنزل تحمل طابع الخصوصية، فغرفة الوالدة تكاد تكون كنيسة صغيرة، يتوسطها سرير منمنم ومزركش بأعمال يدوية رائعة بطابع فلسطيني تغطي السرير، الذي قبع إلى جانبيه مقعدان وثيران من خشب السنديان العتيق. وفوق الأريكة في الجهة المقابلة يوجد رف للشموع، وصليب صغير، وفوق الرفّ صورة ليسوع المصلوب، وبجانبها صورة لأمه العذراء. كانت والدة عامر تقضي أوقاتاً طويلةً في غرفتها. تصليّ لتحمي عائلتها من أي خطر. بجانب هذه الغرفة، غرفة شقيقتي عامر، تحوي سريرين مرتبين، ومزركشين أيضاً بأعمال يدوية. وفيها طاولتين للدراسة وخزانة للملابس ومكتبة صغيرة تحوي الكتب الخاصة وبعض الأعمال النحتية الخشبية المهداة من عامر لشقيقتيه، ويزين الجدار فوق السريرين صورة كبيرة لعامر وهو يضم شقيقتيه بحنان أبوي.

تصل غرفة عامر عبر ممر صغير مزين بلوحات صغيرة، وأحواض أشجار الزينة، تدخلها فتشعر أنك في عالم آخر، يجمع بين حنين الماضي وآمال الحاضر وتطلعات المستقبل وكأنها متحف لإرث الثقافات، إذ تحتلّ معظم أرجائها مكتبة غنية ضخمة تحتضن أروع ما كتب في الأدب والفن والفلسفة والتاريخ والسياسة. تلك المكتبة التي عني عامر بإغنائها لتكون منهلاً يستفاد منه، وتتحول بذلك إلى كنز نادر مطعَم بفسيفساء الفكر

أن قام غيفارا بتهدئة والدة عامر انزوت في غرفتها الخاصة، وأنارت شمعة، راحت تصلي، وتطلب من يسوع ووالدته، وكل القديسين أن يقفوا إلى جانب ابنها الحبيب في محنته هذه. أما شقيقتي عامر الجميلتين جان دارك ويولا، فقد كانت ثقتهما بغيفارا عالية جداً، لأنه كان يمثل الأخ الثاني لهما، كما أنه كان صديقاً وذا مكانة خاصة في حياتهما. لقد اقتنعتا بكلام غيفارا:

- عامر بخير وعرفنا أين هو الآن.

وهدأتا على أمل أن يستطيع العم إلياس إيجاد طريقة لزيارته في أقرب وقت، خرج غيفارا من منزل أسرة عامر، ذاك المكان الذي كان له ميناءً للهموم والحنين. تدخل حديقته الصغيرة فيحتويك عطر زهر الليمونة التي تحتل زاوية الحديقة، وتلقى عناية خاصة من والدة عامر، وعلى درب مرصوف بحصى صغيرة تزين جوانبه زنابق من كل الألوان، وأزهار المنتور والحبق، يفتح المنزل بابه لتستقبلك خريطة فلسطين على مساحة الجدار المقابل للبوابة، خريطة لم تغفل أصغر قرية من الناقورة إلى رفح ومن حيفا إلى طبريا. تدخل فسحة الاستقبال المرتبة بأيدٍ أنثوية أنيقة، فتلفت نظرك أعمال فنية تحمل توقيع عامر، من لوحات زيتية ونحتية متربعة في أماكن تدل على اعتزاز أهل المنزل بهذه الأعمال. كما تجد أعمالاً فنية أخرى لفنانين عالميين، ولوحات تخص أصدقاء لعامر، توزعت الأعمال محيطة بصورة الأب الغائب الحاضر أبدا بطرس حداد -الأسير الشهيد- بنظرته

الفريدة، التي تعيدك إلى دربك، إن عرف اليأس طريقاً إليك. باقي غرف المنزل تحمل طابع الخصوصية، فغرفة الوالدة تكاد تكون كنيسة صغيرة، يتوسطها سرير منمنم ومزركش بأعمال يدوية رائعة بطابع فلسطيني تغطي السرير، الذي قبع إلى جانبيه مقعدان وثيران من خشب السنديان العتيق. وفوق الأريكة في الجهة المقابلة يوجد رف للشموع، وصليب صغير، وفوق الرفّ صورة ليسوع المصلوب، وبجانبها صورة لأمه العذراء. كانت والدة عامر تقضي أوقاتاً طويلةً في غرفتها. تصلّي لتحمي عائلتها من أي خطر. بجانب هذه الغرفة، غرفة شقيقتي عامر، تحوي سريرين مرتبين، ومزركشين أيضاً بأعمال يدوية. وفيها طاولتين للدراسة وخزانة للملابس ومكتبة صغيرة تحوي الكتب الخاصة وبعض الأعمال النحتية الخشبية المهداة من عامر لشقيقتيه، ويزين الجدار فوق السريرين صورة كبيرة لعامر وهو يضم شقيقتيه بحنان أبوي.

تصل غرفة عامر عبر ممر صغير مزين بلوحات صغيرة، وأحواض أشجار الزينة، تدخلها فتشعر أنك في عالم آخر، يجمع بين حنين الماضي وآمال الحاضر وتطلعات المستقبل وكأنها متحف لإرث الثقافات، إذ تحتلّ معظم أرجائها مكتبة غنية ضخمة تحتضن أروع ما كتب في الأدب والفن والفلسفة والتاريخ والسياسة. تلك المكتبة التي عني عامر بإغنائها لتكون منهلاً يستفاد منه، وتتحول بذلك إلى كنز نادر مطعَم بفسيفساء الفكر

والآداب الأجنبية. لقد كانت رحلته مع كل هذه الثقافات جديرة بالوقوف والتأمل لأنه امتلك القدرة على تطويع كل ما وقع تحت يديه من تجارب فكرية وأدبية. لقد شذّب رؤيته الفنية بما علقّ على جدران عكاظ، وعرّب تجارب الفكر المترجم بما يتناسب مع واقعه ومتطلباته، لا لتكون تلك التجارب ألواحاً محفوظة لا تمس ولا تعاد صياغتها، بل استخلص من تلك الكنوز جواهر فريدة أنارت له دروباً معتمة وتسلحّ بها لتحفظ خصوصيته وتطوره المطرد. تترك المكتبة لتطالعك أعمال عامر الفنية الموزعة بشكل عفوي جميل وقد أصبحت جزءاً من المكان. هناك في الزاوية بين المكتبة والسرير عمل نحتي خشبي لامرأة تلتف بوشاح وقد ظهرت ثناياه وتفاصيله الدقيقة بكل إتقان وحرفة. وبجانبه عمل زيتي متوسط الحجم، لرجل يعض أرضاً جدباء مضاءة بابتسامة طفل يطل من زاوية اللوحة. أما فوق السرير فيوجد عمل زيتي كبير لعاشقة فتية على شاطئ مدينة ساحلية، تنتظر بحس مراهق وصول أشرعة بانت في الأفق، ألوان هذه اللوحة تمنحك إحساساً عارماً بالحرية. وبجانب الأريكة طاولة صغيرة عليها بعض الكتب ومسجلة، بجانبها رفوف خشبية متعددة. احتوت على أشرطة كاسيت والتي لم تكن إلا رحلات للروح في عوالم الموسيقى المتناغمة مع فكره المعبر عن أحلامه وذكرياته، رقصاً لهمهمات النبضات المتجاوبة مع وقع الفصول.

سيراً فوق الماء، وصعوداً على متن النغم إلى أبراج الضياء،

آه يا عناوين الأشياء، من أين لك بالاسم؟ إن الاسم يفقدك معنى ارتحال الريح على صفحات الأخضر الممتد بلا عنوان، بلا دليل، فقط نجمتين كرقيب لحالة تيه ودلالة لمن أضاع درباً.

تخرج من الغرفة مغموراً بالسحر وعبق التاريخ والفن لتدخل محترف عامر فتجد فيه مرسماً خشبياً وبجانبه تظاهرة فوضوية من الألوان ولوحات غير منتهية تتوزع هنا وهناك. وفي إحدى الزوايا كانت هناك بعض الأزاميل والمشارط وعدة النحت وبعض جذوع الزيتون والكينا المنتظرة أن تكون عملاً متكاملاً. يفضي المرسم إلى حديقة خلفية فيها شجرة دفلى كبيرة، وياسمينة تتسلق النافذة وتمتد إلى سور الحديقة، وشجرة رمان ناضرة، وأحواض صغيرة زرعت فيها شتلات النعناع والزعتر، وبعض الورود.

ابتلع غيفارا دموعه، أغلق باب الحديقة وراءه، وسار في الطريق المؤدي إلى مكتب الجبهة الشعبية، ليلتقي بالعم الياس وهو الشقيق الوحيد لوالد عامر، دخل المكتب وألقى التحية على الرفاق، وانفرد بالعم الياس في مكتبه الخاص، وأخبره بأنه عرف مكان عامر، والجهة التي اعتقلته، اتفقا على مقابلة شخص يستطيع التواصل مع تلك الجهة الأمنية، ليتمكنوا من زيارته بشكل دوري، فمن الضروري مقابلة عامر بسرعة لأنه الوحيد القادر على إخبارهم بحقيقة وضعه. لم يغب عن ذهن غيفارا أن يأخذ عنوان السجان محمود، لذلك انتظر إلى أن

أرخى الليل سدوله وذهب قاصداً داره. لم يكن السجان يتوقع مثل هذه الزيارة، استقبل غيفارا بارتباك ودهشة، اعتذر منه غيفارا، وتمنى عليه أنه أن يبلغ عامر بأن الأهل سيقومون بزيارته قريباً، حين يوصل له أدوات الرسم. كان غيفارا قد أحضر لأولاد محمود بعض الهدايا، وعرض عليه مبلغاً من المال، لكن محموداً تمنّع بتردد! أوصل محمود لعامر ما طلبه، وأخبره بما طُلب منه.

ذهب عامر إلى مكانه الخاص على السقيفة، وراح يتفحص الأشياء ويدقق فيها، كان كل ما يحتاجه موجود، إلا القماش. راح يفكر بطريقة للحصول عليه.!

مطر يراقص نافذتي المنسية، إذ لا وردة حمراء تُتّرك على حافتها، ولا أنفاس عاشق تدغدغ نقاء زجاجها، مراكب تطوف في فضاء التيه، والقلب سجين الذاكرة، لكنّ نجم السماء ينثر بذور ألحان غجرية، وقصاصات ملونة تدعوك للفرح.. فانهض وابحث عن أبجدية الأوطان بين أصابعك، وأطلق لنشيد ألوانك العنان، لم تعلمنا دروس التاريخ سوى الهروب والبحث عن أوطان في بلاد غريبة، غافلين عن أقحوان السهول. يا هذيان صمتي المحموم توقف، لأني الآن سأكتب نشيدي الجديد لأغنيه مع بيارات يافا، وورد الشام، وبحارة صيدا، وجميلات بيروت، وأرصفة القدس، ليعلو صوت النشيد معانقاً سماوات بعيدة.

أفاق عامر من شروده على صوت فاضل يسأله:

- أين وصلت؟

- مازلت هنا!

كانت تدور الكثير من النقاشات والحوارات بين عامر وفاضل حول قضية الأكراد كقومية لها مقومات الأمة والحق بالوجود كان عامر يجد الكثير من التقاطعات بين القضية الفلسطينية وقضية الأكراد، وكان متعاطفاً معهم وإن أختلفت الرؤى والأساليب، ولأنه عامر العربي والأممي، كان يناصر الأكراد ويؤيد حقهم في تقرير مصيرهم. كانت تنساب الريشة فوق قطعة الحرير البيضاء وقد بذل جهوداً جبارة للحصول عليها، بإقناع أبي حمود الكردي الإسلاموي المنبوذ بالتخلي عن -جلابيته- واستبدالها ببنطال وقميص، حيث قسمها لعدة لوحات ألوانه. كانت تتمايل نشوى، مبددة عتمة الوقت، فاتحة شراع التحليق فوق مكان كاد أن يكون قبراً. بحر متلاطم الأمواج تكسرت فوقه آلاف الأنات والصرخات القادمة من آفاق دامية، كإعصار خرج من اللجة الأبدية بملامح أنثوية صارخة بوجه الأزمنة، متحطمة على الجرف الصخري العتي.

ترك لوحته جانباً وقد لف أصابعه الحنين الذي حوله إلى كتلة من المشاعر الجياشة، وهبط إلى الأرض منتظراً محمود السجان، وفتح باب المهجع لاستلام وجبة العشاء، حينها تناثر المعتقلون وتفرقوا ليصبح بمقدور الباب أن يفتح، وأشار محمود لعامر أن يأتي إليه، فذهب إليه بسرعة، فأخبره أن صديقه غيفارا

عرض عليه مبلغاً من المال، لكنه رفض لأنه يخاف، واستطرد محمود: من الأفضل أن يحضر لي شيئاً لا يثير حولي الشبهات. لم يكن عامر مهتماً بالموضوع برمته لكنه سأله: وماذا تفضل أن يكون هذا الشيء؟ أفصح محمود عن رغبته باقتناء تلفزيون ملون، فوافق عامر على الفور دون تفكير، لأن ما كان يشغله أهم من هذا بكثير. قال له: لك هذا، لكن قبل أن تذهب أريد أن أعرفُ منك تفاصيل أمر يهمني ويشغلني، تلك الفتاة التي لاقت من التعذيب ما لا يحتمل، والبارحة عادت من التحقيق وربما كانت مشلولة، وكان دمها ينفر من كل أنحاء جسمها، من هي؟ ولماذا هي هنا؟ امتنع محمود في البداية عن الإجابة، لكنه تذكر التلفزيون، فأخبره أنها تدعى فرح، وهي من مدينة ساحلية.

- لكن ما سبب وجودها هنا؟

قال محمود بحذر:

- ساخبرك، لكن دع الكلام بيننا، هي شيوعية معارضة، وقد جاءت مع العشرات، وهم موزعون في المنفردات والمهاجع، وهي في المنفردة الاولى.

- أتمنى أن تهتم بها.

- لكني لا أستطيع، أضاف محمود هامساً:

لأنها في المشفى وفي العناية المشددة أيضاً، ويقولون أن وضعها الصحي خطر، وقد لا تخرج حية.

كاد عامر أن يختنق من وقع هذا الخبر، ولم يعرف كيف سيخبئ دموعه.

سأل محمود: لكن ما سر هذا الاهتمام،

- هل تعرفها؟

- لا اعرفها لكن صوتها كان يمزقني كل يوم، وكنت اراقبها، كلما استدعوها للتحقيق، وانتظر عودتها، أرجو أن تخبرني بكل ما هو جديد.

أغلق محمود الباب والحزن بادٍ عليه، وعاد عامر لمكانه كملك مهزوم! غاب في استكانة طويلة، عيناه مترعتان بالغضب، وقبضته مشدودة تكاد شرايينها تنفجر. حاول فاضل أن يكلمه، لكنه تراجع، وتركه ليهدأ.

هل تجرّأ أحد وحدق في ذلك الطنين البعيد؟ أخيلة تعبر موانئ أخيرة، تغادر غرفتها المعتادة، وتحلق في مدارات البقاء، لكن ليلي مسربل بالضجيج، واعتقادات فاجرة بأن وجهكِ يلغيه الغياب، ها هي أصابعي تحوم في عوالمك، تحيل سكون الموت لنبض حي، لا تمعني في الرحيل، إني هنا، خذي نبض قلبي، وعودي كموج يعانق أجنحة النوارس، عودي ماردة متمردة كي نطأ بأقدامنا وجوه من أرسلوك للموت.

كان يعيد إحياء الألوان في لوحته غير المتناهية بإصرار من تشبثَ بالحياة الحلم، مركزاً جلّ تفكيره في نقطة محورية

ومركزية، هي عودة فرح، رافضاً فكرة موتها أو غيابها. ضربات ريشته على قماش اللوحة اللاواعية، كانت تنبئ بثورة مختلفة، على كل ما هو ضد الإنسان. وظفّ كل حواسه وطاقته العصبية ليتواصل مع روحها، ليمدها بقوة تعيد لها الحياة. حين جاءه فاضل كان مستغرقاً في عالم الألوان، مبحراً في فضاءات النقاء الروحية بين العتمة والنور، كان وجهها يظهر صارخاً، وهو بين التصُديق والنفي، كيف استطاع ذلك؟

كجدول ربيعي رقراق انسابت ملامحها ومعانيها وغيابها وعودتها. كان فاضل يقف مشدوهاً لا يعرف ما سيقول، وكأن أبراجاً زجاجية قد تحطمت وسمع دويها، وصلت صرختها عابرة الدهاليز وأبواب الحديد ومستنقعات الموت، دافعة بالخوف والتسليم والاستسلام بعيداً، متلفحة بجرأة الألوان وانبعاثات روح الفنان المصرة على الحياة من جديد.

- وكأني أسمع صوتها، جاء صوت فاضل خفيضاً متهدجاً.

قطع عامر نشيده اللوني والتفت إليه، لكنه لم ير إلا أطيافاً، انتظر قليلاً ليسترجع قدرته على الرؤية، وابتعد عن اللوحة ليرى ما استجد عليها:

- يجب أن أتركها قليلاً لتنشف حتى أستطيع متابعة العمل بها.

- لكنك تستطيع أن تضعها في الممر الخارجي تحت المراوح،

إذا طلبت ذلك من محمود سيوافق، قال فاضل ذلك وهو فرح لأنه استطاع أخيراً أن يتبادل بعض الكلمات مع عامر.

هبط الاثنان إلى أرض المهجع، كان نيروز يحتضن البزق، ويعزف، ويرافقه أبوزغروس بصوته الشجي. وأبوزغروس هذا، شاب كردي يتمتع بشخصية متوازنة مليئة، كان منفتحاً على الثقافات الأخرى، ومتمسكاً بقوميته، وحلمه في تحقيق الدولة التي تحتضن كل أبنائها على اختلاف أعراقهم وانتماءاتهم، ولأنه مولع بالتصوير الضوئي، وفنان مبدع، كان يشترك مع عامر، فيغرقان في كثير من الأحاديث المتعلقة بالفن وغيره.

أومأ لعامر أن يشاركهم الجلسة، فاتجه عامر وفاضل نحوهم وبعد قليل وافاهم «فاروق عمر»، وهو تركي من والدة كردية، ورجل أعمال واسع الثراء، وقد اعتقلوه بقصد الاستيلاء على أمواله، بحجة أنه يدعم أحد فصائل المقاومة. كان مهتماً جداً بالرسم، لأنه يفهم عالم اللون وإسقاطاته. هذا ما جعله ميالاً جداً لعامر.

لاحقاً رسمه عامر وهو يعزف على البزق ويغني وأهداه اللوحة، وقد أخذها معه حين خرج وكان فخوراً جداً بها. جلس بقربه، واستأذن من نيروز أن يسمح له بالعزف، وغاب في اللحن التركي الحزين، وغنى بألم طغى على مفرداته ومشاعره وقسمات وجهه، كان صدى الألم يحفر عميقاً في نفوس من يستمعون، وكل منهم غاب في عالمه الخاص وأحزانه وهمومه وذكرياته.

إلا أن عامراً كان غارقاً في عالم غجري التكوين، يلج أبوابه السرية، يحث الخطى ليسترجع من أصبحت تمثل له زرقة السواحل، وآفاق أجنحته السجينة، يهيم، يبحث عن بؤرة الضوء ليجدل من مفردات الشعاع قمراً لنافذتها، وحدها تستطيع أن تدغدغ ابتساماته. يحث الخطى ليسترجع من كانت تعين السماء علي التجمل، والأقحوان على النهوض. هي التي استطاعت في غفلة من الوقت أن تسكنه، كان يسألها: هل ستأتين؟ إني أنتظر قيامتك، لأن رياح الغياب أتعبتني ونيرانه قد أدركت حقولي.

- لو كنت تؤمن بيسوع ويجب عليك ذلك، لكان أعانك في محنتك هذه!

كان عزيز يوجه حديثه إلى عامر محاولاً مساعدته أولاً، والقيام بمهمته التبشيرية ثانياً. ضحك عامر من هذا القطع الفجائي لاسترساله الحالم، وأجابه:

- وهل مساعدته مشروطة؟

- ليس الأمر كذلك لكنك مسيحي، وعليك التوحد مع يسوع والإيمان به، هناك من هم من ديانات أخرى آمنوا بيسوع وأحبوه، فكيف أنت؟

- أرجوك أن تدعني وشأني، لأني لست بحاجة لإله لأعيش ذاك السلام الداخلي الذي تتحدث عنه، وأنا لا أريد أن أجرحك، لأني أحاول جاهداً ألا أنال من مقدسات أي كان.

كان عامر يأمل أن ينتهي هذا الجدل عند هذا الحد، لكن عزيز أعرب عن رغبته في خوض أي نقاش، وبأي مفردات، حتى لو كانت جارحة، مع تأكيده على أن مشاعره تجاه عامر لن تتغير.

- أعذرني لا أريد إثارة مثل هذا الحوار معك فأنت تعرف موقفي. أجابه عامر بحزم

- أنا أعرف أنك متشدد حيال أي قضية وطنية، ولكني نادم، نادم جداً!

كنت مراهقاً وهربت من خدمة العلم إلى لبنان، تلقفتني منظمة مسيحية متشددة مستغلة إيماني المطلق بالمسيح. لعبوا على هذا الوتر وأقنعوني بأنهم حماة الكنيسة والدين. لم أفهم اللعبة إلا بعد أن انزلقت قدمي وتورطت، وتملكني الخوف من العودة، لم أكن وحدي، هناك الكثيرون مثلي، لكن من عرفتهم من البلد هما حنا وغابي، وكلٌ له أسبابه، لكن ما قد حصل لم يغير شيئاً من إيماني واعتقادي.

- وهل يوصيك إلهك بالتعامل مع عدوك والقتال إلى صفه؟

تحدث عامر بمفردات بسيطة وسهلة لأن عزيز كان آشورياً ولغته العربية ركيكة قليلاً ويصعب عليه فهم مفردات معقدة وفصيحة.

- أنا معك في كل ما تحاول قوله، لكني فهمت ذلك متأخراً.

- للأسف، لكن لا عليك، فأن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي أبداً.

فتح محمود السجان باب المهجع، مما أجبر عزيز وعامر على قطع الحديث، كان الشاويش أبو أحمد يتحدث معه في أمور تخصّ المهجع، لكن محمود كان ينظر إلى عامر، ويبتسم بين الفينة والأخرى، مما أثار شكوك عامر، ودفعه للذهاب إليه.

تركهما الشاويش وحدهما، لم يكن عامر يتوقع في هذه اللحظة أن يبشره محمود بعودة فرح من المشفى، وبأنها تتعافى، وقد تجاوزت مرحلة الخطر. لم يصدّق الخبر، وأحس بأن صمتاً هائلاً قد عم المكان، وبأنه صار حراً. أفلتت من أعماقه صيحة فرح عارم، وبحركة عفوية قبلّ عامر محمود السجان، وعانقه وراح يخاطبه:

- كم أنت جميل، كم أنت جميل ورائع، أنت لا تعرف ما معنى هذا بالنسبة لي!

أراد محمود أن يقدم له مزيداً من الفرح، فأخبره أنهم لم يعيدوها إلى زنزانتها بل أصبحت هنا، وأشار إلى مهجع النساء.

- غير معقول! هذا خبر تستحق عليه مكافأة كبيرة.

انضم إلى فرحته فاضل، ثم طلب من محمود أن يضع لوحة عامر في الممر لتنشف، اعتذر محمود كثيراً لأن وضع السجن في ذلك الوقت لم يكن يسمح، فقد كان مدير السجن وبعض الضباط ينزلون كبسات، درءاً لأي تجاوزات.

حين تركهم محمود وأغلق باب المهجع اتجهوا على الفور إلى

المجموعة الخاصة بهم، فأخبرهم فاضل بما استجد، لأنهم جميعاً كانوا ينتظرون عودة فرح بلهفة، تعاطفاً معها، ومع عامر، حتى يخرج من اعتكافه وعزلته. انفرد عامر بالشاويش أبي أحمد، إذ كان يعرف أنه يتواصل مع أم جوزيف، وطلب منه أن يبلغ فرح عن طريقها رغبته في الحديث معها. مرت أيام عدة، أنهى فيها عامر الرتوش الأخيرة في لوحته الصرخة، فوضعها محمود في الممر لتنشف، بعد أن تجاوز مخاوفه، فقد كان معجباً بها أيضاً مثله مثل الآخرين.

استطاعت أسرة عامر زيارته أخيراً، جاءت والدة عامر وشقيقتاه، ولم تكن زيارة خاصة، بل تمت من خلف القضبان، استطاع عامر خلال الزمن المتاح إخبار الأهل عن وضعه بشكل وجيز ومكثف، والاطمئنان على عائلته بالمقابل، كانوا قد أحضروا له بعض ما يحتاجه، كما استطاعوا إخفاء بعض الرسائل بين ثنايا الملابس، وتهريب بعض الأدوات الدقيقة داخل الحاجات، سألوا بعض من مروا بهذه التجربة، فأفادوهم عما يحتاجه المعتقل عموماً، ولم يغفلوا عن وضع مبلغ بسيط من المال، دسوه مع الرسائل، كما وضعوا له مبلغا في الأمانات عند مدير السجن نزولاً عند رغبة عامر، لكن عامراً طلب من أهله طلبا خاصا جداً، عجبوا له!

سألته الوالدة:

- وما حاجتك لملابس نسائية؟

- أحتاجها، يوماً ما ستعرفين، وهي ليست كثيرة إنها فقط - بيجاما- ولتكن رياضية، وبدل خارجي واحد وبنطال وقميص بقياس أختي جان دارك، أرسلنها عن طريق غيفارا، وبلغّته سلامي. ها قد اقتربت من الحرية، لم يبق الكثير من الوقت.

قالت له يولا بغنج الأخت الصغرى:

- أجل إني أترقب ذلك بفارغ الصبر. لكن كيف سأنتظر ثمانية أشهر؟ لن استطيع، إني مشتاقة لك كثيراً.

نظر إليها بحنو الوالد والشقيق، وداعبها بحركات مألوفة بينهما.

لم تنسَ الأم وصاياها الخاصة، كالاعتناء بصحته والاهتمام بغذائه والتخفيف قدر الإمكان من التدخين والغضب، والتي تلقاها عامر بابتسامة سمحة، وتوجه إلى جان دارك بحديثه طالبا منها إهمال أي شيء والتفرغ لدراستها قال لها:

- أريد أن أخرج وأراك قد تخرجت من كلية الهندسة المدنية، أرجوك حاولي اجتياز هذه العتبة بنجاح واهتمي بيولا لأن هندسة المعلوماتية مرهقة دراسياً، حاولي مساعدتها ودعمها وتذكري أن عيوني تحيط عالمك لتحميك.

ثم قبل والدته وعانق شقيقتيه وهن يغالبن الدمع. غادرن، وهن تاركات قلوبهن الدامية في القفص!

نزل عامر إلى مهجعه بعد أن فتشوا «زيارته»، ونهبوا منها

ما أرادوا من سجائر ومأكولات. وكان مرتاحاً لأن رؤية الأهل قد أزالت عن صدره صقيع غياب دام سنتين وأربعة أشهر. وزع الأطعمة والمأكولات على أفراد مجموعته، وصعد إلى السقيفة ليتفقد الألبسة، وراح يبحث عن أماكن الرسائل، فوجدها، كانت جان دارك ويولا قد كتبتا كل التفاصيل والأحداث التي جرت خلال فترة غيابه، فعرف ما لم تستطع العائلة إخباره إياه خلال الزيارة. كما وجد رسالة من غيفارا يبثه أشواقه وتحياته الحارة، ويخبره أولاً عن أمور الجبهة والتطورات التي طرأت والتغيرات، والقليل عن أخباره الشخصية، كما أخبره أن العم الياس عاد إلى الجبهة وإلى موقعه القيادي. وأنه يبلغه سلامه الحار ويعتذر عن عدم تمكنه من زيارته هذه المرة.

بعد أن اطلع على كل الأوضاع من خلال الرسائل استقر وضعه النفسي وهدأت روحه قليلا، انتبه أن رفاق مجموعته في المهجع ينادونه فهبط إلى الأرض، وجدهم قد حضّروا مأدبة للاحتفال به لتهنئته بزيارة الأهل بعد كل هذا الزمن.

ملوخية وأرز، لبن حقيقي، محاشي بكل الأنواع، مسخّن، وهو من أهم الأطباق في المطبخ الفلسطيني والكثير من التشكيلات اللذيذة من الأطعمة الخفيفة.

- آه أمي ما أجملك!

قال عامر ذلك وأقبل على الطعام بنهم، كحال من كان

يشاركه الطعام! كان عامر حريصاً على توزيع الطعام على الجميع بطريقة عادلة غير غافل عن تخصيص طبق مشكل للسجان المناوب. أحس عامر انه منذ أزمان سحيقة لم يعرف مذاق الطعام الحقيقي، شعر بسعادة، وأراد أن يشاركه الجميع هذه السعادة، وتمنى لو كان باستطاعته أن يرسل لفرح بعضاً مما حصل عليه، لكن محمود السجان لم يكن موجوداً.

نداءات بعيدة توقظ كل ما فيّ، تورق عيني بانبعاثات تواقة لحصاد جديد، أنتظر أن تفتحي أبوابك للشمس، للريح، لا تمنحي من أراد انكسارك فرصة الانتصار؛ لكن شمسي مهاجرة، لا، أنتِ من تغلقين نوافذك، يا أنت، يا سيدة الوقت، إن الريح تدفع بأشرعتك نحو موانئي، فتعالي ليخضر قلبي، يا شدو الناي في لياليّ الحزينة، اقتربت منه وتغلغلت في أعماقه، واحتواهما الحب والفرح، تعاهدا على الحياة. أقسما بدموعهما بالبحر بالأرضو بأشجار الزيتون، بماء الجداول، أطيافاً من نور متشحة بأزهار البرتقال، تلفهّما بغبطة إلهية. كان يمطر حدائقها شعرًا قبلاً، ومواعيد مسائية خارج تكتكة الوقت، وهي تضاجع طيفه بين الحلم والحقيقة، تسمح لأصابعها أن تسرح في سهوب الصدر قطيعاً من الغزلان، كانا يهربان خلف الأزمنة جسداهما يضجان حباً وجنوناً وشبقاً، يتنقلان في الأمكنة منصهرين بتكوين مستحيل، يضمّها بحنين مهاجر.

عاد ليملأ رئتيه برائحة التراب المشبع بأمطار خريفية

تنزلق يده على الجسد البض الصاخب شوقا تداعب ما نهد وانبسط بفرح طفولي وجنون عاشق يقبل حدود الشفة السفلى، ويدفن رأسه في أدغال الرأس العبقة بأريج الكينا والنارنج وزهر البرتقال. يهمس لها:

– فرح تعالي إلي، بكل ما فيك من مقدسات، فأنا زنديق يريد حين يدخل معبدك أن يرتقي إلى عتبات ألوهيتك! أنتِ، أنتِ لا احد سواك.

يجيبه جسدها:

– أن املأ مساحاتي، فالشوق لرائحتك الصنوبرية كاد يقتلني.

عانقها ذهبا إلى حيث تسكن الألوان الأبدية ظلالاً غسقية تميل بسحر مراكب فينيقية، تذهب بحثاً عن سرٍّ آخر صخب الأزرق واللازوردي، وشفاه بلون العقيق تلتهم النهد المشتعل شوقاً، مجيبةً نداءات الجسد المفتون، يتخاطبان عبر الجدار ويغادران كل يوم مستنقع الموت، مرتحلين إلى أماكن مختلفة لا تعرف الفصول، يشربان نخب الحب والحرية والحياة. إلى أن استفاقت يوماً على وقع الرحيل، ورفضت، وصرخت محطمة أسوار الحديد، هز صوتها أعمق أعماق المعتقلين والحراس، وبكى كل من معها بكاءً حاراً حارقاً.

يا حبيبي لا تذهب، خذني معك، احتويني كما كنا نفعل كل

ليل، خذني معك، أستطيع أن أتحول إلى ورقة خيط في قميصك، خذني معك. كانت تضرب باب الحديد بقوة هائلة، وتصرخ في الجدران، لم يجرؤ أحد من الحراس أن يتدخل ويوقف بكاءها، لم يكن بكاءً، كان انهياراً، موتاً حقيقياً.

عامر في الممر واقفاً مسمّراً يرفض الرحيل. يبكي ألماً وحقداً. اجتمع كل القيمين على إدارة السجن محاولين إقناعه بالخروج، لكنه تحول إلى صخرة لا تتزحزح، وهي داخل الجدران، خلف أسوار الحديد تصرخ كمن فقدت وليدها.

يا حبي الغالي لا تذهب، ابق معي، خذني إليك. صار صوتها يضعف، يضعف، ثم غابت. البعض اعتقد أنها ماتت، لكن زهية -صديقتها الغالية- أدركت أنها فقدت الوعي، نبضها كان بطيئاً جداً. هرعت سيرينا وأم جوزيف وحتى زوزو إليها، حاولن إنعاشها وإيقاظها دون جدوى.

صعد عامر إلى مكتب مدير السجن، ليفاجأ بأن سبيله لن يخلى، بل يوجد قرار بنفيه خارج الحدود، إلى لبنان. وكان هذا بمثابة الضربة القاضية، شعر بعدها بأنهم قد أجهزوا عليه نهائياً. دار حديث صاخب وتساؤلات محرجة صفعت مدير السجن الذي كان أضعف من أن يجيب عليها، فالقرار ليس له، بل هو قرار من سلطة أعلى، لا يقدر إلا أن يخضع له. غادر عامر السجن مكبلاً بالحديد، يرافقه أكثر من عشرة عناصر مدججين بعتادهم الكامل، ليتم تسليمه لإدارة الهجرة

والجوازات. كان عامر يعرف البعض من العناصر المرافقين، والذين أبدوا مشاعر الحزن والتعاطف معه. ففي النهاية تطفو الإنسانية فوق كل الترهات التي تحكم العالم وينسى الآخر فئته وطائفته وموقعه، منقاداً وراء هذه المشاعر التي تتخطى كينونته.

كيف يستطيعون قتلي مرتين؟ إنها أكثر من جريمة، أنا من قاتل لاسترجاع زهوة ألوان الربيع، من أجل أغنيةٍ ترندحها خناجر الطفولة المغتصبة. كان عامر يتحدث بحرقة، لكن ما من أحد تجرأ على الرد، واكتفوا بالصمت، مطرقين بخجل، وربما بلا مبالاة، وصلوا إلى دائرة الهجرة والجوازات المعنية بتنفيذ قراراتٍ كهذه، كان يوجد العديد من المكبلين المنتظرين ساعة ترحيلهم من مختلف الجنسيات في العالم. تم تسليم عامر وقرار نفيه، وبذلك تكون المهمة قد تمت. تركوه وغادروا.

بعد ساعات من الانتظار، جاءت دورية من الشرطة، استلموا قرار نفيه من مدير الهجرة وتأكدوا من وضع الأصفاد في يديه وانطلقوا باتجاه لبنان، رافقه ثلاثة من الشرطة المدنية، وقد طلب منهم بلا حرج أن يدعوه وشأنه، عارضاً عليهم مبلغاً من المال، لكنهم رفضوا خوفاً، ثم حرروه من الأصفاد وابتاعوا له السجائر تعاطفاً، فلا حيلة لمأمور جَزِع!، وصلوا الحدود اللبنانية، فتركوه عليها، فجن جنون عامر، وصرخ في وجههم: كيف سأدخل الأراضي اللبنانية بدون وثائق؟ صاح، وشتم، أجابه احدهم: ابن الثورة ولا تعرف كيف تقطع الحدود!

- الآن أصبحت ابن الثورة يا ابن العاهرة!

وقف عامرا متأملا سيارتهم وهي تغادر، راح يلعن ويشتم، ثم هدأ وجلس على حافة الطريق، واستطلع المكان، وهو العارف بكل تفاصيله، وقرر النهوض وعبور الحدود، واستطاع ذلك.

سلك درباً ترابياً محاذياً لما يسمى بالخط العسكري، ولم ينتبه له أحد وقد خدمه الحظ بذلك. حين دخل الأراضي اللبنانية أحس بالحرية وبجمال الأشياء. استقل سيارة تكسي قاصداً بيت أحد الأصدقاء في البقاع الغربي، فوصل إلى منزل عدنان، في بلدة جب جنين الغافية على سفح الباروك العظيم والقابعة على ضفة الليطاني. طرق الباب فاستقبله فتىً بالصراخ:

- بابا، بابا؛ عمّو عامر، عمّو عامر.

عانق عامر زياد الذي تركه طفلاً، وحين التقت عيناه مع عيني عدنان، أخبرت الدموع الطافرة ما تعجز عنه الألسن. استقبلته ماجدة -زوجة عدنان- بفرح جنوني، استفسرت عن سبب غيابه وعن سبب نحوله واصفراره؟

- كنت عند الجماعة، وقد خرجت منذ ساعتين.

- تم نفيك خارج البلد أليس كذلك؟

- أجل.

وسرد لهم ما حدث معه منذ بداية اعتقاله في لبنان عند

إحدى الجهات الفلسطينية التي سلمته بدورها إلى جهاز أمني وبقي سنة ونصف ثم نقل إلى «عنجر» وبقي خمسة أشهر وما تبقى من السنوات الثلاثة كانت في البلد.

وبينما هم يتناولون الطعام استفسر عامر عن وضع الجبهة في الساحة اللبنانية، بينما كان يحضن زياد ويداعبه، هذا الطفل الذي تولع به منذ ولادته.

- المشكلة أني بقيت وحدي، ماذا كنت تتوقع مني أن أفعل؟ هذا هو الواقع والكل يروج للسلام.

- هذا الإستسلام الذي يروجون له، ليس إلا فرصة أخرى للعدو ليتمدد ويتفشى دون رادع، هذه الأكاذيب الكبيرة، كيف يصدقها العالم، لا أعرف!

- البندقية لم تقدم لنا حلاً كما يزعمون، لنرى ماذا ستفعل لنا «طاولات الحوار».

أنهى عامر الحديث بمغادرته المائدة وخروجه إلى الحديقة. كان عدنان وماجدة يحضران أمر بقاء عامر عندهما، انتبه عامر للأمر فأخبرهما بأنه سيغادر اليوم، استنكرا الأمر ورفضاه، لكن عامراً بقي مصراً، ودخل مع عدنان في جدل طويل.

- إن كان من أجل الأهل، اتصل الآن بالوالدة وأخبرها بخروجك ووجودك هنا، وهي تأتي إليك.

- من الخطورة أن تذهب، ستتعرض لاعتقال ثانٍ.

تدخلت ماجدة:

- لن أسمح بتعريض حياتك للخطر!

لم يجد عامر مفراً من إخبارهم عما استجد في حياته:

- هناك من ينتظرني، إنها فرح! وقد تركتها في حالة انهيار تام.

اختلط الحزن بالفرح، فعامر وجد أخيراً حبيبته الضائعة، وهو منفي، وهي تكبلها القيود!

قال عدنان:

- أنت مختلف واستثنائي في كل ما يحدث معك!

كيف ستتدبر أمر الإقامة؟ مؤكد أنك لا تستطيع الإقامة عند الأهل.

- لنتصل بغيفارا، قاطعت ماجدة

- و لكن كيف سنخبره؟

قطع عليها عامر سلسلة تساؤلاتها قائلا:

- إن غيفارا على علم بكل شيء، لقد استطعت التواصل معه.

- و لماذا لم يخبرنا؟ جاء لزيارتنا وحاولنا معا البحث عنك ولم نصل لشيء.

قال عدنان ذلك وهو يمسك بجهاز الهاتف للاتصال بغيفارا.

تم الاهتمام بكل التفاصيل وترتيب الأمر بحيث يبقى عامر بأمان. أوصله عدنان إلى أخر نقطة يستطيع الوصول إليها، وهي بلدة تدعى حلوة، فتودعا على أمل اللقاء في البلد بعد بضعة أيام. قطع عامر الحدود سيراً على الأقدام عبر الجبال إلى حيث سيكون غيفارا بانتظاره في نقطة تم تحديدها على الطريق العام الأوتوستراد الدولي. سار عامر عابراً الطرق الترابية الوعرة حتى أحس أن قدميه تتمزقان، كانتا تنزفان، لأنه منذ ثلاثة أعوام وهو في حالة سبات، كابر على ألمه وتابع السير، قطع دير العشاير وينطة، عيتا الفخار، تذكر كيف كان يقطع هذه الدروب مع الرفاق، وكيف كان الوعر يلين تحت أقدامهم، والجبال تتسابق لملاقاتهم. لكن بعد غيابهم عن الساحة حدث هذا الفراغ. خواء ولا جدوى، اتسعت هوة الانقسامات. راحت تطفو على السطح وجوه أثرياء الحرب الذين استلموا دفة اللعبة وتاجروا بكل ما وقع تحت أيديهم، بالهواء وبالإنسان وبالقضية. حتى الشواطئ لم تسلم من مقاولاتهم.

وصل عامر إلى مكان أحس أن رائحة الهواء قد تغيرت، كانت تأتي مع النسائم رائحة عفن عضوي واضحة، تشبه رائحة جثث متفسخة، تنبعث من كهوف الطحلب الذي اعتاد الظل وتآلف معها، فنسيت الأشياء خصوصيتها ولم يعد لبياض الياسمين معنى. أدرك انه يكاد يصل وطن المنفيين من الحياة، المقتولين

بسوط اللاقانون، المسبيين في حرب لم تحدث، ولن تحدث. هناك حيث يصادرون أمانيك وابتسامتك، مطلقين وحوشهم المستذئبة بحثاً عن دم جديد، ليغتالوا فرحك في أوكار السلطة المطلقة لأجهزة الأمن المتعفنة.

احتاج عامر الكثير من الوقت ليستعيد عبر ذاكرته ما يدعو القلب للابتهاج، بإحياء لون الأعياد، لتكون مواسم فرح مطلق. حين تجن الأرض خصباً على وقع أغاني صبايا القطاف حين يتكئن على الأحلام، مسافرات مع أنشودة العشق. يحررن ضفائرهن، ويسرحن مع همسات الليل الدافئة أطيافاً من نور. لكن أسراب الجراد التي اجتاحت الحقول والغيطان، طبعت الذاكرة بلون اليباس، وظل طنين الموت سيد الأصوات.

آه يا وطني، كم من الأحلام خبت هناك عند أعتاب دور المراهنات على مصائرنا. راح عامر يدندن بشجن:

شآم أهلوك أحبابي وموعدنا أواخر الصيف آن الكرم يعتصر.

المشهد الثالث

اشتقت إليكِ، اشتقت، اشتقت، وما أخّرني إلاّ حرّاس الطرق إليك إلى وطني. كان هذا مطلع الرسالة التي أحضرها محمود السجان من عامر وسلمها لفرح.

صرخت، ركضت، جنت، ولكن كيف؟ أجابتها الرسالة على كل تساؤلاتها: كيف عاد من لبنان في نفس اليوم سيرًا على الأقدام، وهو الآن يقيم في مزرعة أقرباء غيفارا، والأهل يترددون عليه بحذر، وكذا غيفارا وبعض الأصدقاء.

استلّ من الأمكنة فسحة ليكون بقربها، استنطق الاحتمالات واستهواه أنين الموج، ذاق احتراق الدمع وسفر الوقت، جلس على خاصرة الزمان، أعاد ترتيب خرائطه ولم ير حدوداً لمداه، اتسعت دائرة آماله، تجاوزت حدود الأقاليم، امتدت لتحيط الكواكب، ظل يبثها أشواقه وانتظاره على مرافئ المواعيد

المنشودة. يا ابنة الشمس، لم أقم الصلاة يوماً، ولم ادخل معبداً قط، لكني الآن قد عكفت عن إلحادي، وعدت أتلو قداديس الشوق والتوق لمساءات حالمة، أبحر فيها معك مغمض العينين. نتبادل وميضا سحرياً كإجهاش طويل، أشرب كأسي، أقطع المسافة إليكِ متمسكا بخيوط لفافتي، أهوي في وادي عجزي وأتكئ على ما تبقى مني، أمعن النظر ولا يسعني إلا الانتظار. لقد قتلني الشوق، اقتربي فقلبي أبى إلا أن يحتويك.

كانت فرح تهيم في عالمها المسحور، كيف استطاعت أن تجد خلاصها وحلمها في مكان تقتل فيه الروح قبل الجسد؟ سيرينا وزهية كانتا خائفتين عليها، وسؤال واحد يتردد في حواراتهما: ماذا بعد؟ ماذا بعد الحب؟

- حب، تجيب فرح بطريقة حالمة.

- افترضي أن فترة اعتقالنا قد طالت، ماذا سيحدث له؟ ليس من حقك أن تأسريه بهذه الطريقة.

- و هل الحب أسر؟ لماذا تفترضان السوء دائما؟

- نحن لا نريد لك إلا الخير، لكن فكري بالمدة التي ستقضيها هنا، هو من حقه أن يعيش حياته.

- مهما طالت فترة السجن، ستنتهي يوما.

- لا تكوني أنانية، انت تعلمين انه من المرجح ان يتم تحويلنا الى محكمة أمن الدولة.

ما هذا الكلام؟ لم ألق من صديقتيّ إلا المواقف السلبية! أنا لا اطلب منكما شيئا، حتى الدعم المعنوي لا أعوِل عليه مع إني وقفت بجانب كل واحدة دون الرجوع إلى تفسير تصرفها أهو خطأ أو صواب، ثم ماذا؟ أخائفتان أن أصاب بخيبة أمل؟ سيتزوج؟ سيرتبط بأخرى؟ لا أعتقد ذلك لأنه عامر حداد، ثم فليكن!

تراجعت سيرينا للخلف، وتذكرت موقفها في بدايات العلاقة وأحست بشيء من الخجل. غادرت فرح المكان، انزوت مع روحها، حاولت أن تهدئ من وتيرة غضبها، حلولها الدائمة لتفادي حدوث مشكلة بين أحد أصدقائها، بأن تبتعد قليلًا، تعطي بذلك مساحة للشحنة السلبية بالابتعاد، تسترجع تفاصيل المشكلة، لتناقشها لاحقًا بهدوء معه، دون انفعال، وتخلق في عالمها حالة من التوازن بالكتابة، تكتب غضبها، فرحها، حزنها، أحلامها.

هل أخبرك؟ لأني أغني نشيد الحياة، أتوق إليك، لأن أغنيتي هطلت نشيجا حزينا، أتوق إليك، عزفت أهازيج الضرورة على وتر السماء، غرقت بكأسي، أبحث عن ذاك البريق الذي يدعوني للبكاء، هل أخبرك أكثر؟ أتوق إليك لأن السنابل رسائل عشقي إليك، لأن الدروب، كل الدروب تفضي إليك. يخبرونني هم أن الوقت أحال السعادة إلى واجبات، وأن الفراشة تحب الحرائق، بأن الجداول تسعى أبدا للانتحار، وأن ما بيننا أزمنة وذاكرة وفوارق، بأني قريبة ولكن بعيدة. هلا أخبرتَني بغير ذاك؟

كان عامر في كل فرصة يرسل لها ما يتوقع أنها تحتاجه من أشياء، لكنها لم تكن بحاجة إلا مزيداً من الحب!!

طوبى للعاشقين، حين يخبئون تلك الأقاحي بسياج جرأتهم، طوبى للعاشقين حين يرتادون عوالماً لا تحتمل نفاقاً، تاركين الوهم هائما على قارعة الزمن. وتوقاً إليك، أرسم صوراً ملتاعة لإيقاع نبضك. أبحث في زوايا الحقائق عن شيء ينتمي إليكِ. أخبئ بعضاً من حنين وإجهاشاتٍ كثيرة وتوقاً إليك، أدخل تلك الغابة من بابها السحري يصير وجهك حقلي أنثر فيه بذوري وأحوم ألملم ذاك الرحيق وأخترع أوقاتاً تلائم ارتعاش هذا النبض الفريد. يا ابنة الشمس، ليتني أستطيع الوصول، فهل لي بيديك؟

جاء غيفارا إلى المزرعة بينما كان عامر يجلس تحت تلك الصفصافة المتلألئة يستمتع بشمس غافلت غيم الشتاء، وأطلت لتلقي عليه السلام

«يا حبّ تمنعني وتسألني متى الزمن المباح وأنا إليك الدرب والطير المشرد والأقاح».

يتناغم مع تلك الأغنية النشيد، يقوده صوت الرائعة فيروز إلى مناخات منفلتة الآفاق التفت للخلف، راقب غيفارا، خطواته كانت توحي وكأنه يصارع جيشا من الشياطين، ما الأمر؟ سأل عامر بلهفة.

- أخبرني محمود السجان بأنها لم تعد موجودة هناك.

- لكن أين هي الآن؟

- الحدث المفاجئ الذي قطع سبل التواصل هو نقل فرح وسيرينا إلى معتقل آخر دون سابق إنذار.

- ماذا؟ لم أفهم!

- لقد تم ترحيلهما إلى مكان آخر مجهول!

بكت أم جوزيف بحرقة الأم العاجزة عن فعل أي شيء، وكذا انتصار. لقد شعرت زهية بالهزيمة والمرارة والوحشة فانزوت مع كآبتها في زاوية مظلمة، وهي التي كانت تغزل من عتمة الليل أناشيد لتكسر بها العادات البالية، معيدةً للنجمات الذابلة ألق التوهج. لم يسمح لهما أن تأخذا أي شيء سوى بطاقتيهما الشخصيتين، غاصتا في مستنقع آخر، وطالت الأيام وامتدت، حتى باتت شهورا، لكن هذه المرة دون تعذيب، اكتفوا فقط بتحقيق جديد! مرت الأيام عليهما عصيبة بطيئة لا تعرفان ماذا ينتظرهما، واكتفتا بالاستماع إلى تجارب وتهم مختلفة ومتناقضة حد الفجيعة لنساء كن معهن. وقد أدركتا مع الوقت، أن هذا المكان محطة مؤقتة للتحويل وإرسال كل تهمة لجهتها المختلفة، والذي لم يكن بالحسبان أنه تم ترحيلهما إلى سجن النساء المركزي.

أخبر عامر جميع معارفه وأصدقائه عن تجربته مع فرح،

كان يعتقد أنه ربما خرجت من السجن لذلك كان ينزل إلى الشوارع يبحث في الوجوه التائهة عن ملامح غجرية أرهقها الشوق وهدها التعب، تبحث عن ظل، ربما حكاية شرقية، ولا يحظى إلا بالفشل. إلى أن عرف أنها في سجن النساء المركزي، فكيف السبيل إليها الآن؟ أخبره بعض العارفين أنها ستتعرض لمحاكمة وستقضي بعدها في السجن من السنوات ما يكفي لينسي ما حفظ من ملامحها!

كانت فرح قد استعانت بقوة مشاعرها وإيمانها القوي بأن الزمن القادم لهما مهما طالت فترة السجن وتنوعت الأماكن، دخلتا البوابة الكبيرة برفقة الشرطة المدنية، ودلفتا إلى ساحة شاسعة تتوسطها نافورة كبيرة، وتحيط بها غرف كبيرة جدا وفيها أشجار باسقة تتطلع إلى سماء دائمة الحضور! وهذه الغرف المهاجع كانت مقسّمة حسب التهم: مهجع القتل الشهير والذي يضم مشهورات جرائم القتل التي ضجت بها وسائل الإعلام ومهجع المخدرات، ومهجع السرقة والسلب بالعنف، ومهجع الدعارة على اتساعه الهائل، فقد كان مكتظاً، ومهجع السياسة وقد كان أشهر من أن يثار حديث عنه. دخلتا الغرفة برفقة الشرطية المسؤولة عن السجن، وما كادتا تحطان قدماً في الغرفة حتى نهضت ديانا وجميلة بكل فرح لاستقبالهما.

السماء تبكي في الساحة الكبيرة والكون يدور حول فرح، تحاول أن تستحضر القليل من رباطة الجأش ليكون بمقدورها

الانخراط بالجوّ العام كما حدث مع سيرينا لكنها لم تستطع، كان الفرح برفيقاتها يهرب إلى القاع ليطفو حزنها الواضح ولتظهر كآبتها، حاولت جاهدة أن تخفي ما يعتمل في دواخلها ولم تعرف للهدوء سبيلاً. أدركت أن مسافات شاسعة باتت تفصلها عن عالم عامر حداد.

- ما هذا الوجوم؟ كان سؤال ديانا مباغتاً حين جاءت وجلست قربها وأمسكت بيدها.

- لا شيء، أستطلع المكان.

أجابت فرح بإقتضاب، تدخلت سيرينا لتنقذ فرح من هذا الحوار.

- و كيف عرفتنّ بقدومنا؟

أجابت جميلة على الفور:

- عطيات، تلك المرأة المصرية. اخبرتنا كل شيء عنكما.

- و هل هي هنا؟ سألت فرح وسيرينا بصوت واحد.

- لا، تم تسليمها للسفارة المصرية، ولكن ما سبب هذا الإندفاع.

- قصة طويلة «خيّ بركات»، علقت سيرينا مازحة متهكمة.

خرجت ديانا من الغرفة، وقامت جميلة بتعريف فرح وسيرينا إلى الصبايا الموجودات: آسيا من حزب العمال الكردستاني،

«سوزان» لبنانية تعمل مهندسة ديكور، وموقوفة بتهمة التجسس.

- هل تعرفين أم جوزيف؟ سألتها فرح.

- أجل، بقيت معها سنة تقريباً.

- وهي تعتقد أنك في لبنان الآن؟

لم تجب سوزان وعادت إلى صمتها، وهذه ميساء أيضا من حزبُ العمال الكردستاني.

غرفة صغيرة بالكاد تتسع لأربعة أشخاص تتوسطها مدفأة على المازوت، وعند النافذة يوجد طاولة وعليها تلفاز بدائي بالأبيض والأسود. لا يوجد أسرّة، بل فراش من الإسفنج الذي يتحول في النهار لأرائك. كما يوجد مطبخ صغير وحمّام. كان يحق للسجينات إدخال أي شيء يحتجن إليه عن طريق الشرطة إذا كان المال متوفراً. لكل غرفة باب من القضبان الحديدية، يفتح من الثامنة صباحا ويغلق في الثامنة مساء، ما بين الفترتين يحق للسجينة أن تتنزه في الساحة وأن تدخل أي غرفة. لكن كان هناك تحذير عام من الاختلاط بالمعتقلات السياسيات. إضافةً لمراقبتهن والحرص على تفتيش ما يدخل إليهن في الزيارات. هناك يوم للزيارات عموماً، أما السياسيات فقد كان لهن يوم خاص، والأخريات يستطيع أي كان زيارتهن في أي يوم يريد. تفاءلت فرح حين كانت ديانا تخبرها هذه التفاصيل، بينما كانتا تتمشيان في الساحة، ثم جلستا على حافة النافورة. أخبرتها

ديانا أيضاً أن عطيات قد أطلعتهن على علاقتها بعامر حداد وسألتها عن حاله الآن.

- تم نفيه خارج البلاد لكنه عاد في نفس اليوم.

- أنت تعرفين أنه تم إحضاركما إلى هنا من أجل المحاكمة.

- و أعرف ما الذي تقصدينه من هذا التلميح.

- افترضي أن فترة الحكم كانت طويلة

- قولي لي: ما الذي يدفع بإبراهيم لانتظارك طيلة هذه السنين؟

- إبراهيم زوجي ولدينا طفلة

- وما الفارق؟ وثيقة زواج؟

لم تجب، ديانا ابنة الإرث المهول من الآيات القرآنية والمحظورات والموانع والقوانين الصارمة المستمدة من عمق إيمان والدها المنصّب ولياً. لم تطعّم طفولتها بمشاكسة الفتية أو بسرقة الجنائن أو بسباق النجوم السيّارة في رحلة لاكتشاف المجاهل. كانت تغمض عينيها على الحرام وتفتحهما على العيب وغير المسموح. راحت تصنع في زاوية ما، هناك، آفاقاً لا تنتهي لضحكات كوقع البرق على أغصان الكينا ورقصات غجرية تلوّن رماد الفصول وتحوك على نول أحلامها شطوطاً بلا حدود.

ضاقت دائرة الحصار وفكرت فرح بالهروب، وما شجعها

على ذلك وجود نافذة في الحمام تفضي إلى العالم الخارجي، هي عالية جداً لكن ليس من المستحيل الوصول إليها. ظلت تفكر بالأمر وعواقبه. كان وضع فرح يقلق ديانا كثيرا مما دفعها للالتصاق بها تحدثتا في قضا يا عديدة وتناقشتا بالعموميات وبالتفاصيل، بالهم اليومي كما المستقبلي، أسرّت الواحدة للأخرى أدق وأعمق خصوصياتها، مما قرّب روحيهما، وجعلهما أكثر ألفة ووداً. كانت سيرينا قد وجدت من السلوى ما طاب لها، ومتسعا هائلا للنوم ومتابعة التلفاز.

أما الوضع عموماً فقد كان تعيساً جداً، حتى في السجن كان يوجد فرز طبقي، فمن قوانين السجن ما يوجب على كل غرفة العمل سخرة في المطبخ يوماً في الأسبوع، لكنّ هذا القانون لا يطبقّ إلا على المحتاجات. معتقلات الرأي كن بأمس الحاجة مادياً، لكن عزة النفس والإباء كانا يمنعهن من إظهار هذه الحاجة. لذلك كن يعتمدن على ما يردهن في الزيارات القليلة وعلى حياكة ملابس الصوف المأجورة، تعلمت فرح بسرعة حياكة الصوف الأمر الذي عجزت عنه سيرينا، بالإضافة لذلك خدمتها الصدفة بأن ابتدعت عملاً جديداً يدر عليهن مالاً إضافياً.

كان ذلك يوم الزيارة العامة حيث تغلق الأبواب على غرفة «المعتقلات السياسيات» منعاً للإختلاط. وإذ بفتاة من تهمة الدعارة، والتي كانت تلاطف فرح دائماً في الساحة الكبيرة

وتحاول التقرب منها لأن فرح وكما كانت تقول تدخل القلب دون استئذان، جاءت هذه الفتاة ترجو فرح أن تكتب لها رسالة غرام لحبيبها المزعوم، عارضة عليها مبلغاً معقولاً من المال. الأمر الذي أدهش الجميع وأثار تساؤلات كثيرة. لماذا فرح تحديداً؟

أجابت الفتاة بعفوية أن فرح لا تتصرف بفوقية واحتقار معهن. وافقت فرح على الفكرة، وكتبت لها رسالة بصياغة شعرية عالية المستوى، ما جعل الفتاة ترقص فرحاً. ذهبت الفتاة بعد أن دفعت المبلغ المتفق عليه، وأخبرت الجميع، وكيف أن الأمر تم بسرعة. ذاع صيت الرسائل المأجورة، وتهافتت الطلبات على فرح ورفيقاتها ما ساعد في تحسين وضعهن المعيشي، نعم إن هذا الأمر يبدو مستغرباً، لكن سره يكمن في أسلوب فرح الشاعري المميز، مما جعل الكثيرات يطلبن منها هذه الخدمة لقاء ما تيسر من أجر!

بعد شهر من وجود فرح وسيرينا في سجن النساء المركزي، جاءت أمُ فرح لزيارتها. لم تصدق فرح في البداية حين جاءها الخبر، فذهبت المجموعة كلها للتأكد، فرح وسيرينا وديانا وجميلة وآسيا وميساء. كانت الأمّ تقف خلف الشباك المطل على الساحة وهي تمسك بقضبانه، وتراقب الوجوه بحثا عن ابنتها.

– آه، ويحي، ماذا فعلت بك؟ صرخت فرح بحسرة وغرقت في دموعها.

- كيف حالك يا ماما، لا تقولي ذلك ولا تبكي يا صغيرتي، أنا معك فلا تضعفي، إياكِ أن تضعفي، لم يسمحوا لي بزيارتك من قبل، لقد أحضرت معي كل ما تحتاجين إليه تقريباً، اهتمي بصحتك فقد عرفت أنك كنت مريضة.

ألقين جميعهن السلام على أمّ فرح بحنين ومحبة، فكم كن معجبات بجسارتها، وكم كانت فرح فخورة بذلك.

- كيف حالك وصحتك؟ كيف حال جمال وهل استطعت زيارة أيمن؟ وهل قامت عائلة سمير بزيارته؟

أسئلة متلاحقة رمتها فرح أمام والدتها، أجابتها والدتها بابتسامتها الحانية، الكل بخير، لا تقلقي على أحد، اهتمي بنفسك فقط. والدك حزين جداً ومرهق من هول ما رآه، جاء لزيارتنا وأخبرني ما حدث معه وبكى منظرك ووضعك بحرقة، كان نادماً على إهماله لكم، ولكنه أدرك أنه مهما فعل لن يعوض عليكم هجره لكم، وأن ما حصل كارثة هو مسؤول عنها، لكنني أخبرته أن أولادي يدركون ما هم فاعلين وهذه قضيتهم وهم يحاربون ويناضلون لأجلها وأنا أفتخر بهم.

كانت الوالدة تتكلم وملامح غاضبة تطغى على وجهها وصوتها، غاضبة على ومن كل شيء، أطفالها الذين رافقوها في مواقفها ودعموها وساندوا قضيتها وأيدوها في رحلة آلامها، تحملوا معها الحياة الصعبة، ودفعوا ضريبة موقفها من والدهم

الذي حرموا من أبوته ومن حياة مستقرة ومترفة كان يمكن أن يعيشوها، لكنهم رفضوا وتحملوا بصمت كل القهر الذي مرّ عليهم، وصمدوا في وجه الحرمان وتفوقوا عليه واجتازوا بامتيازات عظيمة امتحانات صعبة وحققوا نجاحات مذهلة في الحياة وكانوا أصحاب قضية مشرّفة، وهي فخورة بهم وبمساندتهم وتؤيدهم ومن معهم. كما أن والدهم أدرك أنه خسر أولاداً رائعين كان يمكن أن يرفع رأسه بهم لو أنه احتضنهم ولم يتخل عنهم بسبب نزوة كانت عابرة إلا إنها تركت في قلبه جرحاً نازفاً أودى بحياته لاحقاً.

أطرقت فرح رأسها محاولة إخفاء دمعة طفرت، ثم غيرت الحديث متسائلة عن كيفية معرفة أمها بوجودها في سجن النساء المركزي.

- أولاد الحلال كثيرون، ما بتخلى الدنيا، جارنا أبو حسين يساعدنا في مواقف كهذه.

- العميد؟ صديق الوالد؟.

- أجل يا صغيرتي يوجد من الأشخاص الكثيرين الذين ندموا على خياراتهم ولكنهم يحاولون التعويض من خلال مناصبهم في مساعدة أبناء وطنهم؟ المهم الآن، هل حددوا موعداً لمحاكمتك؟

- حتى هذه اللحظة لم يتضح أي شيء، عاملوني وسيرينا بطريقة مختلفة عن الأخريات، لذلك لا نستطيع توقع ما

سيحصل، أمي أريد أن أطمئن على أخي أيمن وسمير هل هما بخير؟

- أجل صغيرتي هما بخير وقد حملاني الكثير من السلامات والقبلات لكِ، حضروا جلسة محكمة واحدة، وهم ينتظرون موعد الجلسة الثانية بعد شهر من الآن.

* وجمال شقيقتي كيف حالها، خائفة عليها كثيراً، هل تعرضت لأي خطر أو مسائلة؟

لا شيء يذكر حبيبتي، تم استدعاؤها في فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية وذهبت معها، كانت مجرد أسئلة حقيرة منهم ليخبروها أنهم يراقبوها عند أي تحرك لو أرادت فعل أي شيء، لكنها عرفت كيف تتعامل معهم، هي تفتقدك كثيراً، لذلك أغرقت نفسها بالعمل وبدأت بمشروع كتابها عن الأعشاب الطبية، على كل حال حبيبتي، المهم أنت، اعتني بصحتك جيداً، أرسلت لك شقيقتك بعض الأدوية والمستحضرات ووافق مسؤول السجن على إدخالها وهي مرفقة بالتفاصيل عن طريقة استخدامها، وأرجوك اهتمي بغذائك.

كانت والدة فرح تسرف في الصلاة وتقديم القرابين، عسى أن تنتبه إليها بعض الغيمات العابرة في سماءٍ اندثرت فيها طرق الملائكة، وتشظ تّ نجمة المجوس في فراغ مطلق، هي التي كانت تمنح أطفالها قسطاً من الحياة، تجمعه خلسة في غفلة عن حماة

الحصاد، وفي ليل أنوثتها المقفر، تحاصر الآلهة، لتستنطق منهم وعوداً بحماية أطفالها وحياتها.

جمعتهن مائدة بسيطة تحوي بعض ما أحضرته أم فرح، أكلن بألفة وفرح طفولي. وكأن فرح قد استطاعت أن تخطو فوق ألمها وتعيش تفاصيل واقعها الجديد في طريقة أقرب إلى التآلف الناتج عن قدرة ذهنية عالية أحالت المحال إلى ممكن، وذلك بمساعدة ديانا الرائعة التي انتشلت روحها الهائمة بين الوهم والتمنيات التي كانت رافضة إمكانية التعايش، آسرةً حاضرها ومصرةً على الارتحال إلى أوقات اعتبرتها أعراساً لفرحها، تمكنت ديانا من الاقتراب والغوص معها في لحظات الانفلات على شطوط لا تتسع إلا لزرقة أمانيها.

ديانا التي كانت ثمرة حبها مع ابراهيم الطفلة نتالي والتي كانت صرختها الأولى في معتقل لم يتعرف على أبجدية المشاعر الإنسانية قط، ولأجل أصغر معتقلة، كانت ديانا تخبئ كل الأقاصيص والحكايات وأحلام اليقظة بين جفني الشمس لتعيد صياغتها هالات فرح لعالم الطفولة. تصنع من عجين الدمع دمى ضاحكة لتقدمها على مسرح نتالي المقفر المنتظر صخب لحظات الأمومة الممتلئة بحليب القهر، لم تكن تريد لطفلتها إلا عالماً قزحياً يعكس آمالها قبل أن تصبح أما بلا همهمات رضيعٍ يشاكس في ليل هانئ، يبحث بأصابعه الوردية عن ندى الحنانٌ المعشش بين الصدر ولهفة الروح.

كانت فرح تعتبر أن ما واجهته ما هو إلا جولات في معركة يجب أن تحسم لصالحها، لأنها أرادت أن تحمي عالماً كانت تبنيه يداً بيد مع من أضحى محور كونها الممتد. أصغي إلى روحي فتهرع ظلال المفردات جداولاً من العنّاب، أسرق قلبي من الأنين، أستند إلى فضاء أنفاسك العبقة بالصنوبر، أراقص عتمي على إيقاع نداءاتك، الحب يناديني وما من مرافئ، ولا منارةٌ، لكني طرقت شبابيك البحر والسماء، تقول لي العرافات أنه سعيد من مات حباً! لكني يا فرحي، أحيا حباً وأتنفسك.

حينما جاءت الشرطية لتبلغ فرح وسيرينا عن موعد الجلسة الأولى لمحاكمتهما، بادرت ديانا وجميلة بإيضاح كيفية انعقاد الجلسات والاستجواب، بشرح مفصل عن شخصية القاضي الذي حقق معهما، والذي لم ينطق بحكم أقل من خمس سنوات مهما كانت ظروف التحقيق والاعترافات! كان يدير لعبة المحاكمات باقتدار وظيفي، معتمداً منهجية تعسفية، يجعل الرفاق يدورون في فلكه لترسو قواربهم في النهاية على أعتاب الأحكام المديدة. لتبوء بالفشل كل مرافعاتهم وصياغاتهم ال محكمة، كان يراود الجميع ذاك الحلم المرغوب في مشروعية الفكرة المنشودة، المعبرة عن حياتنا المفجوعة، التي تعكس ذواتنا في لحظات الانكسار والقهر اليومي، والتوق الدائم لإيجاد بصيص أمل أو بقعة ضوء في حياتنا المظلمة، المليئة بالاستلاب والكآبة في هذا الفضاء الكوني المتماوج.

لم تكن قاعة محكمة

كانت مسرحا حيا مفعما بالألم والقنوط وحالات القلق اللا متناهي. ما هي إلا بوابات لتدمير تلك الحالات التي أرادت أن تظفر بفسحات أمل تقدر من خلالها على نقلة نوعية خلاقة، كانت الشاحنة العسكرية الضخمة تنتظر فرح وسيرينا خارج بوابة السجن لتنقلهما إلى المحكمة. أراد الشرطي أن يكبلهما بالأصفاد ثم تراجع عن الأمر، سلموا كل واحدة بطاقتها الشخصية، وانطلقت الشاحنة بهما إلى ما ينتظرهما من غامض لم تستطيعا التنبؤ به. كانتا تعرفان تلك الشوارع جيدا، وحين وقفت الشاحنة على إحدى إشارات المرور أخبرت فرح سيرينا بفكرة الهرب التي خططت لها كثيرا، لكن سيرينا رفضت بشدة وتشبثت بفرح مانعة إياها من تنفيذ الفكرة الغبية كما وصفتها. لكن فرح حاولت إقناع سيرينا كثيرا بأن الفرصة سانحة الآن، جاء رد سيرينا عنيفا:

– فكري بعواقب الأمور، ليس علينا فحسب بل على أهلنا، ثم انتظري لنر ما سيحدث معنا اليوم!

نزلتا من الشاحنة، فتاتان في مقتبل العمر في مواجهة هذه الهيئة الضخمة المتسلحة ب«القانون»، والجريمة هي جناية بحق أمن الدولة! أراد الحظ مرة أخرى أن يخدم فرح وسيرينا لأن القاضي قد تم تغييره، قاضٍ سمح الطلعة وقور الهيئة. سألهما بضع أسئلة عن علاقتهما بتنظيم معارض مهمته تدمير الوطن وتخريب الإنجازات والمؤسسات وعن رغبتهما بإسقاط السلطة، تكلم بطريقة توحي بعدم قناعته شخصياً بهذه التهم، لم تعرفا بماذا تجيبان، فأشار لهما أن تقولا نعم أو لا، فأجابتا: لا! لكن تلك الحادثة والتي لا يمكن تسميتها بأي حال جلسة محاكمة، كانت تسخَف كل شيء، وليس من رهان إن كانت هذا الحادثة ستأتي بنتائج إيجابية أم لا. انتهت الجلسة وعادتا إلى السجن وأخبرتا ديانا وجميلة بما حدث، فاعتراهما القلق، لكن فرح هجعت في زاويتها المظلمة تترقب بزوغ فجر جديد لأن وقع تلك الحادثة كان عنيفا عليها، وبينما تتردد كلمة «جناية» في سمعها، تكبر ويكبر صداها، وهي الملمة بعض الشيء بأمور القوانين من ذاك التماس المباشر معها نظرًا لكون والدها قاضياً.

هل هي محاولة لاستلاب إرادتنا؟ راحت الأفكار المختزنة في الذاكرة تستحضر الرموز والدلالات لتلك المفردة لتجد لها إسقاطات على كل من عرفته، لكن يالسخرية الوجود وعبث العابثين، كيف يستطيعون قتل أدمغتنا ونحن من لا نعرف الأفول؟

كيف يبيحون دماءنا، ونحن من لا نعرف السكون؟ نحن، من

نحن؟ نحن غابات السواحل وجني البيادر وحصاد كل فكر، كان أسمى من ترهاتهم. لنا الألوان والأرض وأبدية الحلم، لا نعرف السواد فسماؤنا زرقاء وموسيقانا نبض الجداول، يا زهور السفوح استيقظي لأن عصافير الحقول المهاجرة قد آن لها أن تعود، وخوابي الخمر ما زالت تستحثّ نشوة العنقود.

يما مويل الهوى.. يما مولياّ، كانت سيرينا مستلقية واضعة ساقاً على ساق حين بدأت الغناء بصوت عال ومفاجئ لتنتشل رفيقاتها من صمت ثقيل. ولم تستطع فرح سوى الضحك.

- هل تقصدين أن صوتي سيء ولا أجيد الغناء، قالت سيرينا ذلك بعد أن استوت في جلستها.

- حاشاك، أنت تمتلكين حنجرة ذهبية، كما أنك أطول فتاة رأيتها في حياتي!

انقضّت سيرينا على فرح في محاولة فاشلة لعراك صبياني وغرقتا في الضحك.

- أتعرفين طالع على بالي إلعب «بالدحاحل» شو رأيك؟

- سيرينا، يبدو انك تعانين لوثة دماغية، ماذا دهاكِ؟ قالت فرح ذلك مداعبة سيرينا.

- أكاد انفجر يا فرح، أوباش، أوباش، لم أجد حلا معهم، منذ زمن وأنا أحاول أن أحدد ماهية سلوكهم وردود أفعالهم ولم أجد خطأً واضحاً لهم في التعاطي مع أي أمر.

- لانه ما من قانون يحتكمون إليه.

متنقلة بين مساحات الحلم الفردي والنتاج الجماعي؛ تعيش فرح تلك اللحظة الآنية كفرادة مبدعة تواقة للانصهار في إشعاع ياقوتها المقدس تارةً، ثم لتكون عنصرا في المشاركة والانغماس في تفاصيلها تارةً أخرى. كان وقع الوقت ثقيلا متخبطا غير متوازن، لكنه متكرر بنفس السمة، تمتد أصابعه لتحوك حولك شرنقة تقصيك عن الحركة الفاعلة في الحدث اليومي والتاريخي. كان قد تم تحديد موعد الجلسة الثانية لفرح وسيرينا، وكانتا تنتظران ذاك اليوم بفارغ الصبر على أمل فك شيفرة اللغز في قضيتهما وطريقة التعاطي معهما! كانت والدة فرح بانتظارها في بهو المحكمة، كما كان شقيق سيرينا الجميل «وسيم»، طالب في كلية هندسة الكهرباء، ينتظر قدومها، هرع نحوهما وعانق شقيقته بحميمية، قاطعتهما فرح وبادلته السلام ثم تركتهما وذهبت باتجاه أمها، وغابت على صدرها العبقِ بالطيب الذي كان يزور أحلامها وينتشلها من القيعان المظلمة التي تريد أن تبتلعها، ناداهما حاجب القاضي لدخول القاعة، وراحت والدة فرح تصلي لأجلها، بينما راح وسيم شقيق سيرينا يمشي في البهو بقلق ظاهر، لم تمض دقائق حتى خرجتا مع ابتسامتين عريضتين!

- ما الذي حدث؟ لماذا خرجتما بسرعة؟ سألت أم فرح بتوتر، وكذا فعل وسيم.

فرح وسيرينا كانتا مذهولتين ومبتهجتين، تكادان تطيران من فرط السعادة، صرختا:

- تم الحكم علينا مدة سنتين!

- يعني أقل من المدة التي قضيناها في السجن. أضافت سيرينا بسرور.

- متى باستطاعتنا الحصول على القرار؟ سألت الأم.

- لا اعرف، اسألوا هيئة المحكمة وقدموا لنا طلب إخلاء السبيل بسرعة.

كانت فرح تتكلم بسرعة لتستطيع قدر الإمكان كسب الوقت - نلتقي قريباً. قال وسيم وهو يعانق سيرينا وفرح وكأنه امتلك الكون وأخذ والدة فرح من يدها وهما فرحين وغابت فرح وسيرينا عن النظر.

كيف يظل القلب يصبو لمداءات أوسع، ليحيل بالحب والقليل من الجنون، هذي العوالم المسكونة بالموت والرتابة إلى مهرجانات استوائية، تضج بانبعاثات جديدة لحيوات أكثر صخباً. كان وقع أقدامها يقرع تلك الأبواب ويصل إلى المسامع إيقاعاً كرنفالياً يدعوك للرقص فوق هذا الدمار، وصلتا السجن تهللان فرحاً. لكن وقع الخبر على الصبايا كان ممتزجاً ببعض الحزن الذي يتركه الرحيل مهما كانت ظروفه. انهالت عليهما الأسئلة وضج الحديث كل واحدة كانت تريد أن تتحدث متنقلة

بين فرحها وحزنها، توصيات مادية ومعنوية وما إلى ذلك، التقت عينا فرح بعيني ديانا وابتعدتا مرتحلتين عن ضجيج الكلام، هناك إلى عالم لا يحتاج إلى مفردات، أخبرتا بعضهما بكل ما يؤمل به أن يحدث وما يجب أن يحدث، كانت ديانا تعرف أن إقامتها ستطول، «فحجم الإعترافات عليها كان أكبر من المعقول، ما جعلها عاجزة عن نفيه»، لكنها كانت تريد من فرح أن تحُمل معها كل آمالها وهواجسها وأحلامها وفرحها القادم، وتلقيه على أعتاب ابنتها «نتالي».

قالت ديانا لفرح وعيناها مغرورقتان: أتمنى أن تبقي حقيقةً أو أن أذهب معك لأني لم أعد أحتمل لم تستطع فرح الإجابة وأحست بالعار لأنها ستعرف طعم الحرية وديانا والأخريات دونها. بكت فرح كثيراً وأخفت وجهها بعيداً عن الإضاءة الباهتة القادمة عبر النافذة، مخبئة وجعها بعيداً عن ديانا، تلك القلعة الحصينة التي تحميك من السقوط في قيعان الضعف والضياع واللاجدوى، تمد لك يداً دافئة لتداعب طفولتك الخجولة وتأخذك إلى فضاء أكثر اتساعاً ونضجاً، لم تترك ديانا لفرح متسعا لحزن آخر، كانت تسمع صوت انكسارها حين تسافر معها خارج الأسوار إلى عالم استطاع أن يحتوي طفولة نتالي، لتعود وقد أحال الحنين جسدها إلى طيف ضوئي، تنتقل هائمة مهاجرة عبر بوابات شموس صغيرة، متمسكة بدثار نتالي الذي تحولت خيوطه إلى أراجيح تصل حدود الأمنيات.

سكن الليل وسرق النوم الأخريات حتى سيرينا، لكن فرح لم تستطع إطباق جفنيها. راحت تحلم وترسم صوراً متسقةً مع تخيلاتها ورؤيتها للقادم، وكأنها تنقش على حجر سِفراً جديداً بانعكاسات مضيئة. جاءت والدة فرح ووسيم شقيق سيرينا في الصباح. قدما إخلاء السبيل وقاما بزيارتهما محضرين معهم ما قد تحتاجان إليه ساعة خروجهما من السجن. لكن مدير السجن اخبر والدة فرح أن الفتاتين ستعودان من حيث جاءتا وهناك سيتم الإفراج عنهما.

- يعني ولك أمي اليوم بيفرجوا عنهن؟

قالت الوالدة ذلك بحرقة من ينتظر مطراً في الصحراء.

- لا استطيع إلا أن أقول: أن شاء الله.

فهمت والدة فرح المقصود وأخذت وسيم من يده وذهبت تقول لنفسها، المرحلة الأصعب قد مرت ولم يتبقّ سوى القليل، في منتصف النهار تمّ نقل فرح وسيرينا إلى المعتقل الذي جاءتا منه بعد أن ودعتا الصبايا على أمل اللقاء القريب.

تم التحفظ عليهما لشهرين بعد ذلك، تناوبت الأيام خلالهما بين ثورات غضب واستكانة، وانتظار مقيت، وموت بطيء، وذاك الضوء الأصفر الكريه الذي لا يغيب على مدار اليوم.

- يعني لو بقينا في سجن النساء المركزي هذه المدة، شو كان صار؟ قالت سيرينا وهي تتأفف وتلعن.

- لماذا؟ مهما طالت إقامتك في سجن النساء المركزي، ستعودين من حيث أتيت وتقضين المدة التي تروق لهم.

بالكاد أكملت فرح جملتها، وإذ بباب المهجع يفتح وينادي أحدهم:

- فرح، سيرينا «جهزوا أغراضكم وتعالوا».

لم تصدقا الأمر وهما لا تعرفان ماذا فعلتا في تلك اللحظة، هل لبستا ثيابهما، أحذيتهما؟ تركتا كل شيء خلفهما، ألقتا سلاما عابرا على الموجودات، ودلفتا من باب المهجع.

- إخلاء سبيل أليس كذلك؟ سألته سيرينا بطفولة.

- لا اعرف.

وقادهما إلى مكتب الضابط المسؤول، أخبرهما الضابط أن إجراءات إخلاء السبيل قد تمت، ولكن عليكما انتظار السيارة التي ستقلكما.

- لكننا نستطيع الذهاب لوحدنا، أجابته سيرينا.

- لا، لا يجوز حصرناً منا على منا على سلامتكما، والساعة الان تجاوزت الحداية عشر ليلاً. نحن من سنهتم بهذا الموضوع.

وجاءت السيارة أخيرا، وركبتا فيها، على ما يبدو أن السائق لم يكن يعرف شيئا مما يحدث حوله، لأنه اعتقد أن فرح وسيرينا كانتا في زيارة أحد المعتقلين، لم تتكلما معه نهائيا، وطلبتا منه

أن ينزلهما في نقطة ما لا على التعيين، ثم أوقفتا سيارة أجرة، وذهبتا باتجاه منزل عامر بطلب من فرح التي حفظت طريق المنزل جيدا وكأنها تعرفه.

- لكن لماذا إلى منزل عامر وفي هذه الساعة المتأخرة؟

- لأني قطعت وعدا بأن يكون أول شخص تقع عيني عليه في الحرية.

وصلتا إلى المنزل.. فتحتا باب الحديقة ودخلتا. طرقت فرح الباب وانتظرت.. أعادت الطرق مرة أخرى... فسمعت وقع أقدام، فابتسمت.. فتح الباب وأطلت والدة عامر تلك السيدة المهيبة.. المتشحة بالسواد برقت عينا والدة عامر فرحا.. ثم بادرتها السؤال:

- خير يا ماما.

- أنا فرح وهذه صديقتي سيرينا، أتينا لرؤية عامر..

كانت الوالدة أثناء حديث فرح قد أمسكت بيديهما وأدخلتهما، وأغلقت الباب خلفها، وغرقت في نوبة بكاء حارق وهي تعانق فرح.

- يا حبيبتي، يا حبيبة الغالي، يا روح الغالي، «كيف صار وطلعتي يمّا»؟

- هذه هي أول لحظاتي في الحرية. وهذه صديقتي سيرينا.

- أهلا يا حبيبتي. أهلا وسهلاً والحمد لله على السلامة.

وخرجت جان دارك ويولا من غرفتهما على صوت والدتهما عانقتا فرح وسيرينا بكل مودة ومحبة، علت البهجة الوجوه. كانت سعادة مطلقة لم يتسع المكان لها، أدركت والدة عامر ما عليها فعله، وقالت لابنتيها:

علينا أن نتصل بغيفارا «يمّا».

- صحيح، صحيح.

قامت يولا على الفور وهاتفته وأخبرته أن يأتي لأمر طارئ.

• «شو بتاكلوا، شو بتشربوا، هيدا بيتك يا فرح».

- فنجان قهوة

- إذا أمكن قبل ذلك أريد أن أغسل يدي ووجهي. طلبت سيرينا ذلك بكل أدب!

بقيت فرح صامتة ووالدة عامر بقربها تربت على كتفها وتحيطها بذراع دافئة بين الفينة والأخرى، بينما كانت عينا فرح تجولان في المكان وتلتقطان أدق التفاصيل، وتحاولان سبر كل شيء.

جاءت يولا بالقهوة، وخلفها سيرينا بوجه منتعش نابض بالحياة، تناولت فرح فنجان القهوة، وشربته بسرعة. يا له من مذاق مغرٍ وحقيقي. طلبت بعد ذلك أن تستخدم الحمام، وضعت يدها على الصنبور الذي استخدمه عامر مرارا لسنوات، نظرت

في المرآة، فرأت صورته منطبعة على أليافها. أحست بوجوده وتقمصته. حين خرجت كانت جان دارك بانتظارها، تحمل فوطة عامر الخاصة. حملتها فرح بين يديها وغابت برائحته وعبقه وبقايا أنفاسه.

- هل تريدين الدخول إلى غرفة عامر؟

- كنت سأطلب ذلك لكني ترددت كثيراً!

فتحت لها الباب، ودخلت عالما سحرياً، جلست على سريره، احتوت وسادته بين يديها وصدرها. قامت ولمست كل محتويات الغرفة بيد مرتعشة، ثم عادت لجلستها وغرقت في نشيج اعتصر كل آلامها وأنينها، سمعتا صوتاً ذكورياً في الخارج، فعرفتا أن غيفارا قد وصل. عانقتها جان دارك بحب مما أعاد إليها الهدوء قليلا. جففت دموعها وخرجت.

حين رآها غيفارا هرع إليها وغمرها بلهفة وقال بصوت متهدج:

- هيا لقد سرقت مفاتيح سيارة والدي وأنا مستعد لأن أسرق مفاتيح القدس لأجلك!!

كانت فرح تعرف تقريبا أين يقيم عامر لذلك لم تسأل أي سؤال، لكن سيرينا طلبت أن تبقى في المنزل إلى حين عودتها.

- طيب قومي بلا جنان، ما شبعتي من الحبوس؟ منرجعك والله».

علقت الأم بلهجتها الفلسطينية العذبة.

صعد الجميع في السيارة وانطلق بهنّ غيفارا عبر طريق طويلة، ولعلها كانت أطول طريق بالنسبة لفرح، وهي ترتجف في كل لحظة تعتقد بها أنها قد وصلت.

لم يكفّ غيفارا عن الكلام. يداعب الجميع ويلاطف سيرينا بطريقة جريئة. وقفت السيارة أمام بوابة ضخمة، نزل غيفارا وفتحها، وعاد ليدخل عبر درب صغير تزينه الشجيرات على جانبيه. أطفأ محرك السيارة ونزلوا. وفرح مثل المسحورة تسير، تقودها يد من؟ لا تدري، منزل ريفي جميل وآثار نار لم تنطفئ بعد!

- كانوا «سهرانين» الخونة، عقب غيفارا على انتباه فرح لمنظر الموقدة.

- أيوجد أحد غيره؟

- أكيد، فالأصدقاء يتناوبون في المجيء إليه وفي بعض الأحيان نجتمع كلنا هنا. طرقت والدة عامر الباب مراراً، فأطلّ شخص آخر غير عامر؛

- مرحبا علي، «كيفك يا خالتي؟ وين عامر؟». سألته الوالدة ودخلت.

بينما جلسنا جميعا حول طاولة كانت تحت العريشة، ألقى علي التحية، وهو نصف نائم، وعاد ليدخل المنزل. ناداه غيفارا:

- تعال ألا تريد أن تعرف من هم ضيوفك؟

- آه أهلا وسهلا بكل من أتى معك.

- انها فرح يا فنان الشعب، الفاشل.

- ماذا؟ غير معقول، كيف حصل؟ وقف يراقبها للتأكد. ثم قال:

- إذا دعيني أعانقك قبل أن يأتي عامر.

تقبلت فرح مزاحه وسلمت عليه بحرارة

علي صديق عامر، رسام فلسطيني، وهو من المقربين جدا من عامر، لكن جان دارك وبخّته مبتسمةً:

- «الحساب بعدين يا واطي».

في هذه اللحظة أطل رأس من النافذة. عرفت فرح تلك الملامح الحبيبة، نظر محدقا يستقرئ الوجوه، وتوقف عند فرح.

وقفت فرح فرسا جامحا. كان شعرها يتطاير مع نسمات الربيع الليلية حاجباً بعضا من ملامحها. رفعت شعرها عن وجهها وكل ملامح العشق ترتسم على محياها. لم ينتظر عامر أن يذهب إلى الباب ليخرج، قفز من النافذة وصاح بجنون العاشق صيحات من وجد واحته! حمل فرح وطار بها بين الأرض والسماء، تحولا إلى غمام، وسبحا معا في جنة العشق المباح، وضعها على الأرض قليلا، نظر إليها وعيناه تخترقان عينيها،

ليتأرجح ذاك الوله المنفلت، واحتواها بين ضلوعه بقوة من استعاد حقاً كاد أن يضيع. ركعا قبالة بعضيهما. الأصابع تلتهم الأصابع، والعيون قد غابت وراء غيمة من الدمع. كان عامر عاري الصدر. تلمسته تأكدت أنه هو، ودفنت رأسها في سهوبه. كان الجميع يراقبهما بعيون دامعة فرحة.

عادا إلى المجموعة، انتبه عامر لسيرينا وقبلها معانقا إيّاها بسعادة غامرة. كانت حركاته متسارعة منسجمة مع صخبه الداخلي، كأنه يرقص على إيقاع غجري.

– منذ قليل كنت أخبر علي بأنكِ قلتِ:

سآتيك ليلاً، نسهر على هسيس نار موقدنا، ليجن الليل بنا.

قال عامر ذلك وهو يحتوي فرح بكلتا يديه وعينيه، كان لصوته ذاك الوقع السحري، كقطعة موسيقية نادرة ألفتها جنيات البحر لآلهة الخصب في كرنفال مسائي.

– شربنا نخبك مئات المرات، وعرفننا ملامحك قبل أن يرسم لوحتك.

قال غيفارا ذلك وذهب إلى سيارته وأحضر زجاجة نبيذ وعاد.

– والآن سنشرب نخبك ونخب الحب ونخب سيرينا أيضاً.

دخل المنزل، ولحقت الصبايا به ليحضرن ما يلزم من كؤوس ومأكولات.

أما عامر فقد قام باتجاه الموقد ليعيد إضرام نارها.

– فرح تعالي لنضرم النار ونقتل العتمة.

نهضت فرح وذهبت باتجاهه كعري إله في ربيع خصب، كان يقف يرقب كيف تمشي، تكاد عيناه تقبل ما يحيط بها من هواء. أتته مكللة بورود عشقه. أصابعه رفضت إلا أن تتغلغل في دواخلها وتستقر في الوسط، كادت تصل السماء حين رفعها إليه، هبطت وصرخات الفرح تملأ محيطهما.

هي لا أحد إلاّ "هي؛ المنطلق والمستقر، هي أنثاي الوحيدة. أعاد إحياء الجمر الغافي تحت سطح شفيف من الرماد، جلست بقربه تراقب ألسنة اللهب وانعكاساتها على ملامحه، نظر إليها؛

– قولي شيئاً.

– كأني قد ابتلعت صوتي، ونسيت الكلام.

– هل نسيت أني أسمع صمتك.

– عن أي لوحة تكلم غيفارا؟

– توقعي؟ فرح هل يعقل ألا أرسم ملامحك التي انطبعت على أدق تفاصيل نسيجي الداخلي، وسارت مع دمي وأحلامي وصحوي، سكنت محرق ذاكرتي.

– هل أستطيع رؤيتها الان؟

– تعالي.

بينما هما يدخلان، وإذا بالجميع يعودون وهم يحملون الأطباق والكؤوس، ويغنّون:

«يا حلو ال بالسجن لاقيتك.. دلني دخلك على بيتك.. بكير ببعتلك العصفورة.. تتخبرك قديش حبيتك».

ضحك عامر وفرح من هذا التحوير، وعادا مع المجموعة، بينما كان علي يضع شريطاً في المسجل لفيروز، كان عامر يحيط بذراعه خصر فرح النحيل ويجذبها بقوة لتخترق دواخله. الكل واقف، تعالت الكؤوس وقرعت كأجراس بيت لحم. وشربوا أنخاب الحرية والعشق وأزمنة قادمة لا بدّ أجمل.

«أنا لحبيبي وحبيبي إلي، يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي».

الكل راح يغني مع الرائعة فيروز، هائمين في أفلاك مسحورة على مشارف تلك الأغنية رقصت أوراقهما واشتعلت بتلات ورودهما لهيبا أرجوانياً، تمهل، فإن بعض القداديس ما زالت ترتل عند غابات العمر الوارفة، وفي كل وقت تشرق عيناك بوعود جديدة. وأنا لا أجد لغتي إلا في قواميسك، لم أعرف وجهي إلا في مراياك، مدينتي تضيق بي، ما عادت تتسع آمالي، اقتلعت من صخورها نسارين وأقاحي، سرقت من غروبها غسق العشاق لتكمل لوحتك.

أعلنت خيوط الفجر بدء نهار نيساني آخر. كانت السماء تشق ثوبها لتفتح قنوات أوسع لشعاعه الوليد، اقترحت والدة

عامر العودة إلى المنزل، لكن عامر فضل البقاء في المزرعة لأنها أكثر أمنا بالنسبة له.

فاقترحت سيرينا:

– ليبقى عامر وفرح في المزرعة، بينما نعود نحن، وفي المساء تعود فرح وتذهب كل واحدة إلى منزلها.

لكن عامر انتفض كالمذبوح؛

– ماذا؟ في المساء؟ كيف تقترحين أمر كهذا؟ لم يعلم أحد بعد بخروجكما، تبقيان بضعة أيام، ثم نتفق على ما سنقدم عليه لاحقا.

وافق الجميع على الفكرة، وسيرينا على مضض كونها اشتاقت لعائلتها. في الواقع كانت تشعر أنها عنصر غريب عن هذه العائلة. لم تجد مكانا لها. هذا ما كانت تظنه، لكن طريق العودة غيرّت كل حساباتها، فثمة شرارة عشق لمعت في عيني غيفارا، تطورت لاحقاً لعلاقة جميلة، لكنها فشلت بسبب وضع سيرينا النفسي الذي تدهور بشكل مؤلم، الذي ترافق مع قرار غريب في الالتزام بمنزل العائلة بعد خروج والدها من سراديب الاعتقال، لتغيب عن أي نشاط، وامتنعت عن التواصل مع أي كان، إلا فرح التي اقتصرت العلاقة بينهما على تواصل هاتفي بين الفينة والأخرى للاطمئنان السريع على الأحوال، كانتا تتكلمان بكلمات بسيطة تختزل كل التفاصيل. وكان مجرد سماع

الواحدة منهما لصوت الأخرى كافياً لتعرفان الكثير عن أحوال بعضهما.

الآن أنا لكِ وأنت لي، فدعيني أقدم قرابيني، فرح.. فرح.. أما آن لمراكبي أن ترسو على رمال شواطئك؟ نسجا أشرعتهما وغابا في ندى الآفاق، زعقت الريح، وضج غبار الطلع، نضج القمح، استكان العشب مخضلاً من نبيذ دهشتهما الأولى، استفاق الوقت ثانية، عصفت به ألسنة اللهب المتعالي شراراً متطايراً، أعيادًا ومواسمَ جني جديدة، ليوقظ قبابَ مدنٍ منسية.

المشهد الأخير

آه يا مدائن العشق، كيف تعرينا الشواطئ إلا من بهجة الرمل، كيف تستحوذ مآقينا انعكاسات قزحية على المرايا الزرق، لتعيد أرواحنا مع هدهدات الموج، للحصى المتوهج غبطة الملتاع ببريق بياض الملح وزعقات النوارس، آه يا مدائن الخيبات، كيف نترك لخطانا المدى لخوض المتاهة. في نيسان كان البدء لنيسان مشتهى، يبوح به رسم أولي لحلم مشتهى. حين تحولت الآه وتراً للتمني، كان لارتحال القلب في غابات العوسج المفتون بأنّة العشاق، بطاقات سفر مؤجلة، لا المحطات تعرف الوجوه، ولا الحقائب ولا أرصفة الشوارع.

جلست بقرب بائع اليانصيب، ترتجي أملاً في تغيير طفيف ينقلها من عبق القهوة، الموشاة بتبر الهال، يأخذها من ضفاف الرماح البيض والفروسية التي طرزت الذاكرة بالانتصارات والفتوحات، وسوّغت لأحلامها الامتداد من وهج النخيل إلى

نوافذ الثلج، وحين أراد الوقت أن يستعيد هيبته من جديد، كانت قد قررت المضي دون الالتفات وراءها. تاركةً حقيبة ممتلئة بالعناوين والذكريات وروائح الأسماء العبقة بالطفولة المشاكسة. أرادت أن تصنع عالماً لا يعرف الخنوع والرتابة، بأدواتها البسيطة المقتصرة على لحيظات الحلم المسروقة من زوبعة الواقع المتسارع الأحداث. رمقها بائع اليانصيب بنظرة وادعة متمنياً لها النجاح بخطواتها. ابتعدت، غابت في زحام الوجوه، تحولت إلى طيف، راحت تتنقل في أرجاء صدى الصور والأصوات المرتجعة، تستحضر الماضي بكل أبعاده، الريح تحضر بين طيات ثوبها آلاف المواويل، وتنثر على الدروب ما استطاعت من ألوان، لتحيط الجذوع بما حملته من زنانير العاشقات الغيد، ناقلة الغابات إلى طقس ربيعي، والمرافئ ساحات للغرام، غابت في عينيه ثانية، لتنتشل روحها الغارقة في صحراء لا متناهية، متمكنة من استحضار بارقة ما.

– كيف استطعتِ اجتياز كل الممنوعات؟

– احتلت على الواقع.

لم يكن البحر شاهداً حيادياً في تلك اللحظة، راح يعلو فوق ممكناته ليبوح لها بكل الأوقات العصيبة التي مرت عليه وهو بانتظارها، استطاع أن يصل ليداعب أصابعها، ويحيطها بدفء ملحه، هادراً صاخباً بكل القصائد التي ألقيت على عتباته، لم يكن حلماً. في مدينتها الساحلية الصغيرة، التي اعتادت صناعة

الجمال والسحر معاً، كانت تراقب كيف تستلقي الشمس بغنج العاشقة المدللة، على كتف البحر، وترخي بضفائرها على كامل تفاصيله، لتحيطه بخصوصية نادرة، وحين تغادره بذاك الحزن الأرجواني، تسابق الأفلاك لتعود وتطل عليه من نوافذ جبلية، وتلقي عليه تحية الصباح، لكنها لم تدرك بعد أنها وصلت تلك الأرض، وكأن أجنحتها ما فلتت من زمام الأسر، واجتاحت ذاكرة أخرى، لم يكن هناك من أوسمة، لتعلقها على سترتها الصدئة، لكن رائحة البحر تركت على كتفيها وشاحاً أبيض كبطاقة تعريف لمن عبروا تلك الدروب، أحست أن ظلها ينمو، يكبر داخل سجن آخر، أسرعت الخطى لكنها لم تستطع الإفلات، رائحة الظلمة التي تغلغلت في نقي عظامها، لم تكن هي ذاتها التي تحاصرها. من أنت؟ من أنت لتحتمي من الشمس بعبق الياسمين؟ من أنت لتقفل أمام الريح بابك الخشبي المطرز بكبرياء السنديان؟

حين مات الديكتاتور الأب، كانت تعيش هي وعامر وولدهما «ريتشي» السنة الرابعة من النفي في لبنان في أقسى الظروف الحياتية، قررا العيش بعد أن تحررا من القيد الأمني، طوّق أحلامهما القيد الاجتماعي والديني ليمنع ارتباطهما، لكنهما كسرا هذي القيود أيضاً، وتجاوزا كل المحظورات الغبية، وذهبا معاً في فضاءات حريتهما. بعد أن استطاعت بمساعدة شقيقيها ومواظبة سمير على مرافقتها في الخروج من حالات الاكتئاب

الشديد الذي وقعت تحت وطأته بعد غياب الوالدة التي قاومت كل آلامها وأمراضها، مؤجلة رحيلها لحين عودة أطفالها من بين فكّي الوحش الذي انتزعهم من حضنها، وحين استطاعت بعد حرب طويلة بينها وبينه أن تنتشلهم من قبضة الموت، ارتاحت واطمأنت للرحيل، لقد استهلكت كل قواها على بوابات الانتظار، وقدمت قرابينها المملحة بدموع القهر واللهفة، رحلت عنهم وغابتْ بعد رحلة طويلة مع الآلام الفتاكة.

فرح أصابتها صدمة مفجعة لم تستفق منها، لا البحر تمكن من إيقاظها، ولا رسائل عامر واتصالاته اليومية، ولا وجود جمال وأيمن وسمير بجانبها بشكل لصيق، ولا دموع السيدة فريال، ولا محاولات السيد فريد الذكية لانتشالها من الاكتئاب. لا أحد تمكن من حثها على النهوض. بعد شهر من الهذيانات والمحاولات الحثيثة لعلاجها، حدث أن زارها طيف والدتها، عاتبة تلومها على ضعفها واستسلامها، وتطلب منها الوقوف في وجه حربهم القديمة الجديدة مع الحياة. كانت والدتها تؤنبها بشكل مؤلم. استطاعت كلماتها أن تحفر عميقاً في روح فرح وتدفع بها للعودة.

في صباح شتائي غائم لن تنسى جمال تاريخه طيلة حياتها، حين استيقظت من نومها، ذهبت إلى غرفة شقيقتها كعادتها كل صباح وقبل أي شيء ستفعله، لم تجدها، أصابها الذعر، وراحت تبحث عنها في أرجاء المنزل، خرجت للشرفة البحرية ووجدت

ما جعلها تقفز من السعادة، وتنادي أيمن بصوت عالٍ. كانت فرح أمام البحر حافية كعادتها، تخبره عن رحلة أخرى من رحلات الألم، بعد أن عانقته ونشجت أنينها وآلامها في حضنه الذي افتقدته طويلاً.

اعتبرت جمال أن شقيقتها استفاقت من الصدمة، أما أيمن فقد كان متوجساً، وانتظر إلى أن يتحدث إلى فرح ليقرر بعد ذلك ما هو وضعها الصحي بالضبط. بعد ساعة الكل كان موجود في الصالة، جمال وأيمن وسمير ووالدته السيدة فريال. عادت فرح من موعدها مع صديق عمرها «البحر». واستغربت هذا الاجتماع الصباحي الغريب، ألقت السلام على الجميع. وانتبهت أن الجميع ينظرون إليها بترقب. احتضنها أيمن بحنانه المعهود، وسألها عن إحساسها، أجابته أنها بخير وتساءلت مستغربة لماذا تسأل عن إحساسي؟ أنا بخير.

- أجل أنت بخير كما دائماً.

خاطبتها السيدة فريال على الفور، ولكن وعكة صغيرة قد ألّمت بك فقلقنا عليكِ، هذا كل شيء.

- هل أستطيع أن أعرف كيف قررت الخروج من غرفتك؟

سألها أيمن؛ أريد أن أطمئن عليك هذا سبب سؤالي.

- جاءت أمي لزيارتي وطلبت مني ذلك.

لم تستطع أن تنهي جملتها، فقد جرحت حنجرتها الغصّات

التي تجمعت فيها، وحرقت مقلتيها جمرات الحزن. هرعوا جميعاً إليها وعانقوها بكل الحب، وتحدثوا كثيراً لم يتركوا أمراً إلا وتطرقوا إليه أخبروها عن وضعها بكل دقة وأمانة طبية، وتولت السيدة فريال مهمة الحديث عن الموت وما يتركه من آثار عميقة في ذواتنا، لكن هذا لا يعني أن نقتل أنفسنا حزناً، عليك متابعة الحياة رغم الفراغ المؤلم الذي يسببه غياب الأحبة، إلا أننا يجب أن نستمر ونواصل مشوارنا. بمساعدة عائلتها الرائعة تمكنت فرح من الخروج من نفق كان ممكن أن يودي بحياتها.

عادت فرح لتستقبل كل صباح النوارس المحملة برسائل حب وشوق من صديقها الأزلي، البحر حاولت ردم الفجوة الزمنية التي أحدثها غيابها، وعادت لتواصل اهتماماتها وتعوض قليلاً على عائلتها ما بذلوه من جهود في محنتها، وشعرت أنها مهما فعلت لن تعوض عليهم ما بذلوه لأجلها. جاء عامر لزيارتها واطمأن عليها وعلى وضعها الصحي، وأخبرها أنه ينتظرها دائماً كان يرسل لها مع كل شروق قبلات وأشواق ورسائل عشق، علّ تلك الرسائل تنتشلها من قاع الحزن على والدتها، وكان يعلم ما حجم الوالدة في حياة فرح وماذا يعني رحيلها. لقد كان شبه مطلع على كل التفاصيل التي مرّت بحياتهم، وكان فخوراً بها وبعائلتها.

اتصل بها بعد أن غادر منزلها في مدينة جبلة، ووصل إلى دمشق ليطمئن عليها وعلى أشقائها، أخبرها أنه لم يعد يحتمل

صبراً، البعد بات قاتلاً، يا فرحي، الحزن لا يليق بك، تعالي إليّ، نحتاج سنين طوال لنبوح بعشقنا، تعالي إليّ أرجوك. حزنت فرح كثيراً وأنّبت نفسها على ضعفها وعلى استسلامها خجلت، من كونها أوقعت كل من حولها في الحزن والمعاناة، وقررت أن تعود إليهم بحال أحسن وأقوى، صارت تنظمّ أوقاتها، وتسافر في الأسبوع يومان إلى دمشق لتلتقي بعامر، ومن ثم تعود إلى مدينتها وترتب أعمالها التي تراكمت أثناء غيابها. إلى أن قررا الالتحام والعيش معاً وألا يفترقا. وأعلنا للجميع قرارهما بالتوحد معاً. الكل بارك الخطوة، ليذهبا معاً بسلام غابا في ملكوتهما ومعابد عشقهما، زرعا بذور طيبة، أنتجت ثمرة نادرة وفريدة. لكن حراس الديكتاتور ورجال الأمن لم يتأخروا في ملاحقتهما، ليتم اعتقال عامر مرة ثانية ونفيه خارج البلاد إلى لبنان. بحجة دخوله البلد والإقامة بطريقة غير شرعية، حتى يتسنى لهم محاصرة فرح وتعريضها لكل المخاطر الممكنة. أما السبب الحقيقي وراء ذلك، هو أصول عائلة فرح التي كانت من الطائفة العلوية. هذا كان وراء ملاحقتها في كل الساحات التي تركن إليها فرح بأحلامها لتؤسس لحياة مستقرة، لكن قرارهم كان ألا يدعوها تهنأ، وأن تظل تدفع ضريبة معاداتها للنظام الذي كان يدّعي انتمائه لتلك الطائفة، وحاميها من مخاوف تاريخية روّج لها وكرسها كحقيقة في ذهن كل فرد في هذه الطائفة. أرادوا الانتقام من فرح في كل شيء أرادته،

لأنها تمردت على كل مقدسات الديكتاتور. أما هي فقد حزمت أحلامها وذاكرتها وغادرت باتجاه المنفى، الذي تلقف بأنياب ومخالب مسمومة جسد عامر. افترشا الأرض وأكلا من حقول لا يعرفا أصحابها، غابا في تيه الجوع والقهر يبحثان عن ملاذ لجسديهما، كانت فرح تحدث نفسها وتتساءل: هل نحن حقاً في نهاية القرن العشرين؟ كيف العالم يعج بمنظمات تدعي صونها لحقوق الإنسان؟ أين الإنسان في هذا العالم المتوحش، الذي مافتئ يفتك بنا؟ منذ طفولتنا الأولى لم نعرف سوى القهر والجوع والحرمانات الكثيرة والاضطهاد والقمع. أية بلاد منافقة تلك التي تدّعي حمايتها لحقوق الإنسان؟ نحن في نهاية القرن العشرين، ومطلع القرن الواحد والعشرون ولا نجد كسرة خبز تسد رمقنا؟ نسرق من حقول الآخرين الخضار النيئة ونقتات بها، نبحث عن مأوى أو سقف بالحد الأدنى ولا نجد، كيف لهذا العالم الصامت أن ينجو من لعنات الفقراء والمساكين.

يا كل المنفيين، تعالوا إليّ، زاخرة مراكبي بالأمنيات، عامرة موائدي بجنى الأزمنة. يا كل المنفيين تعالوا إلي لأنني الاختلاف الشقي، أتدثر بظل غيمة وفرح مؤقت، أحوك من خيباتي وهزائمي وميضاً لبارقة ترافق فصولنا، تدعونا للرقص فوق أخيلة الأحزان. يا كل المنفيين، تعالوا نصوغ من بروق السماء موطئاً لأقدامنا، لأحلامنا.

استمرت معاناة عامر وفرح وطفلهما ريتشي لأشهر، إلى أن

وجدوا مأوى كان مزرعة مهجورة، وقد قاما بتنظيفها وترتيبها، واخترعا من بقايا أدوات تربية الدواجن المتروكة هناك، ما يصلح ليكون مقاعداً أو سريراً، وقد جمعت فرح بعض الملابس وقطع القماش المرميّة وغسلتها ثم وضعتها على المقاعد لتكون فراشاً. كانا يقلعان من الأرض المجاورة الشوندر السكري ويقومان بغليه على نار الحطب ليصير سائلاً محلى، يضيفون له القليل من الشاي ويشربانه مع بعض أرغفة الخبز لهما ولطفلهما.

موجع برد الشتاء هناك على سفح الباروك، لكن ما أنقذ الطفل من الجوع والبرد هو تعاطف صاحب المتجر القريب، الذي نمت بينه وبينهما علاقة طيبة بعد أن اكتشف أنهما من أحزاب شيوعية، وكان يمدهما ببعض الحليب والخبز، لكنهما كانا يرفضان هديته السخية، ما يضطره للنزول بها إلى السهل حيث يقطنان ويقدمها خَجِلاً لهما. صار عامر يصنع «بقطعة حديد رآها مرمية في الطريق وشحذها بحجارة السهل لتصبح كالإزميل»، من خشب المزرعة المهمل منحوتات بديعة ويقدمها لصاحب المتجر جوزيف كرد على جميله، لكن جوزيف فعل مع عامر خيراً وصار يبيع المنحوتات بمبالغ معقولة، تطورت الأعمال النحتية بعد أن طور عامر أدواته، وأصبح لديه مشغله الخاص البسيط، الذي صار يتطور بتطور الأعمال إلى أن ارتقت لتصبح منحوتات أكبر وهدايا شرقية ومفروشات فنية.

استقرا قليلاً بعد أن شعرا ببعض الدفء والأمان، وغادرهما الجوع والضيق. واقتنيا بعض الأثاث المستعمل، رتبا منزلهما الذي سكنا فيه مجاناً لأن صاحب المكان لا يريده ولا يريد بدلاً مقابل سكنهما. والذي هو في الواقع خربة متروكة تمكنت فرح من تنظيفها، وقامت هي وعامر بزراعة الورود والشجيرات، وصنعا أحواضاً للنعناع والزعتر والحبق وإكليل الجبل، حتى أن صاحب المكان حين جاء بالصدفة لزيارة المزرعة لم يتعرف عليها، وأدهشه ما حدث من تطور جميل في المكان.

عامر كان يردد على فرح غالباً:

- لو لم يسافر عدنان إلى البرازيل لما كنا عانينا هنا ما عانيناه هنا.

وكأنها صيغة للاعتذار. لكن فرح لم تكن تكترث للظروف التي واجهتهم بقسوتها، بقدر ما كانت حاقدة على الحكومات ورؤوس الأموال التي تتجمع في أيدي تجار الدم، لينتهكوا بواسطتها حق الإنسان، كانت تعلن على الملأ حربها عليهم، وتفضح ما استطاعت صفقاتهم وأساليبهم.

لم تنقطع فرح عن التواصل مع شقيقتها جمال وشقيقها أيمن والصديق الشقيق سمير بشكل دوري، لكنها لم تكن تخبرهم عن حقيقة أحوالها. أيمن وسمير حكم عليهم بالسجن لمدة سنتين مع حرمانهم من حقوقهم المدنية والعسكرية، وخرجوا بعد

فرح وسيرينا بثلاثة أشهر، حيث تم التحفظ عليهما فيهما في فرع فلسطين للمخابرات العسكرية. جمال كانت قد عكفت عن الارتباط بأي ممن تقربوا منها وتفرغت لعملها في الصيدلية ومتابعة طريق تخصصها، في الغرق في الدراسات العليا. أيمن كان قد تمّكن من فتح عيادة صغيرة دون ترخيص في مدينة جبلة. أما سمير فقد قرر العمل في المشافي الخاصة من خلال علاقات والده، ورفض أن يفتتح عيادته الخاصة. سيرينا التزمت بمنزل عائلتها بعد خروج والدها من السجن، بعد مدة قد قضاها بلغت ثمانية عشر عاماً. لتتعرف على شخصية اعتبرتها رمزاً حياً ينير طريقها، وتحظى بأبوة لم تسمح لها يد الديكتاتور أن تعيش معها فاغتالت طفولتها.

لكن فرح، رغم كل المشاعر المختبئة والدفينة التي تسمم قلبها من الألم، لم تستطع زيارة قبر والدتها. حافظت في ذاكرتها على بقاء فكرة أن والدتها مازالت هناك، تنتظرها على شرفة البحر. كانت تنزوي كل يوم لتخبر والدتها بأخبارها، وتسّر لها عن ما يوجعها وما يفرحها، تضحك معها على الكلمات الأولى التي ينطق بها طفلها، وحركاته الجديدة، وحين ينام تتركها برفقته. كانت تبكي ألماً حارقاً حين تخرج من هذياناتها وتخيلاتها، ويؤكد لها أحد ما عبر تقديم العزاء أو ما شابه وفاة والدتها. لكنها ترجع وتتمسك بفكرة أن والدتها لم تغب، وستعود يوماً إلى شرفة البحر في منزل العائلة، وتجدها تنتظر عودتها

لتضمها إلى صدرها كما تفعل عادة، وتغرق في عبق حبقها ودفئها. وستقبل يديها وتمسح حزنها بأصابعها، الذين كانوا يشكلون لفرح مرافئ لدموعها وقهرها. أجل هي هناك، إني أراها كيف تجلس على أريكتها الغالية، وتحوك شيء ما لطفلي لتفاجئني به حين أزورها. هكذا كانت فرح تكلم نفسها دائماً.

ثورة

في عمق الأنثى الخلاّقة، المسكونة بذاكرة الألم الصرف، كانت تبحث فرح عن ذاتها، تنبش ركام التجارب القاسية، لتستحضر الجمال في أوقات نادرة، عبرت فيها مع عائلتها الصغيرة أوقاتًا مكرسة للحياة، لتقتات روحها وتحميها من الانكسار، صنعت من اللحظات درعًا لتنتصر على وعورة الزمان. سمحت لتجلياتها عن الأوطان والحرية وآمال الثوار، بعد أن تم تحرريها من معتقلات الديكتاتور في الشهر الثالث للثورة السورية، أن تخرج من إطار الأحلام، لتصير سعيًا للحقيقة، على طريق المشروع الثوري الذي بات واقعًا.

لم تكن تصدق ما يحدث، حين كانت تراقب من معتقلها أخبار بلدان الربيع وانهيار الديكتاتوريات تباعًا، في حرقة وحسرات متلاحقة، تناقش نفسها إذا كان الوقت يسمح للحلم السوري بالخروج للضوء، هل يعقل أن ينتفض السوري، ويمتلك الجرأة لينسج تاريخًا يعيد له كرامته؟

بينما روحها المتحفزة تنتظر على شرفات تواقة للحرية، سمعت هدير سيمسح في القادم من الأيام غبار الانكسار والخنوع عن جبهة السوري، كان وقع أقدام الأحرار يصل مسامعها، يدك أسوار الخوف والصمت، يعانق أحلامها المزمنة، يهدر صاخباً صارخاً في وجه كل الطغاة ليقول نحن أنبياء هذا العصر أبناء الشمس. تستمع خلسة إلى راديو مونت كارلو، علّها تلتقط خبرًا يشفيْ ظمأها، كانت أوتارها مشدودة، وأنفاسها تعلو بصخب، ترتجف أوصالها، بانتظار أي إشارة، إلى أن جاء موجز الأخبار محملًا بألم شطرها نصفين.

هرعت إلى تلفون السجن بجنون الأنثى الأم، دون حساب لمخاطر ما أقدمت عليه، حملت سماعة الهاتف دون أن تضع نقودًا، كانت الفتاة المسؤولة عن حصالة الهاتف تنظر بدهشة، وراحت تضع لها القطع النقدية دون تفكير، مأخوذة بملامح فرح التي اختلفت تمامًا عما عهدته من هدوء وصمت رصين، تتحدث فرح إلى أحد محاميها، تلعن وتشتم علنًا كل شيء، كيف تسمحون لأنفسكم أن تجلسوا في بيوتكم وطفلي في المجهول؟ عمل المحامي جاهدً ليهدئ من غضبها، وفشل، كان يخبرها أن ريتشي مع والده في فرع الأمن الجوي، أما هنيبعل فلا أحد يعلم عنه شيئًا. ضاع، في زحمة الاقتحام الأمني للاعتصام.

حتى هذه اللحظة لا تجرؤ فرح على استرجاع تلك اللحظة التي صرخت فيها، وشقت وجه السماء. الصمت العميق طغى

على كل تفصيل في سجن النساء، عيون النسوة الحزينة، أصابعهن المرتجفة خوفًا، اضطراب ساكن ومخيف يظهر في نظراتهن، الكل كان متحفزًا للحظة انفجار، وفرح ترعد وتصرخ في وجه هذا العالم. توقفت كل حصالات الهاتف عن العمل، وجلست النسوة في محيط ساحة السجن يراقبن فرح، ينتظرن ما سيحدث، لم تجرؤ واحدة منهن أن تقترب من فرح، راحت تنتقل من هاتف إلى آخر كالإعصار، تكلمت مع من تعرفهم من محامي حقوق الانسان، الكل كان يحاول طمأنة قلبها، بأن هنيبعل حتمًا سيكون بخير.

نهار طويل، طويل جدًا، أخذ من فرح كل قواها، سقطت روحها في بئر من الأشواك المسمومة، كان حين يسقط دمعها، يحرق مجراه وتحترق معه، تدور في ساحة السجن، تبحث عن مخلص ولا سبيل، القيد يسحبها إلى قاع مظلم، بارد وعميق جدًا، كل دقيقة كانت تمّر بحجم حقبة زمنية لا تنتهي، تحاول أن تمسك أصابع طفلها الذي تلقفه المجهول، أصابعه الغضة التي كانت تحيط وجهها كل ليل، لينام في سرير الهناءة مغمورًا بدفئها. حاولت أن تصرخ لتدله على طريق العودة، لكن صوتها كان مكبلًا بالفجيعة، تمشي في ساحة السجن ووقع أقدامها يدق وجه الأرض، لتخرج شياطينها وبراكينها، أراد الليل أن يعلن نهاية نهار، لكنها لم تسمح له، أمسكت سماعة الهاتف واتصلت بمحاميها، وكان ينتظر مكالمتها، أخبرها أن هنيبعل الآن بخير

وهو في بيت جدته الآن اطمئني قليلًا.

لم تصدق، سألت عن كل تفصيل، كيف ضاع، من تعرّف عليه، من أنقذه، أسئلة لا تنتهي، والمحامي يجيب بصوت أبوي. بكت دمعًا مختلطًا فرحاً مشوب بقهر عميق، وتذكرت، أين ريتشي؟ لا تقلقي عليه، حملات واسعة عابرة للعالم تطالب بالإفراج عنه وعن والده، أرجو أن تأخذي قسطًا من الراحة الآن، وتتصلي بمنزل جدة هنيبعل لتطمئني عليه، وفي الصباح أنتظر مكالمتك لأخبرك عن عامر وريتشي، كوني بخير.

البركان السوري الخامد أفاق من سباته، وتحرك باتجاه فضاءات ملونة ليمسح لون العتمة، ويحرر بالأغاني سكونه الطويل، حيث كانت تقضي السنة الثانية لاعتقالها، وقد حكم عليها بالسجن لثلاثة سنوات بتهمة نقل أنباء كاذبة توهن نفسية الأمة وإضعاف الشعور القومي وما إلى هنالك من فبركات أمنية، يخترعونها ليزجوا بالإنسان ما شاؤوا وما راق لهم وراء حدود الحياة.

انتفضت الكرامة السورية لتثأر من مغتصبيها، لكن أهازيج الحرية جوبهت بالرصاص الغادر، وطغى لون الدم على كل الألوان، حصدت الآلة العسكرية أرواح تاقت طويلاً للطيران في سماوات مفتوحة، لم تحتمي إلا بحبها للأوطان، ولم تلبس درعاً إلا لافتات كتب عليها «الشعب يريد الحياة»، ولأول مرة على مدى أربعة عقود قال الشعب كلمته ونزل إلى ساحات كان

ممنوعاً عليه أن يخطو بها إلا ذليلاً راضخاً. اليوم يدفع الرجال ضريبة صمت سنوات على استبداد وانتهاك لكل مقدرات ومكونات البلاد، لكنهم رغم كل الرعب والموت والمجازر المرتكبة بحق الإنسانية، قرروا المضي في طريق لا عودة منه، إنهم يقفون اليوم على بوابات الشمس ليلتقطوا شعاعاً يخرجهم من كهف الديكتاتور.

كان من أجمل ما حدث مع فرح، هو الولوج إلى الفضاء الأزرق، الذي اختصر كل الطرق الشائكة، وقدّم لها طرقًا جميلة للتواصل. عامر المفتون المتعب من الانتظار والشوق، كان يحتفي بوجود فرح مجددًا في عالمه، يحاول أن يقدم لها الهدايا في كل لحظة، يتحدثان إلى يتعب الكلام، يخبران بعضيهما بكل التفاصيل، يعوضان قحط الغياب بأوكسجين الجسد، يسيران معًا مجددًا، يخططان، يحتضنا طفليهما لتعويض الوقت المسروق من لوحة أيامهم. أخبرها عامر عن عالم الفضاء الأزرق، الفيسبوك، الذي استخدمه الثوار للتواصل والتنسيق للمظاهرات، وفتح لها نافذة فيه، كانت مبهورة بآلية هذا الاختراع، تعرفت أكثر على تقنياته، بمساعدة عامر وريتشي، الذي كبر ونضج تحت وقع التجربة المؤلمة التي عبرها في نفق المعتقلات.

تمكنت فرح من خلال عالم الفيسبوك، أن تسترجع ما انقطع من علاقات، وأهم من كل هذا الأشقاء، أيمن وجمال وسمير،

كانوا في تواصل دائم، كما ظهر علي بعد غياب، أخبرها أنه بعد غيابها الأول، شعر أن الكون فارغ تمامًا، وكانت اللاجدوى حليفًا ملازمًا له، لذلك انهار وحسم خياراته كلها بأن التحق بالكلية الحربية، ليتخرج ويصبح ضابطًا في الجيش، لكن بعد وفاة أم أيمن، شعر أن الوقت سدد له ضربة في مقتله، انكسر زجاج البحر على ملامح وجهه، وسقط صريع الندم، لم يجرؤ على مواجهة نفسه، كان يشعر بالخذلان، ولا طريقة لإصلاح الخلل الكوني الذي سببه رحيل أم أيمن، كان يشاطئ البحر منتظرًا عبور شراع يحمل النجاة، أو يقذف به إلى الهلاك، لكنه استطاع أن يبقى على قيد الوجود بالكتابة.

أخبرها:

** لقد كتبتك في ألف رواية، وغنيتك في كل القصائد. كنت دائمًا حارسة تحميني من الخطيئة، صنعت لك أحذية من الأرز العملاق، تليق بهامتك العالية، مجّدت اسمك حين نقشته على كل دمعة ابتهلت وصلّت أن تعودي من رحلة الغياب، زرعت غابات من الحبق على الطريق المؤدي للمجهول الذي تعشقينه، رسمت لك منازلًا من الضوء كما تشتهين، وكيف لا، وأنا أفتح شبّاك بداية نهاري على فائك، وأنام متقوقعًا متكورًا في حائك، فرح، يا ابنة المغارة الإلهية، أخرافة أنت، أم أنني من المحظوظين جدًا بأنك حقيقة وكان لي شرف وجودي في عالمك؟

لم تستطع فرح أن تفهم كنه ما كان يكتبه لها علي، كان مزيجًا

سحريًا من ألفة الزمان البعيد، مصحوبًا بمشاعر تشبه العشق، اختلط عليها الأمر لكنها لم تناقش ذلك معه. لكنها سألته:

- أين أنت الآن؟

- أنا ما زلت أقف على باب المغارة أنتظر عودتك.

- والوطن؟

- الوطن ما زال مصلوبًا يا مليكتي.

- مليكتك؟

- أجل أنت مليكتي، لا أعرف ماهي حقيقة مشاعري، صدقيني، لكن عالمي ممتلئ بك، أنا متزوج وعندي أطفال، وعلاقاتي كثيرة أيضًا، لكن كلما أردت التطهر أذهب إلى المغارة، أعانق ظلك الذي ما زال متروكًا هناك، وأغفو، ليس عشقًا، بل أكثر، ليس رغبة، بل أكثر، كأنك الحياة بكل بهاءها، حلم أراد أن يبقى حلمًا.

أخذ التواصل مع الأصدقاء والعمل في ميدان الحراك الثوري كل الوقت من حياة فرح وعامر، صار واقعهم مرهون لاحتياجات الشارع ونبضه. الخوف يزمجر كل ليلة تحت أسرّة طفليهما، الخوف من الفقد مرة أخرى، الخوف من الضياع، وهذه المرة لا عودة من المجهول، هذا بات معروفًا للجميع، الخطر يدق ناقوسه كل ليل، تاركًا إشاراته على زجاج النوافذ، وألعاب الطفولة، نظرات ريتشي وهنيبعل صارت منبع الأرق في

ليل عامر الطويل، حوّلت قلبه إلى قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، وفرح الغارقة في تفاصيل الحراك، كانت تنتبه للخوف الذي يمزّق عائلتها الصغيرة، لكنها تسارع وتنجز ما أمكنها، كأنها في سباق مع الموت، لتتفرغ لعائلتها فيما بعد.

وكل ليل كانت تحتضن عائلتها بكل أفرادها، فقد اقترحت أن يناموا جميعًا في سرير واحد، متلاصقين، طفليهما في الوسط، عامر على الطرف الأيمن، وفرح على الطرف الآخر، هنيبعل المشاكس كان يريد أن يتفرد بأمه، وكل ليلة كان يعلن أنها أمه وحده، ليدخل في صراع طفولي جميل مع ريتشي الهادئ دائمًا.

سألها ريتشي ذات ليلة:

– أمي، أنا قضيت بضع أيام في المعتقل، وأشعر الآن أنني كبرت سنوات كثيرة، كيف مرّت عليك تلك السنوات، وما زلتِ تحملين روحًا فتية، صاخبة؟

– لأنني كنت أخلع جلد روحي، وأترك قلبي على ضفة الحبق.

أجابته مبتسمة.

– لم أفهم!!

– أقصد أنني كنت أقاوم العجز وأحارب الوقت، أتخيل أنني في آلة السبات التي نراها في أفلام الخيال العلمي، أتتذكرها؟

** يجيب ريتشي بإيماءة متشجعًا جدًا للفكرة.

– أترك روحي عندكم، لأعود إليكم [illegible] كل يوم على الحياة، أخترع أنفاقًا تحت جدار [illegible] منه كل يوم إليكم، أتفقدكم، أمنحكم كل ليل دفء قلبي، [illegible] وأعود دون أن ينتبه الحراس لغيابي.

– لماذا لم تخبريني عن هذه التمارين قبلًا.

– ماكنت أعرف أن يد الديكتاتور ستطالك يا حبيبي، كنت أتمنى لو دفعت من عمري سنوات طويلة، لأحميك المرور بهذا النفق.

– لا تخافي أمي، منحتني هذه التجربة قوة إضافية.

– أحبك جدًا يا بني.

عانقها وهو ممتلئ بالفرح، ونام.

ثمة وظيفة عظيمة للألم المخبوء، بأن يفتح تلك الطرقات المسدودة بقدراته الاحترافية، يُعمل مفاتيحه السرية، وأدواته، تقنياته المتعددة الظهور، وفي عبور الإنسان بوابات الألم، يمجده الخلود، حين ينتج الحياة، الإنسان هذا الكائن المتشبث بالحياة دائمًا، بقدر ما هو هش وصغير، على قدر ما يفاجئ الكون بقدراته الخلاّقة، القادرة على تجاوز عتبات مستحيلة، إذا أراد.

ولأن السوري على مر الأزمنة، يضع الجمال هدفًا لمسيرته في الحياة، كانت هجمات القبح، والبشاعة تحاول قتله باستمرار، ومحاصرته في خندق العجز، إلا أنه كان يعبر إلى الضوء، رغم

ليل عامر الطويل، حوّلت قلبه إلى قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، وفرح الغارقة في تفاصيل الحراك، كانت تنتبه للخوف الذي يمزّق عائلتها الصغيرة، لكنها تسارع وتنجز ما أمكنها، كأنها في سباق مع الموت، لتتفرغ لعائلتها فيما بعد.

وكل ليل كانت تحتضن عائلتها بكل أفرادها، فقد اقترحت أن يناموا جميعًا في سرير واحد، متلاصقين، طفليهما في الوسط، عامر على الطرف الأيمن، وفرح على الطرف الآخر، هنيبعل المشاكس كان يريد أن يتفرد بأمه، وكل ليلة كان يعلن أنها أمه وحده، ليدخل في صراع طفولي جميل مع ريتشي الهادئ دائمًا.

سألها ريتشي ذات ليلة:

- أمي، أنا قضيت بضع أيام في المعتقل، وأشعر الآن أنني كبرت سنوات كثيرة، كيف مرّت عليك تلك السنوات، وما زلتِ تحملين روحًا فتية، صاخبة؟

- لأنني كنت أخلع جلد روحي، وأترك قلبي على ضفة الحبق.

أجابته مبتسمة.

- لم أفهم!!

- أقصد أنني كنت أقاوم العجز وأحارب الوقت، أتخيل أنني في آلة السبات التي نراها في أفلام الخيال العلمي، أتتذكرها؟

** يجيب ريتشي بإيماءة متشجعًا جدًا للفكرة.

- أترك روحي عندكم، لأعود إليكم كما كنت، أدرب جسدي كل يوم على الحياة، أخترع أنفاقًا تحت جدار الحصار، أخرج منه كل يوم إليكم، أتفقدكم، أمنحكم كل ليل دفء قلبي، أقبلكم وأعود دون أن ينتبه الحراس لغيابي.

- لماذا لم تخبريني عن هذه التمارين قبلًا.

- ماكنت أعرف أن يد الديكتاتور ستطالك يا حبيبي، كنت أتمنى لو دفعت من عمري سنوات طويلة، لأحميك المرور بهذا النفق.

- لا تخافي أمي، منحتني هذه التجربة قوة إضافية.

- أحبك جدًا يا بني.

عانقها وهو ممتلئ بالفرح، ونام.

ثمة وظيفة عظيمة للألم المخبوء، بأن يفتح تلك الطرقات المسدودة بقدراته الاحترافية، يُعمل مفاتيحه السرية، وأدواته، تقنياته المتعددة الظهور، وفي عبور الإنسان بوابات الألم، يمجده الخلود، حين ينتج الحياة، الإنسان هذا الكائن المتشبث بالحياة دائمًا، بقدر ما هو هش وصغير، على قدر ما يفاجئ الكون بقدراته الخلاّقة، القادرة على تجاوز عتبات مستحيلة، إذا أراد.

ولأن السوري على مر الأزمنة، يضع الجمال هدفًا لمسيرته في الحياة، كانت هجمات القبح، والبشاعة تحاول قتله باستمرار، ومحاصرته في خندق العجز، إلا أنه كان يعبر إلى الضوء، رغم

دوامات الآلام، اليوم في آذار فجّر السوري شموسه المخبأة في جيوب أسراره، متجاوزًا المستحيل، حين أزاح ستار الصمت والخنوع، معلنًا عن وجوده، وإرادته في الحياة، رغم ماكينة القباحة التي تريد تحطيم كل الجسور التي يبنيها، رغم الطرق الوعرة المدججة بالألغام.

العالم كله يقف متفرجاً على ما يحدث من مجزرة لم يشهدها التاريخ من قبل، وعلى جنون الطاغية وما يرتكبه للحفاظ على كرسيه، ولا أحد، لا أحد وقف إلى جانب الشعب الذي حوصر وحورب بكل الأساليب القذرة التي ابتدعها الإنسان لقتل أخيه الإنسان.

لم يكن عامر يرفض التحدث إلى الصحفي الذي كان يبحث عن حقيقة ما يحدث في الشارع السوري، ليوثّق ممارسات الحاكم، شرح مطولًا تفاصيل أول وقفة في وسط دمشق، كيف وقفوا أمام طغيان الحاكم بكل جرأة مطالبين بحقهم في استرجاع أبنائهم ومعتقليهم، لكن بطش اليد الأمنية كانت بالمرصاد، كان ينتظرهم جداراً منيعاً من رجال الأمن وقوى المخابرات وعدداً كافياً للقضاء على مدينة كاملة بسكانها، ليواجهوا مجموعة صغيرة ممن تجمعوا في ساحة المدينة مطالبين بمعتقليهم، حاملين صورهم فقط.

ضربوا بيد من نار، مزقوا الصور المرفوعة وداسوا عليها، اعتقلوا الأطفال أبناء المعتقلين، وضربوهم بعصي من غدر،

وأخذوا الجميع إلى دهاليز التحقيق. ورغم محاولات الديكتاتور للتعتيم على ما حدث، إلا أن صوت الحرية كان أكبر من أن يصمت ويُعتقل، وصل الصوت ليملأ ساحات المدن الأخرى هادراً في وجه الظلم والاستبداد، وقد نجح عامر بتسريب ما أمكن توثيقه في كاميرته التي كان يحملها في ذاك الاعتصام، والمكالمات الهاتفية التي كانت فرح تجريها كل يوم للاطمئنان على عائلتها، ومعرفة ما يتم تحضيره للخروج من الصمت، لتكون انتفاضة الشعب المستحيلة، وتبدأ سوريا كتابة تاريخ جديد، خارج إرادة الطغاة.

فرح كان إيمانها بشعبها عظيماً، طارت وعلت صيحاتها خارج الأسوار لترافق شعبها في مسيرته على دروب التحرر، وخرجت من قبرها لتعانق الجباه الحرة التي واجهت الرصاص والقتل اليومي في ساحات التظاهر، وشاركتهم احتفاليات الحرية واسترداد الكرامة التي بدأتها هي منذ سنوات طويلة، كان كسراً لكل التابوات والمحظورات وقيود الخوف.

لقاءات عامر وفرح مع بعض الصحفيين، ونشاطهم الكثيف، ضيّق عليهما دائرة التحرك، وحوصر منزلهما في دمشق، اليد الأمنية تحاول خنق كل منفذ للشمس، لتبدأ رحلة بلون آخر من العذابات في حياة عامر وفرح، رحلة المنافي والضياع، تم تهريبهم إلى مربع آمن في بيروت، بعيداً عن الاعتقال والقتل. هي الأوطان، تُبذل من أجلها الأرواح، لكن القرار المتفق عليه

من الأصدقاء الذين يحيطون بعامر وفرح، أن يخرجا من دائرة الموت لفترة وجيزة، والتعامل بحذر مع كل شيء للحفاظ على حياتهما وحياة طفليهما، اللذان تعرضا لفترات عصيبة في حياتهما، ولم ينعما بحياة مستقرة وصودرت طفولتهما تحت وقع سوط الديكتاتور الذي لاحق والديهما.

وفي بيروت المفتوحة نوافذها للبحر والحياة لم يجدا الأمان الذي بحثا عنه، كانا يعملان على تشكيل نواة للعمل الثوري والإغاثي، بمساعدة القوى السياسية اللبنانية المعارضة التي كانت تدعم الشعب السوري في ثورته ضد حكم الديكتاتور. كانت العلاقة مع القوى اللبنانية التي أخذت موقف واضح في دعم الحراك في سوريا، «والتي هي أصلاً قديمة وتاريخية بين التيارات والأحزاب السورية واللبنانية»، الباب للعلاقات الأخرى لطرح شكل تقديم المساعدة على كل المستويات، ومناقشة المشروع الثوري وتفاصيله، وعرض واقع الناشطين الموجودين في لبنان، والخطر الذي يداهمهم من أذرع نظام الديكتاتور في بيروت.

لكنهم كانوا محتجزين في دائرة الحصار ذاتها، ولم يتمكنوا من تقديم مساعدة في مشروع دعم الثورة، لأن خطابهم الذي كان موازياً لمتطلبات الشعب السوري في ثورته، هو ما ضيّق الخناق على وجودهم وتحركاتهم. خابت كل المحاولات في إنجاز المشروع الذي حلما عامر وفرح به كجناح داعم للثوار، وصلا لنتيجة أن الكل بمن فيهم الجهات الصديقة تريد للبلاد أن

تتحول إلى تركة مدمّرة، ضعيفة ومتفسخة. كاد القهر أن يفتك بهما ودخلا في دوامة العجز واللاجدوى، حاولا انتشال روحيهما من مستنقع اليأس. لكن مشهد القتل اليومي والدم المباح أمام العالم الصامت المتفرج كله كان يهوي بهما إلى هاوية سحيقة من الحقد والقهر والاستصراخ الدائم، لكن أحداً لم يكن يسمع صيحات الاستغاثة لوقف المجزرة.

وصلت فرح وعامر وطفليهما إلى باريس، بعد أن ضاقت عليهم دائرة الحصار في بيروت، وأ طلقت كل الكلاب الأمنية في طلبهما. أرواحهم الجريحة بقيت هناك في أرض تولد من جديد، وتلبس سماء تليق بسكانها، أرواحهم المزروعة في ثنايا الأرض التي لم يعرفوا غيرها. يقتاتون من الذاكرة، ذاكرة البلاد والأوطان.

وطأت فرح أرضاً غريبة لم تشعر بصلابتها ولم تمنحها ذاك الثبات، كما أن السماء لم تكن بزرقة سماء تلك البلاد، التي اعتادت أن تحلقّ مع زرقتها، تمشي على أرض من الرمال المتحركة وتغرق مع حركتها وهي تهذي:

نحن آخر الأنبياء.. وأجمل الشعراء..

بقصائدنا.. نحفظ سر الحياة..

ندعوه أن يقترب من العلن..

حين نمنح الجنيات رموزه..

ليخبرن صيادي الشمس.. لغز الآلهة..

ذو النون يتعالى على آلامنا..

لكن حسرات الأمواج..

صاغت من بياض الملح..

شاهدة قبر.. على مدائن العتمة..